



جامعة السلطان قابوس
مركز الدراسات العمانية



الندوة الدولية العلمية حول

كُتُبُ السَّيْرِ الْإِبَاضِيَّةِ

٣١ أكتوبر - ٢ نوفمبر ٢٠١٤م

الجزء الأول



رقم الإيداع المحلي: ٢٠١٥/٤٣٠
رقم الإيداع الدولي (ISBN): ٩٧٨-٩٩٩٦٩-٠-٥٩٨-٨

الندوة الدولية العلمية حول

كُتُبُ السَّيْرِ الْإِبَاضِيَّةِ

٣١ أكتوبر - ٢ نوفمبر / ٢٠١٤م

الجزء الأول

١٤٣٧هـ / ٢٠١٥م

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

حقوق الطبع محفوظة لدى

مركز الدراسات العُمانية

جامعة السلطان قابوس

ص.ب : ٥٤

الرمز البريدي: ١٢٣

الخوض-سلطنة عُمان

هاتف: ٢٤١٤٥٨٥١

فاكس: ٢٤٤١٣٩٥٣

البريد الإلكتروني: osc@squ.edu.om

.....

All rights are reserved for

Omani Studies Center

Sultan Qaboos University

P.O BOX: 54

Postal Code :123

Al koudh-Sultanate of Oman

Tel: 24145851

Fax:24413953

Email:osc@squ.edu.om

إعداد

مركز الدراسات العُمانية بجامعة السلطان قابوس بسلطنة عُمان

بالتعاون مع جمعية جربة التواصل بتونس

تصميم

ليلي زهران محمد السبيانية

الآراء المنشورة في هذا الإصدار كما وردت من الباحثين

ولا تعبر عن رأي المركز أو الجامعة

فهرس المحتويات

م	المحتوى	رقم الصفحة
١	كلمة مدير مركز الدراسات العُمانية / د. علي بن هويشل الشعيلي أستاذ بقسم المناهج وطرق التدريس بكلية التربية - جامعة السلطان قابوس بسلطنة عُمان	٥
الكلمات الافتتاحية		
١	كلمة التقديم الترحيبية / سناء مهني الباروني أستاذة مساعدة بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بجنوبية وباحثة في الأدب والحضارة الإسلامية بتونس	٨
٢	افتتاحية الشيخ فرحات بن علي الجعبري أستاذ محاضر بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس	١٠
٣	افتتاحية الشيخ أحمد بن سعود السيابي الأمين العام لمكتب الإفتاء بسلطنة عمان	١٤
٤	افتتاحية سليمان بن علي بن عامر الشعيلي رئيس قسم العلوم الإسلامية كلية التربية - جامعة السلطان قابوس بسلطنة عُمان	١٦
٥	افتتاحية د. محمد بن قاسم ناصر بوحجام أستاذ محاضر بجامعة الحاج الأخضر بآلة بالجزائر	١٨

الأوراق البحثية

م	عنوان الورقة	مقدم الورقة	رقم الصفحة
١	دولة الإمامة من خلال سيرة العلامة المنير بن النير الجعلاني العماني	د. ناصر بن علي بن سالم الندابي باحث بوزارة التربية والتعليم بسلطنة عمان	٢٤
٢	الأخلاق والقيم في السير الإباضية كتاب طبقات المشايخ بالمغرب للدرجيني نموذجاً	د. يحيى بن بيهون حاج امحمد أستاذ محاضر بجامعة غرداية بالجزائر	٦٧
٣	الشيخ سليمان بن ناصر الإسماعيلي وعلاقته بكتاب السير والجوابات بمكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيد بسلطنة عمان	إدريس بن بابيه باحمد القراري إمام خطيب وباحث بسلطنة عمان	٨٧

٣	عنوان الورقة	مقدم الورقة	رقم الصفحة
٤	مدخل نظري إلى الأنثروبولوجيا التأويلية وطرائق استثمارها في فهم الأدبيات الإباضية	أسامة أبو فريخة أستاذ مبرز جامعة سوسة وباحث في الإسلاميات والأنثروبولوجيا بتونس	١٢٠
٥	أضواء على بعض السير المغاربية الإباضية (سير الوسيانس والبعطوري نموذجا)	د. عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة أستاذ محاضر بجامعة نزوى وباحث في علم المخطوط بسلطنة عُمان	١٤٧
٦	المرأة في السير الإباضية	أحمد الأسود أستاذ مساعد بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بجنندوبة بتونس	١٦٨
٧	الأبعاد الحضارية لسيارة حلقة العزابة في: ق ٥٥ هـ	أ. أحمد بن حمو كروم أستاذ وباحث بمؤسسة عتي سعيد غرداية بالجزائر أ. عمر بن أحمد بازين أستاذ وباحث بمؤسسة عتي سعيد غرداية بالجزائر	١٨٧
٨	الإسناد الديني (نسب الدين) عند الإباضية بالمغرب	بشير بن موسى الحاج موسى أستاذ وباحث بمؤسسة عتي سعيد غرداية بالجزائر	٢٢١
٩	منهجية الشيخ محمد بن عبدالله بن مداد الناعبي في كتابة سيرته المعروفة بسيرة العلماء	بدرية بنت علي بن جمعة الشعبي أستاذة محاضرة بجامعة السلطان قابوس بسلطنة عُمان	٢٦٥

كلمة مدير مركز الدراسات العُمانية

حين وصل المسلمون لشمال أفريقيا، كُتب لتلك البقعة من العالم تاريخًا جديدًا، ليس بدخول الإسلام فحسب، بل بظهور نمط عيش وسلوك مختلف، أسس لعلاقات اجتماعية وطيدة بين المشرق والمغرب.

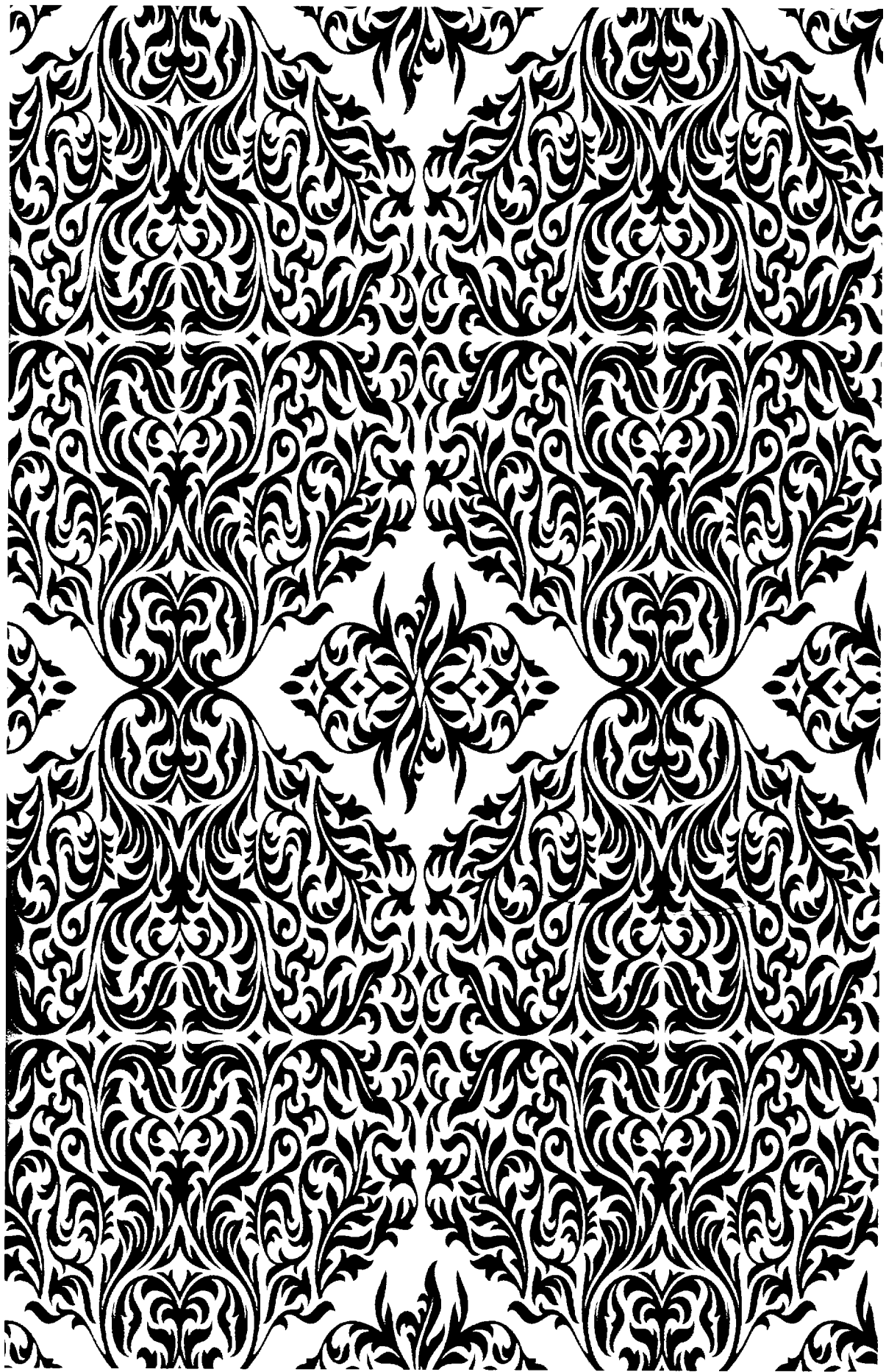
إن اختلاف المدارس الفقهية في الإسلام وتنوعها إنما هو اختلاف يثري الآراء، ويجدد النظر للمسائل والأفكار، ولا يمكن اعتباره خلًا يفسد الود بين المنتمين لها بأي حال من الأحوال.

وإذا كانت المعرفة مُلْكًا للجميع، إذ لا مجال لاحتكارها أو كتمها أو إخفائها من جهة، ومعاناة التاريخ من مظاهر التشويه والتعمية للماضي من جهة أخرى؛ فقد صار لزاماً على الباحثين والمفكرين ضرورة إزالة الغشاوة عن أعين من لا يرى بعين سليمة إلى الإرث الإباضي، ونتاجهم الفكري والمعرفي المتنوع في مختلف المجالات العلمية، إذ لم تكن السير الإباضية تاريخًا يكتبه الغالب أو يُكتب له، بل هي صورة حقيقية للمجتمع الإباضي؛ فكره، أخلاقه وقيمه، عاداته وعباداته.

وقد اختطّ مركز الدراسات العُمانية في جامعة السلطان قابوس نهجًا واضحًا في بناء ذاكرة عمانية من خلال الاحتفاء بسير العلماء والمُصلحين، والعناية بها، انطلاقاً من أن دراسة التاريخ العماني والعناية به هدف أساس، ينبع من تراث المجتمع، وشعوره بالفخر والاعتزاز بإرثه وماضيه، في زمن تزاхمت فيه الرؤى والأفكار، وتغيّرت المفاهيم والأدوار.

ويسعى مركز الدراسات العمانية إلى استقصاء التاريخ العماني من مصادره الأصلية، ووضع الأسس المنهجية السليمة لتحقيق هذه المصادر وتوفيرها لكافة أفراد المجتمع، من هنا يأتي هذا الإصدار تجسيداً لرسالة المركز النبيلة في العناية بالدراسات والعمل على توثيقها؛ لتمكين الدارسين والباحثين من نقل الصورة الحقيقية الصحيحة لسلف صالح طابت سيرتهم، وصفت سريرتهم، وزكّت أعمالهم في بناء حضارة بشرية سامطة، ودافعوا عن حرّمات دينهم وأخلاقهم.

أ.د علي بن هويشل الشعلي
مدير مركز الدراسات العُمانية



دليلك في الفتن

كلمة التقديم الترحيبية

سناء مهني الباروني

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم افتح لنا أبواب رحمتك وانشر علينا أثواب حكمتك واجعلنا من عبادك المخلصين

كان الإباضية وما زالوا منذ أن أنشأوا أركان منظومة فكرهم بمختلف أبعادها السياسية والعقدية والفقهية والاجتماعية والدعوية والحضارية الواسعة تواقين إلى كل ما من شأنه أن يلعب دورا ذا علامة في المحافظة على موروثهم التاريخي وأصالتهم الإسلامية وثقافتهم المتنوعة (الأمازيغية و العربية) تحقيقا وتنفيذا للرؤية السامية للثقافة الإسلامية

ومن سعي أولي الفكر من الجموع الإباضية بالبلاد التونسية، شاءت همّة شيخنا الأستاذ الدكتور فرحات بن علي الجعبري عقد هذه الندوة العلمية الدولية حول كتب السير الإباضية بمنهج دعائمه الموضوعية والجدة ذات الإضافة البناءة من تأليف هذه السير وعليها همّة فُكرت وسعت لجعل كتب السير الإباضية مجال نظر وفق أطر تستمد حاضرها من ماضيها التليد، ووفق تطلعات مدعومة بنظرة مستقبلية مجددة في البحث التاريخي الإباضي ومناهجه، قابلتها همم لبّت بسعي حميد جاذّ ماديا وفكريا، سعيًا يثلج الصدر وينبئ بأنّ مدونات السير الإباضية مجال بحث ودرس يستهوي الأقاليم مشرقا ومغربا إباضية وغير إباضية.

وهنا لا يسع الواحد في مثل هذا اليوم أمام كلّ هذه الهمم الفاعلة إشرافا وتنفيذا وتنظيما ومشاركة وحضورا إلاّ إهداءها مقطوعة رباعية النظم وجهتها القولية لمؤسس المدرسة الإباضية الإمام جابر بن زيد رحمه الله ولأتباعه الذين خلفوا هذا الإرث التاريخي الثري، أمّا وجهتها العملية فرحبة رحابة الموروث الإباضي لكلّ من بحث ويروم مزيد البحث والدرس

في مَتون السير الإباضيّة.

أبا الشّعثاء بالأفاق بصمتك	فانظرنا نخبر عنها الآخرين
بمَن التاريخ لها سير	صانت الأثر والنهج الرصينا
والأيمان في أصحابها غدقت	مدادا نقل الخبر اليقينا
وكما انقُت بالأمس جهلا	فاليوم بحصن العلم تعتلينا
فاللهم علّما ما ينفعنا وانفعنا بما علّمتنا واجعلنا من عبادك المخلصين برحمتك يا	
أرحم الرّاحمين .	

افتتاحية الشيخ فرحات بن علي الجعيري

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، اشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له
و اشهد أن سيدنا و نبينا و عظيمنا محمدا رسول الله اللهم ، صلّ و سلم و بارك عليه و على آله
و على أصحابه و على من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الإخوة المؤمنون جميعا، نحبيكم بتحية الإسلام، السلام عليكم و رحمة الله تعالى
وبركاته. أصحاب السعادة، أصحاب الفضيلة الأساتذة الكرام يسرّنا في هذا اليوم الأغر الذي منّ
علينا به المولى تبارك و تعالى، و نسأله عز و جل أن يتقبل منا صالح الأعمال، و أن يتجاوز عنا
كل السيئات.

اللقاء نعمة من نعم الله تبارك و تعالى، فأهلا و سهلا بكم جميعا، لم لا نقول في وطنكم
الأول الجمهورية التونسية الثانية وأنتم بفضل الله تحضرون عرس ولادتها، حيث تمر بلادنا من
المرحلة المؤقتة إلى مرحلة الخمس سنوات القارة، نسأل الله تعالى أن يجعلها مباركة و أن يؤلف
فيها القلوب، و أن يجمع الشمل و أن يجعل هذه التجربة تجربة إيمانية صالحة تجمع جميع فئات
المجتمع، مهما كانت مشاربها، لمصلحة واحدة، هي مصلحة الوطن المشترك.

لا أريد أن أقول إننا من الخليج إلى المحيط، فهذا أمر تعرفونه جميعا، و ليس لنا في هذا
المقام إلا أن نحمد الله تبارك و تعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، و أن نصلّي على نبينا محمد
صلّى الله عليه و سلم، إمام الدعاة أجمعين، وهو الأمي معلّم البشرية أجمعين، اللهم صلّ و سلم
و بارك عليه و على آله و على أصحابه و على من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

و إننا بين يديك يا الله، نقر أننا متبعون لقرآننا الكريم، و للكلمات الحق التي أقامها سيدنا
محمد صلى الله عليه و سلم .

و في هذا المؤتمر المعنون بكتب سير الاباضية يحقّ لنا أولا أن نترضى على أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد أن سلّمنا برسالته، و أمنا برّبنا و ربّه عز و جل، أولئك الصحابة الذين ما فتئوا أن ارتحل الرسول عليه السلام إلى الرفيق الأعلى حتى انتشروا في أرض الله، ووصلنا سنة سبعة و عشرون لهذه البلاد، العبادلة السبعة، ووصلنا إلى جزيرة جربة الصحابي الجليل رويغ بن ثابت الأنصاري، بين اللقاءين، و بين الوصولين عشرون سنة من سنة سبع و عشرين إلى سنة سبع و أربعين للهجرة، هؤلاء الصحابة الذين نجد قبورهم في أطراف العالم الإسلامي، حقيق بنا أن نترضى عليهم و أن نتأسى بخطاهم لأنهم كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا.

و يأتي بعد ذلك الرعيل الموالي، هو أيضا نترحم عليه وهو صاحب هذه السيرة التي نحفل بها سواء أكان الأمر ممن كتبوا أو ممن نقلوا مشافهة، و منطلقا من إمامنا عبد الله بن وهب الراسبي رحمه الله و من جاء بعده من عروة و أبي بلال ثم المجموعة التي أرسى هذه السيرة و على رأسها الإمام جابر بن زيد، عبد الله بن إباح، أبو عبيدة الربيع، و من والأهم من الرجال و ما معهم من النساء الذين رووا هذه الأخبار و دونوها و رحم الله أبا سفيان محبوب بن الرحيل الذي أرسى تدوينها، و عن طريقه انبثقت الأخبار مشرقا و مغربا، حيثما كانت الأمة الإسلامية إباضية و غير إباضية. لماذا؟

لأننا نعتبر أن كل إمام في مذهبه هو أمام للمسلمين جميعا، الإمام مالك إمامنا، الإمام جابر إمامنا و الإمام أبو حنيفة هم أئمة المسلمين جميعا و بارك الله في المدارس الفقهية، و سامح الله من تعصب لها و حاول أن يفرّق بين هؤلاء الفقهاء و هؤلاء العلماء الذين أرسوا محبة و إخوة، و ناهيك اللقاءات التي كانت قائمة بين الحسن البصري و بين إمامنا جابر، و كتب التدوين تثبت ذلك، و ينطلق هذا المفهوم الإباضي من البصرة ليصل إلى المشرق و إلى المغرب، و ليتعانق مع جميع من دعا إلى المولى تبارك و تعالى عن طريق حملة العلم، و عن طريق إقامة الدول، و عن طريق إقامة الدعوة إلى الله تبارك و تعالى و الدعوة إلى الخير و قديما قالوا تجارب المتقدمين مرآيا للمتأخرين.

نحن لم ندرس التراث من أجل التراث، ولا ندرس السيرة من أجل أن نبكي على ما فعله أجدادنا أو أن نفخر بذلك، و إنما ندرس ذلك و همّا أن نستفيد من تجاربهم و القرآن الكريم

علمنا ألم يكن أغلب القرآن الكريم قصصاً؟ وما هو القصص؟ إنما القصص سيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كذلك سيرة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. وتأتي سيرة التابعين، وسيرة الأصحاب، تلك السيرة المشرقية والمغربية في كل مدونة من المدونات تتعانق لتبين أثار الصالحين وماذا قدموا لأجيالهم وماذا تركوا لمن بعدهم.

نعم ينطلق التأليف في كتب السير مع لوأب بن سلام ليصل إلى أبي زكرياء والوسيانى والبغطورى والدرجىنى والبرادى والشماخى ومن بعدهم إلى آخر من يدون الآن هذه النصوص وهذه الأثار وهذه الأخبار.

أقمنا هذه الندوة على بركة الله بتعاون معكم وهذا التعاون تجلّى بكل وضوح في هذا اللقاء فليس لنا إلا أن نشكر كل من مد يديه لنا فكتب وأرسل وناصح وتواصل. فإن شاء الله أجر الله تبارك وتعالى للجميع وما ذلك إلا من فضل الله تبارك وتعالى علينا.

إخوتى لا أطيل عليكم سيّندارس أصدقائنا الكرام الأساتذة بعض القضايا لأن هذا البحر لا ساحل له، وأيام قليلة أو حلقات علمية قليلة لا يمكن إلا أن تثير بعض الغبار وأن تحيي بعض النواوير وأن ترسي بعض القواعد التي كثيراً ما تنوسيت أمام زحف الزمن.

وقبل أن أختم كلمتي أشكر الله تبارك وتعالى أولاً وآخرها، وأسأل الله تعالى أن يبارك في خطواتكم لأنه مهما اثبتنا عليكم لا نستطيع أن نفكم حقكم، وإنما نكل ذلك إلى الله تبارك وتعالى ليجعل هذا اللقاء وهذه الخطوات وهذه الرحلات و جنود الخفاء أن يجعل ذلك في ميزان حسناتنا وحسناتكم جميعاً.

جدير بنا أن نترحم على شهداء الإسلام من آل ياسر إلى يوم الناس، ونحن على يقين أنّ قطرات من الدماء اليوم تسكب من أجل أن نعيش آمينين. ونوه بالجهد الأمني الذي تمتعت به بلادنا في هذه الأيام بجيشها و شرطها وحرسها الجمهورى ومواطنيها. نسال الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا درعا ثابتاً للأمة لأننا ذقنا مرارة الألام أيام التسيب «أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»، ربنا تبارك وتعالى من على هذه البلاد بخير كثير، رغم بكاء الباكين، فإننا في خير كبير وفي نعمة اقتصادية وافرة نسال الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من الشاكرين لها، ونحن مع

إقامة أمن جمهوري عتيد أثبت نجاعته في ذلك اليوم، في ذلك العرس، و إن كان يوم فرح فانه كان يوما عصيبا الحمد لله أنه مر بسلام، و إلا يصعب أن نكون في أمان في مثل هذه القاعة، فلك الحمد يا ربنا أولا و آخر، و نشكر أمننا العتيد الذي واكب الوافدين و صار يميز بين الغث و السمين ، و أن كان من قبل لا يميز. و نحمد الله أننا تحولنا من انتخاب نعرف نتائجه قبل عام و نتیجته ثمانية أو تسعون و تسعة و تسعون بالمائة. انتخابات أسفرت عن حقيقة أن الشعب يختار، و الإبرة تحولت عن اليمين أو الشمال و كفة التوازن قائمة، و نحن قادمون على مراهنه ربنا تبارك و تعالى ينظر إليها و العالم جميعا ينظر إليها.

جازاكم الله تعالى كل خير و نسألكم الدعاء على ظهر غيب لأن أحسن السلاح للمسلمين ليس الكلاشينكوف و إنما الالتجاء إلى الله تبارك و تعالى.

استسمحكم إذا أطلنا كثيرا، أهلا و سهلا بكم و إن شاء الله تتعايشون معنا في حلقات ندوتنا في خير و أمن و سلام.

أهلا و سهلا بالرجال و النساء و لا تعلمون كم هي فرحتنا الأمر الذي لا يعلمه إلا الله تبارك و تعالى و أهلا و سهلا بكم.

افتتاحية الشيخ أحمد بن سعود السبائي

بادئ ذي بدئ نتوجّه إلى الشعب التونسي الشقيق على الانتخابات التشريعية التي جرت والتي تعبّر عن مصداقية الشعب التونسي وقياداته.

أيّها الإخوة والأخوات :

السّير جمع سيرة والسيرة الإباضية هي تلك المنهجية الجامعة بين الحدث التاريخي والأحكام العقدية والفقهية ، أو تراجم الأشخاص وفكرهم، بعد أن كانت السيرة نظقا ومفهوما مقتصرة على السيرة النبوية الشريفة ، وذلك يعني أنّ مفهوم السيرة توسّع لدى الإباضية .

على أنّ السّير الإباضية تبيّن الحراك الإباضي داخل المذهب أو تفاعلا مع المذاهب الأخرى وفاقا أو خلافا.

ولئن شهدت المذاهب الإسلامية فيما بينها في السابق شيئا من التجاذبات والتراشق إلى حدّ الوصول إلى التصادم في بعض الأحيان، فإنّ هذا العصر قد ألغى تلك التجاذبات وابتعد عن التصادمات بفضل الوعي العلمي و المنهج الأكاديمي الأمر الذي جعل العقل الاسلامي يأخذ مكانه و مكانته في التعليل و التحليل للوصول إلى الفهم المشترك لما عليه كل مذهب، حيث البحث عن الحقيقة فقط هو الحادي و المنشد، أخذا بالإيجابيات التي جاء بها الإسلام و أرادها، و تركا للسلبيات التي أوجدتها العقول الملوثة بلوثات التعصب البغيض التي جاء الاسلام العظيم لوأدها، و ليت الأمر كما تمنى أبو مسلم البهلاني الرواحي عندما قال:

وما لدين إلا واحد ولئي نرى ضلالات أتباع الهوى تتقارع

وما ترك المختار ألف ديانة ولا جاء في القرآن هذا التنازع

ويا ليت أهل الدين لم يفرقوا وليت نظام الدين للكل جامع

لينتقل الأمر من تمنى أبي مسلم إلى رؤية علي يحيى معمر في عبارته الشهيرة المعرفة

و التعارف و الاعتراف التي أصبحت نظرية تشكل خارطة طريق للتقارب بين المذاهب، فلا إقصاء ولا تكفير، و إنما وحدة إسلامية و تعارف مع الآخر و اعتراف بذلك الآخر.

أيها الإخوة و الأخوات إن مؤتمركم هذا - لاشك - أنه يعمل على التعريف بالمذاهب من خلال السير الإباضية في الداخل الإسلامي و في الخارج الإسلامي على حد سواء، ففي الداخل الإسلامي سوف يعمل على التقارب مع المذاهب الإسلامية، و التقريب بين المذاهب الإسلامية، و في الخارج الإسلامي سوف يعمل على التعريف به الذي هو في الحقيقة تعريف بالإسلام عموماً.

بعد أن مرّت بالمذاهب قرون من الإقصاء أو محاولة الإقصاء، و من الانكفاء لعوامل داخلية و خارجية، فالعوامل الداخلية هي تلك الانهزامية النفسية المذهبية لدى الإنسان الإباضي أو التي أصابت الإنسان الإباضي، أما العوامل الخارجية فكانت تتمثل في الهجوم الظالم عليهم من مخالفيهم قولاً و فعلاً.

أما الحاضر الذي نحن فيه و نعيشه فقد توافرت فيه وسائل الاتصال و التواصل، فعلى جميع أصحاب المذاهب استعمال هذه الوسائل في الاتصال و التواصل مع بعضهم بعضاً، منشدين قول الشاعر:-

حدثت بانه الحمى عن صفاها عن ثنيات مكة عن صفاها

أن عهد الوصال أن ووافى وزمان النوى انقضى وتناها

و أخيراً : ليس بوسعنا إلا أن نقدّم الشكر جزيلاً لجمعية جربة للتواصل على الهمة العالية

لعقد هذا المؤتمر المبارك إن شاء الله تعالى و نسال الله التوفيق للجميع.

افتتاحية سليمان بن علي بن عامر الشعلي

بسم الله الرحمن الرحيم

المشايخ الأجلاء، أيها السادة الحضور، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد

فإني أحمد الله أن جمعنا في هذا اليوم المبارك، وفي هذا الملتقى العلمي النافع، والذي أسأل الله العلي القدير أن يجعله في موازين حسناتكم جميعاً. ويشرفني باسم جامعة السلطان قابوس، ممثلة في اللجنة المشاركة من العلماء الأجلاء والأساتذة الكرام، أن أتقدم بجزيل الشكر ووافر التقدير، لشيخنا العلامة الكبير فضيلة الدكتور فرحات بن علي الجعيري، رئيس هذه الهيئة الخيرة المباركة، حفظه الله، وإلى أخوته وطلابه الذين أعانوه على القيام بهذا الجهد العظيم وأمثاله من أعمال الخير والبر. أسأل الله تعالى أن يبارك في أوقاتهم وفي أعمارهم وفي أرزاقهم، وأن يحقق لهم ما يصبون إليه من خير وصلاح لهذه الأمة.

كما تعلمون أيها المشايخ والعلماء أن السير ليست روايات تاريخية فحسب، وإنما تعنى برواية أحداث تاريخية كانت أو سياسية أو معاملات اقتصادية، أو اجتماعية، أو تقرر مبادئ إنسانية أو قواعد دينية، أو تشرح عقيدة، أو تبين أحكاماً.

السير ليست تاريخ يكتبه الغالب أو يكتب له، وإنما هي صورة حقيقية للمجتمع؛ فكره، وأخلاقه وقيمه، وعاداته، وعباداته... ومن هنا تأتي أهمية السير كوثائق مهمة يعتمد عليها الدارسون والباحثون في نقل الصورة الحقيقية الصحيحة عن مجتمع ما في حقبة زمنية معينة.

إن الاحتفاء بسير العلماء والمصلحين والعناية بها وإخراجها لهُو أفضل ما يقدم للأجيال، في زمن تزاحمت فيه الأفكار، وكثرت فيه الفتن، وتغيرت المفاهيم، وانعكست فيه الأدوار.

زمن أصبح فيه المسلمون حديث الساعة، لا من حيث نشرهم الخير والعدل والهدى،

وهو الدور المنوط بهم ، وإنما من حيث ما يقوم به أفراد منهم يتسمون باسم الإسلام، وجماعات تنسب إلى الإسلام، من تشويه لتعاليم هذا الدين وأخلاقه ومثله، التي أنزلها الله رحمة للعالمين.

في وسط هذا الظلام ينبلج نور هذا الدين، في بعض بقاع الأرض، يحمله عدول خلف لسلف طابت سيرتهم، وصفت سريرتهم، وزكت أعمالهم ، تحقيقاً لوعده الله على لسان نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام «يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، .. الحديث هذا وقد من الله علينا أن نكون اليوم بين أنموذج من هؤلاء العدول، هذه الفئة الخيرة المباركة، في هذه الأرض الطيبة، لنقبس شيئاً من هذا النور، «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن الله».

هذه الفئة المباركة ما هي إلا امتداد لذلك السلف الصالح في هذه الجزيرة التي ساهم أبناؤها في الحضارات البشرية، ودافعوا عن حرمت دينهم وأخلاقهم ، وصاروا من أجل إثبات شخصيتهم.

هذا الحصن الشامخ الذي صمد وما زال ، أمام كل غاز يريد استثمار خيراته وامتلاك أرضه، وطمس هويته، ودينه.

كان علماء هذه الجزيرة على وعي تام بأهمية التواصل وتوثيق الصلات مع إخوانهم في المشرق حين زار عمان في القرن السابع الهجري، الشيخ الحاج سعيد بن زكريا، الذي فتح الباب لهذا الخير العميم ولا يزال مفتوحاً بجهود هذه الفئة الخيرة المباركة .

بارك الله هذه الجهود الخيرة، ونفع بها الإسلام وأهله، وأمد الله في أعمار القائمين على هذه المؤسسات المباركة، وجزاها عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

افتتاحية د.محمد بن قاسم ناصر بوحجام

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأستاذ الدكتور فرحات بن علي الجعيري المحترم، رئيس ندوة كتب السير الإباضية. حضرات الإخوة أعضاء جمعية التواصل جربة، حضرات المشايخ والعلماء والأساتذة الموقرين، أيتها السادة الحاضرون.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: « إن غفلتنا عن إحياء ذكريات أمجادنا هي التي أزهدت في الأمة الإسلامية روح النَّاسِي، وأفقرتها من الرجال، وجعلت تاريخ أبنائها خاليًا من المثل العليا. »

وقال أحمد شوقي:

وإذا فاتك التفاتٌ إلى الما ضي، فقد غاب عنك وجه النَّاسِي

حضرات السادة العلماء والمتفنيين والمهتمين بالعلم الصحيح والثقافة الأصيلة، دعينا إلى هذه الندوة المباركة، ولنينا الدعوة وجننا مسرعين مستبشرين مهللين؛ لنكشف عن تراث عظيم، ونبرز من خلاله خلاصاً ومقومات نحتاجها في عملنا البنائي والإعدادي والتربوي، في زمان تفرقت فيه على الناس السبل في التربية، واختلفت عليهم الطرق في التوجيه. وغابت عنهم القيم الحقيقية والمقومات الأصيلة، فتخبطوا في تخطيط أمور حياتهم خبط عشواء، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً في بناء نفوس من هم تحت كفالتهم ورعايتهم ومسؤوليتهم.

جننا إلى هذا البلد الطيب الأمين لنرزق فيه ثمرات من السير التي أرادت لها جمعية جربة التواصل أن تكون سبب اجتماعاتنا المباركة، ومحور لقاءاتنا العلمية، ومجمع قراءاتنا لهذا

الإرث الفكري الحضاري الكبير.. لننشر بواسطتها المثل العليا، ونأخذ بأنفسنا وبنابتنا إلى حيث
مكامن العبر والتأسي. قدمنا لنحضر ونحاضر في ندوة (السير الإباضية)؛ عسانا نفيد منها ما
ينفعنا

إذا عرف الإنسان أخبار من مضى توهمته قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر عمره إلى الحشر، إن أبقى الجميل من الذكر
فكن عالمًا أخبار من عاش وانقضى وكن ذا نوال، واعتنم أطول العمر

حضرات السادة الكرام اسمحوا لي أن أقول لكم:

فإلى تونس حنَّنا المسيرا سيّر نادت ترتجينا الحضورا
تبتغينا نفوس في عمقها نسـ تخرج التاريخ الوضيء الأثيرا
ساد من للتاريخ عاش مديرا نظرات في عمقه مستنيرا
يُحضر الذكرى، شارحا محتواها ذكرا منها كنهها والجذورا
شاكرا للرجال فضلا سنيا معلنا قدرهم وفاء وفيرا
فاحصا أطوارا جرت في المواضي ناقلا للشباب إرثا كبيرا
إنما التاريخ الأصيل معين يرتوى، منه ما يُقيل القصورا
إنما التاريخ القوي مـلاذ للقلوب، يُثير فيها الشعورا
إنما التاريخ الغني مجال للنفوس، يذب عنها الفتورا
من تلا منه زاد عقله نضجا واستبلى السبيل، يبغي المسيرا

إن السير بما تحمل من خصائص ومميزات وأبعاد تربوية وتكوينية وتوجيهية وأدبية
وفنية... هي مجال فسيح وعريض لمن يريد السير فيه لتحقيق فرص البناء والتكوين والإعداد،
وبحرٍ مديد وعميق لمن يبغي الإبحار فيه والغوص لاستخراج لآلى، تعينه في التوجيه والإرشاد..
وموئل حصين وقوي لمن يبتغي الحصول على ما يقيه من أخطار الاستلاب والتفسيخ والانحلال

والذّوبان في غير أصوله ومقوماته، وما يساعده على الانشداد إلى أهدافه الحقيقيّة. مستنيرًا بالآية الكريمة التي تحدّد مسار المسلم بين نقطتين: نقطة المبادئ ونقطة الغاية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْشَوْا بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمُ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام/ ١٥٣)

إنّ السّير الإباضية التي هي محور اجتماعنا وسبب دعوتنا إلى هذه النّدوة المباركة أسهمت بشكل كبير وفعال في تأسيس منطلقات العمل التّربوي، وفي وضع قواعد البناء الحضاري.. ماذا نجد فيها من ذلك؟ نجد فيها أصول الدّين والفنّ والأدب والأخلاق والقيم والتّاريخ... التي هي مقومات التّربية والوحدّة وشروطُ ضمان الانتماء والولاء والوفاء. وماذا نقرأ فيها؟ نقرأ فيها مواقف الإباضية: العقديّة والفقهية والتّاريخية والسّياسيّة والحضاريّة.. أي نلتقي فيها مع الفكر الإباضي بكلّ فروعه ومجالاته منذ القرون الأولى...

إنّ إقامة هذه النّدوة تندرج في إطار النّظرة الشّاملة والعميقة والرّصينة للتّقريب بين المسلمين؛ بتسخير العلم والمعرفة في هذا العمل الحضاري، واعتماد ثلاثيّة الشّيخ علي يحي معمر - رحمه الله - (المعرفة والاعتراف والتّعارف) قاعدةً في التّحرّك بكلّ أشكاله ووسائله وأهدافه ومخطّطاته. فإنّ التعريف بجانب من الفكر الإسلامي لطائفة من المسلمين عامل مهمّ في إزالة ما قد يكون بينهم من سوء الفهم، الذي يؤدّي إلى سوء المعاملة، الذي يوصل إلى تفرّق الشّمل وتمزّق أوصال الأمتّة.

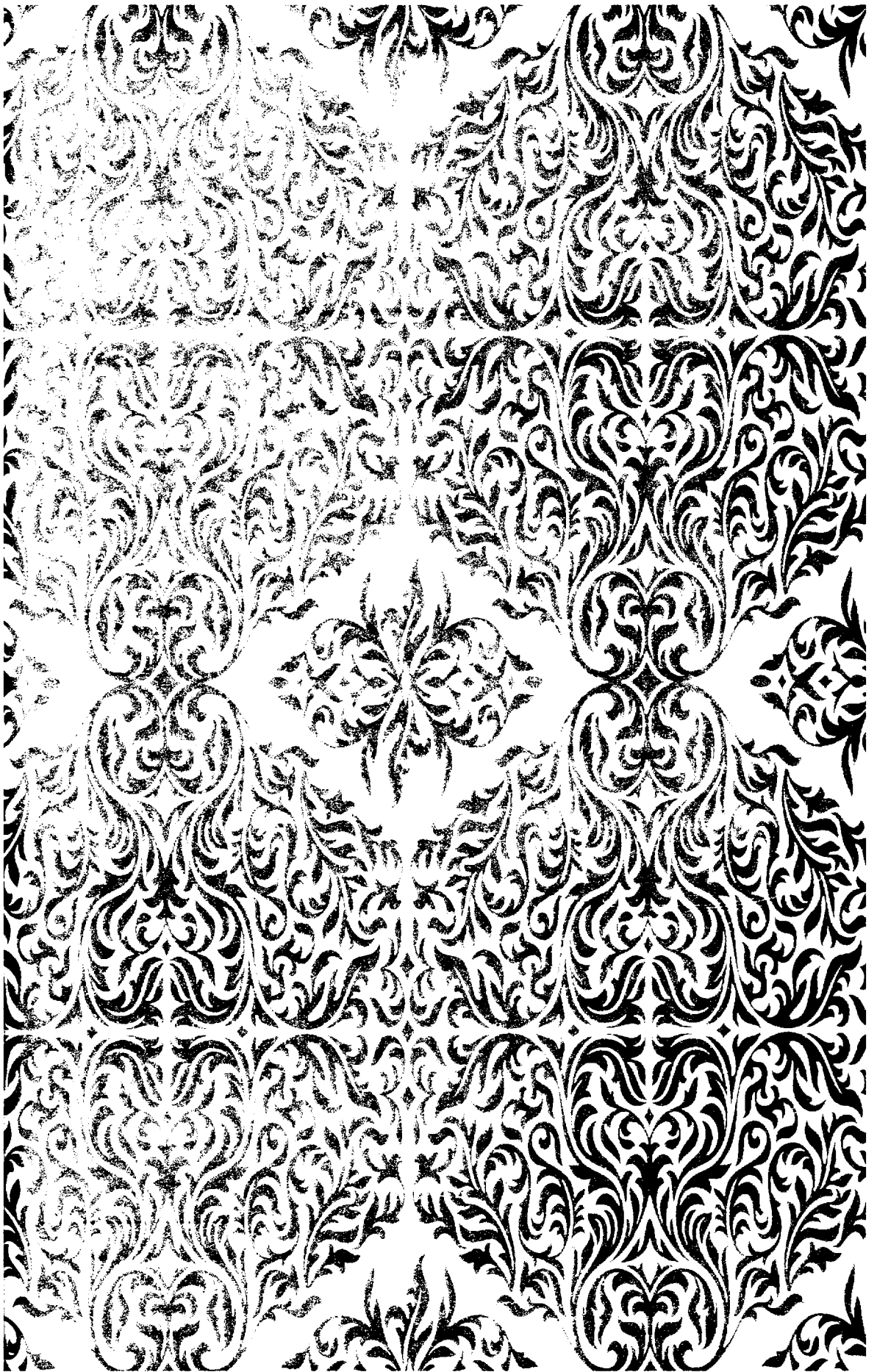
إنّ تقديم الإرث الإباضي للبحث والدراسة والنّظر فيه، تدعو إليه ضرورة إزالة الغشاوة عن أعين من لا يرى بعين سليمة إلى حقيقته، ويدفع إليه واجب تمكين الباحثين عن الحقيقة العلميّة من التّعريف عليه، ويفرضه منطق أنّ المعرفة ملك الجميع، فلا مجال لاحتكارها أو كتمها أو إخفائها.. والسّير الإباضية من مميّزاتها أنّها تحوي بين أسطرها نتائجًا معرفيًّا وفكريًّا متنوعًا في مختلف المجالات العلميّة.. الاطلاع عليه ودراسته يقدّم تصوّرًا واضحًا عن الفكر الإباضي بكلّ جوانبه. نسأل الله التّوفيق في بلوغ الأهداف المسطرة لهذه النّدوة، وتحقيق المبتغى والمرجو منها.

اسمحوا لي أن أذكر هنا بهذه المناسبة أبياتاً قالها مفدء زكرياء في الذكرى الثالثة لعيد
الجمهورية التونسية:

أتونس والخضرا تجرّ ذبولها — مرّحة الأعطاف مرّتها خصب
تباركها الأفراح، والبشر طافح — وروض المني غصّ، وغصن الهوى رطب
شربنا بها نخب التهاني، وإنما — بعيدك يا خضراء يخلو لنا الشرب
...أتونس! هذي نبضة صاغ نظمها — بتونس ولهان بها عاشق صلب
تعاوده الذكرى وتهفو به المني — وتلهمه النجوى، ويسمو به الحب^(١)
بلاد بها للحرّ أهلّ وجيرة — وتونس للأحرار، ملجؤها رحب

باسم العلماء والأساتذة المشاركين في ندوة السير الإباضية نقدّم شكرنا الجزيل لجمعية
جربة التواصل وللعاملين فيها، وللقائمين على هذه الندوة، أولاً لإتاحتهم لنا فرصة اللقاء فيما بيننا
إخوة في الله، ثانياً لإلقاء محاضرات وبحوث في هذه السير، ثالثاً لتلقّي معلومات جديدة عن الفكر
الإباضي...جزى الله الجميع خيراً ووفقنا لمزيد من الأعمال العلمية الهادفة، وجمع بيننا بخير في
لقاءات قادمة. إنّه نعم المولى ونعم النصير.

(١) الألب المقدس، ط٢، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، فيفري ١٩٧٢، ص: ١٨٢ - ١٨٤



الفرق البعثة

دولة الإمامة من خلال سيرة العلامة المنير بن النير الجعلاني العماني

د. ناصر بن علي بن سالم الندابي
باحث بوزارة التربية والتعليم /سلطنة عمان

dr.alnadabi@gmail.com

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:.. بداية أتقدم بالشكر الجزيل إلى جمعية جربة التواصل وكل القائمين عليها، على أن اتاحوا لي الفرصة للمشاركة في هذه الندوة المباركة ندوة السير الإباضية، سائلا الله عز وجل أن يوفقهم لما فيه الخير والصلاح، داعيا الله أن تكون هذه الجمعية همزة الوصل بين مشرق العالم الإسلامي وغربه وأن تعيد أمجاد السلف الصالح من أصحاب هذا المذهب العزيز الذين حافظوا على التواصل على الرغم من بعد المسافة ومشقة السفر.

ومن المعلوم إن السير الإباضية كانت منتشرة في القطر الإباضي مشرقه ومغربيه، فالسير العمانية المتناثرة في ثنايا الكتب والمصادر العمانية سواء الفقهية منها أو التاريخية، تبرز لنا جوانب من التاريخ العماني الزاهر، وإن هذه الندوة - ندوة السير الإباضية - التي ألفت على عاتقها سبر أغوار هذا الفن المميز في تاريخنا الإباضي على وجه العموم، ليشعرنا بمدى إحساس القائمين عليها بأن هذا المجال لم يتم التطرق إليه، ولم يعط حقه من الدراسة والتمحيص، وأنه قد آن الأوان لنبش هذا التراث الأصيل، وإبرازه للامة بصورة عامة، وللمثقفين على وجه الخصوص، وكل ذلك من أجل لفت انتباه الباحثين لأهمية هذا التراث ودوره في تغطية جوانب عدة في التاريخ الإباضي وفقهه .

ومن هذا المنطلق فإنه يشرفني أن اتقدم بهذه المداخلة والتي هي بعنوان « دولة الإمامة من خلال سيرة العلامة منير بن النير الجعلاني العماني» وإن هذا الاختيار لم يأت من فراغ وذلك

لأهمية هذه السيرة في تاريخنا العماني لأنها تحكي لنا ما كانت عليه الإمامة الإباضية الأولى، إمامة الامام الجلندی بن مسعود (١٣٢ هـ - ١٣٤ هـ). وإن أهمية هذه السيرة تكمن في طرحها لجوانب عدة في هذه الإمامة الأولى من نوعها في المنطقة، فقد غطت هذه السيرة أمور شتى، على رأسها الجانب السياسي والجانب الإداري والجانب الاجتماعي. كما أن أهمية هذه السيرة تكمن في اعتماد الكثير من الأئمة والعلماء عليها، أولئك الذين جاءوا من بعد الإمام الجلندی. كيف لا وهي في أصلها ما كتبت إلا كنصحية للإمام غسان بن عبدالله (١٩٢ هـ - ٢٠٧ هـ) للسير على مناهج سلفه، وإن يخطو خطاه ويهتدي بهديه.

ونهدف من خلال هذه المداخلة إلى دراسة هذه السيرة، والتعرض لكل الجوانب التي ركز عليها العلامة الجعلاني، محاولة منا لإعطاء تصور عام عن طبيعة الإمامة الإباضية في بداياتها الأولى، وكيف كانت تدار من قبل الإمام، وما هي السمات السياسية والإدارية والاجتماعية التي سارت عليها، والتي أصبحت فيما بعد من القواعد التي لا يحيد عنها الإمام الإباضي عبر عصور الإمامة في عمان.

ونسعى من خلال هذه المداخلة أيضا إلى التركيز على جانب الشراة، هذه الفئة التي كانت لها أهمية كبيرة في مجتمع عمان زمن الإمام الجلندی، سواء كان هذا الدور في وقت الحرب أم السلم، ونرغب من خلال هذه الأسطر أن نعطي للمهتمين بالجانب الاجتماعي طبيعة المجتمع العماني والشرائع التي كانت فيه، ومدى علاقتها مع بعضها البعض، وكيفية تعامل الإمام مع كافة هذه الشرائع.

وسننهج في مداخلتنا هذه إلى منهج التحليل التاريخي، المبني على استقراء كل ما حوته هذه السيرة، من تفاصيل، والقراءة بين الأسطر لاستجلاء أسلوب العلامة الجعلاني وهدفه من هذه السيرة وما سعى إليه من خلالها، وما يمكن أن نستشفه عن المكانة التي تميز بها هذا العالم وأنداده من الذين والشخصيات التي ذكرت في السيرة. ذكرُوا في ثنايا هذه السيرة.

وقد قمنا بمحاولة ضبط نص السيرة من خلال ثلاث مصادر وضحناها في ثنايا البحث، رغبة منا للوصول إلى النص الأقرب إلى الصحة، من أجل أن نتمكن من تقديم تفسيراً صحيحاً لكل ما ورد فيها مما يتعلق بموضوع ورقة عملنا هذه.

وسنتطرق في مداخلتنا هذه إلى العناصر التالية : عصر العلامة المنير بن النير ثم سنتحدث عن الشخصيات البارزة في هذه السيرة، وبعدها نعطي لمحة سريعة عن السيرة، ثم نتبعها بالتنظيمات السياسية والإدارية والاجتماعية في دولة الإمامة من خلال هذه السيرة، ثم نختم ورقتنا هذه بخاتمة وسنضيف إليها ملحق فيه السيرة بعد ضبط نصها.

• عصر العلامة المنير بن النير الجعلاني

قبل الولوج إلى سبر أغوار هذه السيرة وكاتبها وما حوتها من جوانب فإن المنهج العلمي يحتم علينا أن نعطي لمحة مختصرة وسريعة عن عصر كاتبها، لنعيش تلك الحياة التي عاشها الكاتب بشئى تفاصيلها وأحداثها لنعي المعلومات التي بثها في ثنايا سيرته ونفهم كنهها وغايتها.

من المعلوم أن العمانيين دخلوا الإسلام طوعية دون حرب، فلم يظأ رسول الله ساحتهم بجيشه، ولم يتجشم الطريق للوصول إليهم وتبليغ دعوته لهم، وإنما اكتفوا بالدعوى التي جاءتهم على لسان عمرو بن العاص حاملا رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كافأ رسول الله العمانيين بأن أبقى ملوكهم معززين مكرمين بعد أن دانوا بالحنيفية السمحة، فجعل حكم عمان بيد العمانيين. فاعترفت عمان بهذا الفضل لسيد البشرية، وأيقنت برسالاته العالمية، فتعهدت رسوله بالحفظ والأمان، وارجعته إلى المدينة المنورة معززا مكرما، وحافظت على إسلامها حين ارتدت القبائل من حولها، واستمرت عمان تدين للخلافة الراشدة، حتى ظهرت الفتنة في عهد عثمان بن عفان ثم الإمام علي بن أبي طالب، فما كان منها إلا نأت بنفسها عن الخوض في تلك الفتنة، وفضلت الحياد^(١).

وما إن وصل معاوية بن أبي سفيان (٤٠ هـ) إلى السلطة بتلك الطريقة التي لم تخلو من الدهاء واستخدام القوة، حتى قرر العمانيون عدم الإنصواء تحت راية بني أمية، وظلوا يحكون أنفسهم بأنفسهم بعيدا وبمعزل عن سياسة بني أمية، واستمر الأمر على هذا الحال حتى عهد

(١) الأركوي: سرحان بن سعيد، كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق: محمد حبيب صالح، محمود بن مبارك السليمي، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، سنة: ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م، ط١، ج٥، صص ١٤٩-١٥٦. السالمي: عبدالله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، مكتبة مسقط، سلطنة عمان، سنة: ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج١، صص ٥٠-٧٠.

عبد الملك بن مروان، الذي سعى إلى ضم عمان إلى دولته، عن طريق واليه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي (ت : ٥٩ هـ)، فقام الأخير بإرسال عدد من الجيوش للسيطرة على عمان، وبعد محاولات عدة نجح في ذلك، فخضعت عمان للدولة الأموية وتعاقب عليها مجموعة من الولاة لم تكن سيرتهم محمودة، واستمر الوضع على هذا الحال حتى نهاية الدولة الأموية وفي عام ١٣٢ هـ تمكن العمانيون من لَم شملهم، ورأب صدعهم، وتوحيد كلمتهم، فاجتمعت رايته تحت شخص منهم يدعى: الجلندی بن مسعود فبايعوه إماما عليهم^(١).

ولم تقم تلك الإمامة من فراغ فقد استعد لها العمانيون ايما استعداد، كما انه قد خُطط لها تخطيطا دقيقا من قبل زعيم الإباضية في البصرة الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي (ت : ١٤٥ هـ)، الذي بدوره أرسل عددا من طلابه العمانيين لإقامتها وكان على رأس هؤلاء الطلاب شخصيتنا التي نتحدث عنها -العلامة منير بن النير الجعلاني- وقد صحبه مجموعة من زملائه^(٢).

ولكن لم ينعم العمانيون بهذه الإمامة فترة طويلة من الزمن، فقد انتخب لها العباسيون جيشا للقضاء عليها، رغبة منهم في ضم عمان إلى دولتهم، فأرسلوا لها جيشا بقيادة خازم بن خزيمة فتمكن الأخير من القضاء على هذه الإمامة الوليدة وقتل إمامها الإمام الجلندی بن مسعود، ومعه أبرز قادته وأفضل علماء عصره^(٣).

ثم عادت عمان مرة أخرى تتبع الدولة الإسلامية، منذ عام ١٣٤ هـ، حتى عام ١٧٧ هـ عندما اجتمع العمانيون مرة أخرى وقرروا الاستقلال وإعادة دولة الإمامة، بعد أن ذاقوا الظلم والجور من ولاة بني العباس، فأعلنوا الإمامة وبايعوا الإمام محمد بن أبي عفان (١٧٧ هـ

(١) الأركوي: كشف الغمة، م.س، ج.٥، صص ١٦٢-١٦٤. ابن رزيق : حميد بن محمد ، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين، تحقيق: عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان سنة: ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م، ط٥، صص ١٨٧-١٩٥ السالمي: تحفة الأعيان، م.س، ج.١، صص ٧١-٧٥

(٢) العوتبي: أبو المنذر سلمة بن مسلم ، الأنساب ، تحقيق: محمد إحسان النص، وزارة التراث والثقافة، سنة: ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م، ط٤، ج.١، ص ٢٦٨، ج.٢، صص ٧٨٤-٧٨٥ ، هاشم: مهدي طالب: الحركة الإباضية في المشرق العربي، دار الحكمة، لندن، سنة: ٢٠٠٩، ط٣، ص ١٥٧.

(٣) الأركوي: كشف الغمة، م.س، ج.٥، صص ١٦٣-١٦٤. ابن رزيق: الفتح المبين، م.س، صص: ١٩٥-١٩٦. السالمي: تحفة الأعيان، م.س، ج.١، صص ٨٥-١٠٤

١٧٩هـ)، وذلك بمباركة من علماء عمان- أهل الحل والعقد- ومن بينهم عالمنا الجليل المنير بن النير الجعلاني، واستمرت عمان تدار من قبل الإنمة الإباضية- ما إن يموت إمام حتى يبائع الآخر إلى أن وصلت الإمامة بيد الإمام غسان بن عبدالله اليمحي الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذه السيرة^(١).

• أبرز الشخصيات التي تعرضت لها السيرة :

حين نمر على هذه السيرة بصورة سريعة نجد أنها تعرضت لثلاث شخصيات مهمة في التاريخ العماني، شخصية الكاتب : العلامة المنير بن النير الجعلاني، وشخصية الإمام الذي وجهت إليه هذه السيرة: الإمام غسان بن عبدالله، والشخصية الثالثة كانت مثار الحديث عنها وعن عصرها وعن رجالاتها وجعلها نموذجاً يحتذى به، وسراجاً منيراً للإمام غسان ليتهدي بهديها، إنه الإمام الجلندي بن مسعود.

وبما أن هذه الشخصيات ستكون مثار الحديث، والمحور الذي ستدور عليه كل الأحداث في هذه السيرة فإننا إرتأينا أن نعرف بها هنا من أجل أن يعي القارئ المكانة التي تميزت بها كل شخصية، والدور الاساسي الذي قامت به، وما قدمته كل منها في صناعة التاريخ العماني المجيد في قرونه الأولى.

١- العلامة المنير بن النير الجعلاني

هو منير بن النير بن عبدالملك بن وسار بن وهب بن عبيد بن الصلت بن يحيى بن مالك بن حضرمي بن رثام^(٢) الريامي، ولد ببلدة جعلان عمان من أعمال عمان، ثم رحل إلى البصرة في طلب العلم، فتتلمذ على يد الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وعلى يد الإمام الربيع بن حبيب، ثم عاد إلى عمان مع ثلة مباركة متكونة من : بشير بن المنذر النزواني (ت: ٧٨هـ)، وموسى بن أبي جابر (ت: ١٨١هـ) محمد بن المعل الكندي الفسحي (ت: نهاية القرن الثاني الهجري)، وتبعهم أنجب طلاب أبي عبيدة وخليفته: الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي الذي

(١) الأركوي: كشف الغمة، م. س، ج ٥، صص ١٦٦- ١٦٩. ابن رزيق: الفتح المبين، م. س، صص ١٩٧- ٢٠٠. السالمي: تحفة الأعيان، م. س، ج ١، صص ١٠٥- ١٢٠.

(٢) العوتبي: الأنساب، م. س، ج ١، ص ٢٦٨.

خلف استاذة في زعامة المذهب وكان أحد أعمدة العلم في عمان وأحد أبرز الشخصيات التي قامت على يديها الإمامة^(١).

وتتلمذ على يد العلامة المنير بن النير عدد من علماء عمان يأتي في مقدمتهم العلاء بن أبي حذيفة ومحمد بن هاشم، والوضاح بن عقبة، وغيرهم، ومن أثاره العلمية هذه السيرة التي بين أيدينا، ومسائل عديدة في كتب الأثر. ويعد المنير ممن جازت عليهم سلسلة نسب الدين عند المشاركة، وممن أحيى السنن وأحمد البدع^(٢).

وهناك شخصيتان بنفس الاسم – المنير بن النير الجعلاني- أولهما شخصيتنا التي نتحدث عنها، أما الشخصية الأخرى فقد مات صاحبها شهيدا عام ٢٨٠هـ، إذ كان ضمن جيش الأهيف بن حمام الهنائي الذي خرج لقتال محمد بن بور الذي بعث به الخليفة المعتضد العباسي للسيطرة على عمان^(٣).

ويظهر من هذه السيرة إن العلامة الجعلاني كان مخضرمًا إذ أدرك الإمامة الإباضية الأولى (١٣٢ - ١٣٤هـ) وبداية الإمامة الإباضية الثانية (١٧٧هـ - ٢٨٠هـ)، ولذلك فقد كانت سيرته هذه همزة وصل بين الفترتين، فهو شاهد عيان، وأساس من أسس قيام الإمامة، فجاءت سيرته هذه عبارة عن مقارنة بين ما كان عليه الناس في عهد الإمامة الأولى وكيف أصبح حالهم عند سقوطها، ثم كيف رجع الوضع وعاد التألق إلى عمان بعد قيام الإمامة الثانية. ويتبين لنا من خلال السيرة التي بين أيدينا أن المنير بن النير كان في مسقط رأسه حين بويع الإمام غسان بن عبدالله، وإن هذه الرسالة لم يكتبها من تلقاء نفسه وإنما كانت رداً على رسالة بعث بها الإمام غسان، كان يحث فيها المنير على القدوم إليه لنصرة الإمامة، وإظهار الحق، ويظهر ذلك من قوله: «أتاني كتابك تحثني على الإقبال إليك في الأمر الذي عرفت قبل اليوم رغبتني فيه وحرصني عليه للذي أرجو فيه من القوة للدين وأهله، والبركة والعذر مع الله والمسلمين...»

(١) البطاشي: سيف بن حمود بن حامد، اتحاف الأعيان في بعض تاريخ علماء عمان، مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان قابوس للشؤون الدينية والتاريخية، سلطنة عمان، سنة: ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ط٢، ج١، ص٢٢٥.

(٢) السعدي: فهد بن علي بن هاشل، معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية، (قسم المشرق)، مكتبة الجيل الواعد، سلطنة عمان، سنة: ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، ج٣، ص٢١٩.

(٣) السالمي: تحفة الأعيان، م. س، ج١، ص٢٦٠. البطاشي: إتحاف الأعيان، م. س، ج١، ص٢٢٦.

(١)، ولعل إلحاح الإمام على قدوم المنير إليه لرغبته في جعله من المستشارين المقربين - أهل الحل والعقد - أو لعله يرغب في تنصيبه قاضيا للدولة كونه كان على رأس علماء عصره في ذلك العهد، كما يبدو أن المنير لم يكن وحده في جعلان ونواحيها وإنما كان معه ثلثة من علماء عصره ممن يشار إليهم بالبنان، فهم الذين شاركوا المنير في صياغة هذه السيرة ويظهر ذلك في قوله: «فإني كتبت إليك وأنا ومن قبلي من إخوانك وأهل رعيّتك من أهل خاصّتك على ما تحب، والله المحمود.» (٢) وإن طلب الإمام مقدمه لعلّه أن علماء عصره حتما سيصبحوه في هذه الرحلة، أو بعضا منهم إن لم يكن كلهم، فتقوى بهم الإمامة، ويصبحوا عينا للإمام وعونا. ويبدو أن المنير لم يرفض هذا الطلب كلياً ولكن اقترح أن يسير له أحد من أنداده من علماء عصره وذكرهم له حين قال: «فإذا استعنتم أنفسكم ومن معكم واستقامت أموركم على ما مضى عليه من كان قبلكم من أسلافكم، واستقام على المسير مبارك بن جعفر، وسليمان بن عثمان، والحكم بن بشير، ومسعدة بن تميم، والأزهر بن علي، وعلي بن عذرة، وجعفر بن زياد، وعبدالله بن أبي قيس، وعبدالله بن نافع، ورايس بن يزيد، وأبو مالك بن هزبر، والأشعث بن محمد، والأزهر بن عبدالمك، وعبدالعزیز بن عبدالرحمن، وضرباؤهم من المسلمين فاكتب إلينا فيأتيتك من أحببت منا وكرامة لك ونعم عين» (٣)، ولعل هؤلاء هم الذين شاركوا المنير في صياغة عبارات هذه السيرة.

ويظهر أن المنير بن النير قد استجاب لنداء الإمام غسان فتوجه إليه، ولكن من المعلوم أن عاصمة الإمامة في عهد الإمام غسان كانت مدينة نزوى، والروايات تؤكد أن وفاة المنير كانت في مدينة صحار (٤)، فما الذي كان يفعله المنير في هذه المدينة؟!، وبما أنه لا توجد رواية تبين سبب وجوده هناك فأننا نرجح أنه تولى منصب القضاء أو الولاية في هذه المدينة من قبل الإمام غسان. وقد وافته المنية في مدينة صحار، ولا نعرف تاريخا محدد لوفاة، ولشدة حب عالمنا لمسقط رأسه - جعلان - فقد أوصى بأن يدفن فيها حتى وإن كانت وفاته في مكان بعيدا عنها، وفعلا فقد تم نقل جثمانه من صحار عن طريق البحر، فأنزل في بندر الحد ثم أخذ إلى جعلان

(١) انظر البحث: ص ٢٧

(٢) انظر البحث: ص ٢٧.

(٣) انظر البحث: ص ٤١

(٤) البطاشي: اتخاف الأعيان، م.س، ج ١، صص ٢٢٦-٢٢٧.

ودفن فيها، ومن كراماته أن جسده لم يتأثر حتى ووري التراب^(١).

٢- الإمام الجلندي بن مسعود المعولي (١٣٢هـ - ١٣٤هـ)

هو الإمام الجلندي بن مسعود بن جيفر بن الجلندي من بني معلومة بن شمس، تتلمذ على يد الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، شارك في إمامة الإمام طالب الحق عبدالله بن يحيى الكندي باليمن (١٢٩هـ - ١٣٠هـ)، وبعد سقوطها توجه الجلندي إلى عمان واستقر فيها^(٢).

ارتأت القيادة الإباضية في البصرة إقامة الإمامة في عمان بعد سقوطها في اليمن، فاجتمع العلماء لهذا الشأن وعلى رأسهم علامة العصر الشيخ موسى بن أبي جابر الأزكوي، فترشح لديهم شخص الإمام الجلندي لما تميز به من سمات تؤهله لهذا المنصب في مقدمتها العلم والتقوى والورع والزهد، ولكونه من المجاهدين في سبيل الله إذ كان من المشاركين في إمامة طالب الحق كما أسلفنا، وكذلك فإن الجلندي ينحدر من سلالة الملوك إذ كان أجداده ملوك عمان في العصور الإسلامية المنصرمة، كل هذه الخصال وغيرها جعلت من أهل الحل والعقد يتفقون على مبايعة الجلندي، فبويع بالإمامة في عمان عام ١٣٢هـ^(٣).

لم تهنأ عمان بهذا الإنجاز الكبير، فقد ظهر على الساحة جيش للصفريّة بقيادة قائدها وزعيم مذهبه شيبان الشكري، الذي كان ملاحقاً بجيش من قبل الدولة العباسية بقيادة خازم بن خزيمة، وعندما وصل إلى حدود عمان تفاوض مع الإمام الجلندي لدخول عمان والاحتواء بها من كيد خازم وجيشة فوافق الإمام ولكن بشرط أن يتخلّى شيبان وجماعته عن الأفكار الصفريّة الخارجية التي يدينون بها وعلى رأسها الاستعراض ولكنهم أبوا، فبعث إليهم الإمام جيشاً بقيادة يحيى بن نجيج وتمكن الأخير من الانتصار على الجيش الصفري وقتل قائده.

(١) البطاشي: اتحاد الأعيان، م، س، ج، ١، صص ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) الراشدي: مبارك بن عبدالله بن حامد، الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي وفقه، سلطنة عمان، سنة: ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ط ١، ص ٩٦.

(٣) الأزكوي: كشف الغمة، ج ٥، صص ١٦٢-١٦٣. ابن رزيق: حميد بن محمد، الصحيفة القحطانية، تحقيق: محمد حبيب صالح، محمود بن مبارك السليمي، علاء الصديق الغازي، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، سنة: ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ط ١، ج ٥، ص ٧٨. السيابي: عمان عبر التاريخ، م، س، ج، ١، ص ٢٢٩.

ولما بلغ خبر مقتل شيبان وهزيمة إلى مسامع خازم بن خزيمة، فرح لذلك فتوجه إلى عمان، وطلب من العمانيين تسليم سيف شيبان وخاتمه لكي يأخذه دليلاً للحاكم العباسي على مقتل من شيبان واتباعه، كما طلب خازم بن خزيمة أن تعلن الإمامة الإباضية الخضوع للدولة العباسية، وأن تدعوا للحاكم العباسي على منابرهما، فشاور الإمام الجلندي علماء عصره في أمر الخاتم والسيف كأحد الحلول لإبعاد هذا الجيش عن الأراضي العمانية إلا أنهم لم يروا تسليمهما وأنهما من حق ورثة شيبان، حينها قرر الإمام صد هذا الجيش، فدخل معه في معركة شرسة، - عرفت في التاريخ العماني بمعركة جلفار-، انتهت بهزيمة الجيش العماني وقتل إمامه، ووقعت هذه المعركة في عام ١٣٤هـ^(١).

وبمقتل هذا الإمام سقطت عمان في أيدي الدولة العباسية، وأصبحت تدار من قبل الولاة العباسيين، ولكن العمانيون لم يرضوا بهذا الوضع فاجتمعوا مرة أخرى تحت لواء علمائهم، وقرروا إرجاع بلادهم من قبضة العباسيين، فكان لهم ذلك، ففي عام ١٧٧هـ تمكن العمانيون من إعلان الاستقلال عن الدولة العباسية ومبايعة الإمام محمد بن أبي عفان. ويعد هذا الإمام أول إمام في سلسلة أئمة الإمامة الإباضية الثانية التي بدأت بمبايعته عام ١٧٧هـ واستمرت حتى عام ٢٨٠هـ عندما عادت عمان مرة أخرى إلى الدولة العباسية على يد القائد العباسي محمد بن بور زمن الحاكم العباسي - المعتضد بالله -^(٢).

٣- الإمام غسان بن عبدالله اليمامي (١٩٢هـ - ٢٠٧هـ / ٨٠٧م - ٨٢٢م)

هو الإمام غسان بن عبدالله بن أحمد بن عبدالله بن حمد بن أحمد الفجحي اليمامي الخروصي، بويع بالإمامة عام ١٩٢هـ / ٨٠٧م، وكان في مقدمة العلماء الذين بايعوه العلامة مسعدة بن تميم، والعلامة سليمان بن عثمان^(٣)، ويعد الإمام غسان ثالث إمام في الإمامة الإباضية الثانية،

(١) الأركوي: كشف الغمة، م. س، ج ٥، صص ١٦٢-١٦٥. ابن رزيق: الصحيفة القحطانية، م. س، ج ٥، صص ٧٨-٨٠. السالمي: تحفة الأعيان، ج ١، صص ٨٥-١٠١.

(٢) ابن رزيق: الصحيفة القحطانية، م. س، ج ٥، صص ٨٠-٨١. السالمي: تحفة الأعيان، م. س، ج ١، صص ١٠٥-١٠٦.

(٣) السالمي: تحفة الأعيان، م. س، ج ١، ص ١٢٠. السيابي: سالم بن حمود بن شامس، عمان عبر التاريخ، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، سنة ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، ج ٢، ص ٣٧. السليمان: عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالله، مدينة نزوى في عهد الإمامة الإباضية الثانية، النادي الثقافي، سلطنة عمان، سنة: ٢٠١١م، ط ١، ٩٤.

إذ سبقه الإمام محمد بن أبي عفان (١٧٧هـ - ١٧٩هـ / ٧٩٣م - ٧٩٥م) والإمام الوارث بن كعب الخروصي (١٧٩هـ - ١٩٢هـ / ٧٩٥م - ٨٠٧م) (١).

وكان الإمام غسان أحد أركان الدولة في حياة سلفه الإمام الوارث بن كعب إذ اعتلى منصب الولاية على مدينة صحار، ومن المعلوم أن هذا المنصب كان من المناصب الكبيرة في الدولة فقد كان يطلق عليه (الوالي الأكبر)، (٢) وذلك نظرا لأهمية هذه المدينة في ذلك العصر، وعرف الإمام غسان بالحزم والعزم والعلم، فقد وطأ أثار أسلافه من الأئمة العدول، وتمكن من السير بعمان نحو الأمام، وكان له نظر ثاقب، وعزيمة ثابتة، فحين بدأ القراصنة يقتربون من المياه العمانية، وأصبحوا يشكلون عنصر تهديد لتجار عمان وتجارها، قرر الإمام إنشاء أسطول بحري مجهزا بالعدة والعتاد لمقاومة القراصنة، وأشرف على هذا المشروع بنفسه، وتابعه عن قرب، إذ تذكر الروايات أنه خرج إلى صحار من أجل الوقوف بالمقربة من جيوشه في هذه المهمة، وبهذا تمكن الإمام من القضاء على القراصنة وألحق بهم الهزائم، وطهر جميع أنحاء الخليج منهم (٣).

وحكم الإمام غسان عمان بشدة وحزم، وقضى على من كل من بغى، وسعى في الفساد، فقد أمر بقتل الصقر بن محمد بن زائدة عندما علم أنه ثار ضد الإمامة وأراد السوء والخيانة لعمان وأهلها، كما أمر بهدم بعض دور بني الجلندي عندما تيقن أنها تستخدم في إيذاء المسلمين، وتتبع عوراتهم (٤).

وازدهرت عمان اقتصاديا في عصره، فقد عرف عهده بالرخاء الاقتصادي، وعاش الناس في ثراء ونعمة، فقد ظلت عمان خصبة لفترة طويلة في عهده، فظهر الاهتمام بالزراعة،

(١) لمزيد من المعلومات عن الإمام محمد بن أبي عفان والإمام الوارث الرجوع إلى : الأركوي: كشف الغمة، ج ٥، صص ١٦-١٦٧. السالمي: تحفة الأعيان، ج ١، ص ١٠٧، ص ١١٢. السيابي: عمان عبر التاريخ، ج ٢، ص ١٨، ص ٢٠.

(٢) الكندي : محمد بن إبراهيم: بيان الشرع، تحقيق: سالم بن حمد الحارثي، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، سنة: ١٩٨٤م، ج ٤٨، ص ٣٤١. الكندي: أحمد بن عبدالله، المصنف، تحقيق: عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، سنة: ١٩٨١م، ج ٣٢، ص ٣٠٢، السليمان: مدينة نزوى، م. س، ص ٩٥.

(٣) الأركوي: كشف الغمة، م. س، ج ٥، ص ١٧٠. السالمي: تحفة الأعيان، م. س، ج ١، ص ١٢١. السيابي: عمان عبر التاريخ، ج ٢، صص ٣٨-٣٩.

(٤) الأركوي : كشف الغمة، م. س، ج ٥، صص ١٧٠-١٧١. السالمي: تحفة الأعيان، ج ١، صص ١٢٥-١٢٧.

والذي قابله اهتمام منقطع النظير بالتجارة، خاصة بعد أن تمكن الإمام من تأمين الطريق التجاري والقضاء على القراصنة^(١).

وبلغت عمان أوجها في الجانب العلمي، إذ أصبحت مدينة نزوى كعبة العلماء، ومهوى أفئدة الطلبة، وأطلق على نزوى في عهد «بيضة الإسلام» نظرا لكثرة العلماء الذين قطنوها واستوطنوها. واستمر الإمام غسان في منصبه حتى وافته المنية عام ٢٠٧هـ / ٨٢٢م، فكانت إمامته خمسة عشر سنة وسبعة أشهر وسبعة أيام^(٢).

• لمحة مختصرة عن السيرة

السيرة التي بين أيدينا تعود إلى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وهي تقع في تسع صفحات مخطوطة، طبقا للنسخ التي اعتمدنا عليها، وهي كالتالي: نسخة من مكتبة جامعة لفوف، الأوكرانية (The Library of the University of Lwów)، تحت رقم: (II١٠٨٢)، وهي ضمن مجموعة مخطوطة بعنوان «تجارة الغلماء والسير العمانيّة». منسوخ سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م^(٣). والنسخة الثانية هي عبارة عن نسخة مخطوطة من مقتنيات مكتبة جامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان^(٤). وطبعت هذه السيرة من قبل وزارة التراث والثقافة بسلطنة عمان، وبلغ عدد صفحاتها (٢٢ صفحة) مع تحقيق بسيط من قبل سيد إسماعيل كاشف. كما اعتمدنا على الجزء الذي اقتبسه الإمام نور الدين عبدالله بن حميد السالمي من هذه السيرة، ودونه في ثانيا كتابه «تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان»، إذ أورد في كتابه المذكور جزء من السيرة المتعلقة بوضع الإمامة في عهد الإمام الجلندي بن مسعود.

أما من حيث كاتبوا هذه السيرة، فقد عاشوا في هذه الفترة الذهبية من التاريخ العماني، فهي وإن عُنوانت بسيرة العلامة منير بن النير، إلا أنها قد كتبت من قبل أكثر من شخص، فقد جاء في سيرة: «فإني كتبت إليك وأنا ومن قبلي من إخوانك وأهل رعيّتك من أهل خاصّتك على

(١) السالمي: تحفة الأعيان، م. س، ج ١، ص ١٢٥. السليمان: مدينة نزوى، م. س، ص ٩٦.

(٢) ابن مداد: سيرة العلامة المحقق عبدالله بن مداد، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، سنة: ١٩٨٤م، العدد ٥٦، سلسلة تراث، ص ٥٩. الأركوي: كشف الغمة، ج ٥، ص ١٧١. السيابي: عمان عبر التاريخ، ج ٢، ص ٤٦.

(٣) وقد زودني بهذه النسخة الأستاذ الباحث: سلطان بن مبارك الشيباني.

(٤) زودني بها الأستاذ الباحث: يعقوب البرواني.

ما تحب، والله المحمود»^(١)، ولكن كما يبدو أن العلامة الجعلاني كان على رأس هؤلاء العلماء، فقلعه كان مجتهد عصره وإليه ترجع رئاسة العلم في عمان.

إن هذه السيرة وإن كانت قديمة، إلا أنها لا تعد الأولى من نوعها، فقد اتخذ الإباضية هذا النهج في مختلف أطوار تاريخهم، من ذلك تلك الرسالة التي بعث بها الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ومن معه من مشايخ البصرة، إلى الإمام طالب الحق عبدالله بن يحيى الكندي

(ت : ١٣١ هـ)^(٢)، ورسالة من الإمام أبي عبيدة أيضا إلى تلميذة أبو الخطاب عبد الأعلى بن سمح المعافري حين بويغ الإمامة عام ١٤٠ هـ في بلاد المغرب، غيرها^(٣).

وبصورة عامة فإنه يمكننا أن نستخلص ثلاث أفكار رئيسية ناقشتها هذه السيرة وهي كما يلي :

١. الأولى: نصح للإمام غسان بن عبدالله، وتذكيره بما كان عليه السلف الصالح.

٢. الثانية: تردى أوضاع الناس حين تسقط الإمامة ويحل محلها حكم الظلمة.

٣. الثانية : ذكر ما كان عليه الإمام الجلندي وأتباعه من الصلاح والهدى .

وقد نَوَّع العلامة المنير بن النير في نصحه وأبدع، وانتقى الكلمات انتقاء فريدا من نوعه، فجاءت نصيحته متصفة باللين الممزوج بالإخلاص، المقرون بإعطاء الأمثلة والنماذج الرائعة من سيرة السلف الصالح، وكان لسان حاله يقول: إن أردتم الخير والسير في طريق الهدى فالمثال بين أيديكم وعلى أرضكم ومن بني جلدتكم، الإمام الجلندي بن مسعود ومن كانوا معه. بدأ نصحه بالدعوة إلى تقوى الله ” وأوصيك ونفسي بتقوى الله الذي خلقك فبرأك في خلقك،

(١) انظر البحث، ص ٢٧.

(٢) الندابي: ناصر بن علي ، الإمامة الإباضية في اليمن وامتداد نفوذها إلى الحجاز، رسالة ماجستير للباحث في مجال التاريخ، من جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان، بحث غير منشور، ص ٦٤.

(٣) الندابي : ناصر بن علي ، العلاقة الثقافية والاجتماعية بين عمان وبلاد المغرب في العصر الإسلامي الوسيط، جامعة مولاي إسماعيل، المملكة المغربية، رسالة دكتوراة في التاريخ الإسلامية غير منشورة، ص ٢٠٣.

ورزقك فلم يرزقك معه رازق»^(١)، وقد كرر هذه النصيحة نفسه في ثنايا السيرة «فعليك بتقوى الله واتباع طاعته التي وصف بها أوليائه»^(٢) وختم بها السيرة أيضا حين قال : « فاتق الله وردّ الأمور عن الجور والعدوان إلى قصد السبيل»^(٣). ثم عرج إلى تذكير الإمام بنعم الله عليه حين قال :

« وأنعم عليك نعمًا ظاهرة وباطنة في خصال شتى يعجز عنها الإحصاء ، ويضعف عنها الشكر إلا ما وفق الله من الخير وحمل عليه من مكروه الطاعة، وذلك بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»^(٤). كما دعاه إلى عدم الركون إلى الناس واتباع أهوائهم، بهدف إرضاءهم والتقرب منهم، وخوفه من مغبة اتباع هذا الطريق» واعلم أن الوهن والتقصير وتآلف الناس على ما لا يوافق الحق لا يزيد في الرزق ولا يمد في العمر ولا يزيد لأهله إلا مقتاً ووهناً وخساراً»^(٥).

وكما يبدو من السيرة فإنها كتبت ردا على رسالة بعث بها الإمام إلى شخص المنير بن النير، يدعوه للقدوم إليه «أتاني كتابك تحثني على الإقبال إليك»^(٦)، ليكون سنداً للإمام وعونا، ولتستفيد منه دولة الإمامة، وخاصة كونه قد عاصر الإمامة الأولى، وقد أوضح له المنير أنه أحرص على هذا الأمر منه، لما يرجو فيه من الخير والصلاح للدولة، « في الأمر الذي عرفت قبل اليوم رغبتني فيه وحرصني عليه للذي أرجو فيه من القوة للدين وأهله، والبركة والعذر مع الله والمسلمين، من دنا منهم أو قصى، والمناصحة لله»^(٧)

وتخلل السيرة إعطاء نماذج رائعة من السلف الصالح، لتكون نبراسا للإمام، ومثالا يحتذى به، وقد نوع في هذه الشخصيات بين أسماء بعض الصحابة، وبعض التابعين، ومجموعة من أئمة عمان وعلمائها. عمار بن ياسر، ومن أخذ أخذه من أصحاب صفين، وأصحاب النهروان، وأصحاب حروراء ، وأصحاب النخيلة، وقريب والزحاف، وأبو بلال، وعبدالله بن

(١) انظر البحث، ص ٢٧.

(٢) انظر البحث، ص ٣٠.

(٣) انظر البحث، ص ٤١.

(٤) انظر البحث، ص ٢٧.

(٥) انظر البحث، ص ٤١.

(٦) انظر البحث، ص ٢٧.

(٧) انظر البحث، ص ٢٧.

يحيى، والجلندى بن مسعود، وأصحاب الخطم...»^(١) وقد ركّز العلامة المنير على جانب مهم وهدف أسمى جمع بين هذه الفئات المذكورة وهو الجهاد في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الحق، فلم يخرجوا: «ضيم في دنياهم، أو غضب لعشائهم، أو طمع لعرض الدنيا، أو حمية أو عصبية، أو على عمى أو ضلال من سيرتهم، أو إرادة الملك»^(٢). وإنما كان خروجهم: «جهاداً في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، لا يريدون شيئاً من أعراض الدنيا ولا يخافون في الله لومة لائم، ولا يخشون الدوائر ولا يهتمون للعواقب، ولا ينزلون الناس عندهم لشرف، ولا قوة ولا أرحام، ولا قرى ولا فقه، ولا قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا منهم إلا بحيث أنزلوا أنفسهم من طاعة الله ومعصيته حتى مضوا لسبيلهم - رحمهم الله وغفر لنا ولهم - على الصدق والوفاء، فلنا ولكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»^(٣).

ثم بعد ذلك تعرضت السيرة لعهد الإمام الجلندى بن مسعود، والجوانب الإدارية والسياسية والاجتماعية في عهده، وكيف كان يتعامل مع فئات المجتمع وشرائحه المختلفة، وهذا الموضوع سنتناوله بشيء من التفصيل لأنه جوهر ورقتنا وغايتها.

• التنظيمات الإدارية والسياسية والاجتماعية في دولة الإمامة من خلال هذه السيرة

تعد إمامة الإمام الجلندى بن مسعود من أهم وأبرز الإمامات التي مرت على عمان كونها البذرة الأولى من نوعها في تاريخ المجتمع العماني، وقد كان الهدف الأول منها هو إرجاع النهج الذي سار عليه الخلفاء الراشدين، وتحكيم شرع الله في أرضه بعد أن حادت الدولة الأموية عن هذا الطريق باستثناء الخليفة عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - وأكملت هذه الطريق المعوج الدولة العباسية، فلم تكن أحسن حالا من سابقتها، فقد أهمل الحكام شرع الله وحكموا أهوائهم، وعاثوا فسادا في الأرض، وفي خضم هذه الغوغائية ظهر النموذج الناصع، الذي سعى إلى إرجاع الناس إلى الجادة وتذكيرهم بما كان عليه السلف الصالح منذ عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، إلى عصر الخلفاء الراشدين.

(١) انظر البحث، ص ٣١.

(٢) انظر البحث، ص ٣١.

(٣) انظر البحث، ص ٣١.

وقد وصف المنير بن النير الإمام الجلندي ورجال الدولة في عهده بأحسن الأوصاف حين قال: « وعن الجلندي بن مسعود ومن معه من بوارع كل قوم وما عرفوا به من المعروف والعدل والإحسان والصدق والصبر والاقتصاد والبصيرة والمعرفة والورع والزهد والتحرج والعبادة والسمت بالحسن الجميل»^(١).

ومن هذا المنطلق سنتعرض في الأسطر القادمة الوضع الذي كانت عليه الدولة في عهد الإمام الجلندي بن مسعود، وسنضيف إليه ما تعرض له المنير بن النير متحدثا عن الإمام غسان بن عبدالله، على حسب ما ورد في هذه السيرة. وهذه الجوانب هي كالتالي:

١ - الجانب السياسي

إن مؤسسة الإمامة تختلف تماما عن المؤسسات والحكومات السابقة التي جثمت على صدور العمانيين ردحا من الزمن، والتي كانت تدار من قبل ولاية تابعين للدولة الأموية ثم العباسية. ولعل أهم ما يميز مؤسسة الإمامة أن إمامها يتم اختياره بالشورى، هذه الطريقة التي تجاهلها بنو أمية وبنو العباس، ضاربين بكل الآيات القرآنية ونصوص السنة عرض الحائط، متخذين من الحكم إرثا ينتقل إلى الابن بعد وفاة الأب.

ولعل من الأسباب الرئيسية في الحفاظ على مؤسسة الإمامة، وعلى هيبة الإمام ونفاذ رأيه، وحسن تدبيره تلك الفئة التي كانت بمثابة المجلس الاستشاري للإمام والتي يطلق عليها في الفكر الإباضي بأهل الحل والعقد، وقد كانوا من خيار الناس وأفاضلهم، وكيف لا تكون الدولة كذلك وهي تُقاد من قبل علمائها وخيار الناس فيها. وقد تعرضت لهم السيرة حين وصف المنير الصفات التي كانت تعرضت للصفات التي كانت تميزهم عن غيرهم فقال: «أهل فقه وأهل علم وحلم وتوددة، ووقار وسكينة ولب وعقل وبرّ ومرحمة وصدق ووفاء وتخشع وعبادة، وورع وتحرج وصلة ونصيحة ظاهرة مقبولة، لا يطمعون بمطامع سوء، ولا يتعاطون من الناس الحقوق، ولا يدخلون في خصومات الناس ولا يجتعلون على استخراج الحقوق، ولا يَسْتَرشون على طلب الحوائج التي تعنيهم من أهل الرعية، ولا يستفضلون في الرزق على السعة، ولا يغتاب

(١) انظر البحث، ص ٣٩.

بعضهم بعضاً ، ليس من شأنهم الغيبة ولا البغي ولا الحسد ولا التقاطع ولا التدابر ولا البغضة ولا شيء من أخلاق أهل الريبة ، يحرصون على ما زانهم في الدين ومع أهل الدين ويكرهون العيوب، ويهجرون أخلاق الفجور والمعاصي“^(١).

فعندما نتمعن في هذه الصفات التي اتصف بها هؤلاء القوم يتبين لنا لماذا تمكن الإمام من الحفاظ على استقرار الدولة، وكانت أرائه نافذة ومسداة، فما الإمام إلا واحد من هؤلاء بل هو أفضل القوم وأحسنهم. لذلك حق للمنير بن النير أن يصفهم بقوله: «هم أنوار في الأرض غرباء في الناس ، يعرفون بسيماهم. وكيف لا يكون كذلك من باع الله نفسه ينتظر حتفها صباحاً ومساءً؟»^(٢).

وبعد مبايعة الإمام الجلندي بن مسعود بالإمامة، نعمت عمان بالاستقرار والأمان، كما يتبين أنه لم تظهر على الساحة أي ثورة معارضة لحكم الإمام، كما لم تتعرض لأي غزو من الخارج طوال السنتين التي حكم فيهما الإمام (١٣٢ هـ - ١٣٤ هـ). ونستشف هذا الأمر من خلال بقاء الجيش العماني فترة من الزمن دون أن يشتغل بالحروب مما حدى ببعض شرااته أن يفكروا في الزواج وتكوين الأسر، فمن المعلوم أن النفس البشرية لن تفكر في هذا الأمر إن كانت مشغولة بأمر أهم وهو الجهاد في سبيل الله ” غير أن رجالاً منهم (الشراة)، فيما بلغنا، تأقت أنفسهم إلى النساء، فلما ذكروا ذلك استوحش منهم أنتمهم وقادتهم“^(٣).

ويظهر لنا أيضاً من خلال هذه السيرة أن هناك علاقات خارجية لإمام مع القيادة الإباضية في البصرة، وهذا دليل على أن إمامة الإمام الجلندي بن مسعود كانت بتنسيق واعداد من إباضية البصرة بزعامة الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ونأخذ هذا الأمر من تواصل الإمام مع علماء العراق حين رغب بعض الشراة في الزواج ” أن يعرضوا أمرهم على أهل الفضل من أهل العراق“^(٤). ويدل على هذا التواصل المستمر ذلك الرد السريع الذي جاء من

(١) انظر البحث، ص ٣٦.

(٢) انظر البحث، ص ٣٦.

(٣) انظر البحث، ص ٣٤.

(٤) انظر البحث، ص ٣٥.

قبل علماء العراق لهذه الإشكالية المطروحة فمما جاء في رسالتهم الجوابية: «إنكم كتبتم إلينا تخبروننا عن الشراة أن أنفسهم تنازعهم إلى النساء، وهذا أمر عظيم، غير أنهم إن لم يقدرُوا على الصبر فليعرض الفقير منهم نفسه على النساء المسلمات الصالحات، فإن قبلته المسلمة بعشرة دراهم ينجزها إياها ولا يبقى لها عليه دين بعد العشرة فليتزوج، وإن صبر عن النساء فهو خير له»^(١).

٢- الجانب الإداري

من أهم الوظائف الإدارية التي كانت موجودة في عهد الإمام الجلندي كما يظهر ذلك من ثنايا السيرة: الوالي، وقابض الصدقات، والقاضي، «لا يولون أمرهم ولا يبعثون في حوائجهم ولا يستعملون على صدقاتهم وأهل رعيّتهم ولا يستقضون إلا أهل الثقة وأهل العلم والفهم والورع»^(٢).

• وقد وجدت شروط مشتركة لاختيار الشخص الذي سيعتلي تلك المناصب ومن أهمها أن يكون :

- من أهل الثقة .
- عالما فاهما .
- من أهل الفضل الورع .
- من ذوي المكانة والشأن في قومه .
- غير متهم في نسبه أو عرضه ولا دعي على قومه .
- مرضي في سيرته بين إخوانه .
- ذو رأي نير في الحق .
- يستخرج رأيه وأحكامه من الشرع القويم .

وقد أوضح العلامة الجعلاني هذه الصفات في قوله : “أهل الثقة وأهل العلم والفهم والورع والتخرج المعروفون بالفضل، الموصوفون بالخير من أهل البيوتات من قومهم، غير سقاط ولا

(١) انظر البحث، ص ٣٤.

(٢) انظر البحث، ص ٣٤.

أدعياء، ولا متهمين ولا مقترفين... لا يتعلق عليهم بالسينات، ولا يلجأ إليهم القبيح، ولا يهتمون في دينهم، مرضيون في إخوانهم، متبع رأيهم، معروف فضلهم معروفون به . قد احتمت أراؤهم في قوة الحق، وأحكام أمور الدين..»^(١).

وتعرضت السيرة لمناذج من هذه الشخصيات التي تولت هذه المناصب، ولكن مما يوسف له أن كاتب السيرة لم يذكر قرين كل شخصية المنصب الذي كان يشغله في دولة الإمامة. وهؤلاء الأشخاص هم:

- موسى بن أبي جابر. - الحسن بن عقبة.
- الوليد بن خالد. - موسى بن سعيد.
- جعفر بن بشير. - معين بن عمر.
- لوط بن سام. - حميم بن المغيرة.
- والهماس بن مغلس. - النير بن عبد الملك.
- عبدالله بن أبي . - عمارة بن همام.
- محمد بن عبدالله بن سوم. - عمر بن يحيى.
- حميد بن عبدالله. - يحيى بن يزيد.
- عمر بن عبدالله .

ولئن تعرض المنير بن النير إلى هذه الاسماء مبينا أنهم كانوا من الصفوة التي اعتلت تلك المناصب إلا أنهم ذكر أنهم ليسوا وحدهم في الساحة بل هناك آخرون أمثالهم، وما ذكره لهؤلاء إلا من باب إعطاء نماذج لهم ليس إلا ويظهر ذلك من قوله : «وضرباؤهم من الناس»^(٢).

وتعرضت السيرة لجانب آخر من الجوانب الإدارية الممزوجة بالجانب الديني، وهي مسألة الصدقات والجزية، فالصدقات تؤخذ بحقها وتوضع في مواضعها، وهذا الأمر هو الذي ساعد على استقرار المجتمع ووحدته، فالفقير يعلم علم اليقين أن حقه من الزكاة سيصله حتماً، والغني قد أيقن ووثق في مصداقية مؤسسات الإمامة التي على رأسها أفاضل المجتمع وخياره

(١) انظر البحث، ص ٤٢.

(٢) انظر البحث، ص ٣٣.

وعلم أن صدقته أو زكاته ستصل إلى مستحقيها. «بل أخذوها بحقها بعد إحكام الأمور التي تعنيهم في دين الله وأهل الرعية، ثم وضعوها في مواضعها، وقسموها على أهلها بحكم القرآن، فريضة من الله والله عليم حكيم»^(١).

ويتجلى لنا من السيرة الأسلوب الإداري العادل المبني على الصدق والإنصاف، المتمثل في إنصاف المسلم، فالإمام لم يكن يأخذ الصدقة أو الزكاة من الناس إلا إن تأكد لديه مقدرة الدولة على حمايته والذود عن عرضه، والحفاظ على ماله ونفسه وعياله. «ولم يستحلوها من الناس على غير الإثخان في الأرض والحماية والكفاية والمجاشئة عن حريم المسلمين»^(٢).

ولذلك نجدهم يترفعوا عن مطالبة الصيادين ومرتادي البحر من المسلمين أو غيرهم بالصدقة أو الزكاة أو الجزية (لأهل الذمة) لأنهم لا يقدروا على حمايتهم في المسطحات المائية، إلا ما طابت أنفسهم به للدولة. «يرفضوا بصدقة البحر إلا ما طاب بأنفس الناس أن يفعلوه له لما يتخوفون من الدخول عليهم في سبيل الله إذ لم يحموه»^(٣).

٣- الجانب العسكري

أوضحت لنا السيرة أحد الجوانب العسكرية في عهد الإمامة، والمتمثل في فنة الشراة، هذه الفنة التي يمكن معرفة ماهيتها ودورها من خلال اسمها، فمفهوم الشراء جاء من الآيات القرآنية التالية: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»^(٤). وقوله عز وجل: «فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا»^(٥).

(١) انظر البحث، ص ٣٣.

(٢) انظر البحث، ص ٣٣.

(٣) انظر البحث، ص ٣٣.

(٤) التوبة: الآية (١١١).

(٥) النساء: الآية (٧٤).

وقوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ»^(١)

وقد كان هناك اهتمام منقطع النضير بهذا الفئة، فلا يسمح لأي فرد بالانخراط فيها إلا أن كان متصفا بهذه الصفات: البُعد عن الدنيا وملذاتها، والبُعد عن جمع حطامها، راغبا عن شهواتها وملذاتها، بانعا نفسه لله ولإعلاء كلمته « ليس الدنيا من ذكرهم ، ولا جمع المال من شأنهم ، ولا الشهوات من حاجاتهم. وكيف لا يكون ذلك كذلك من باع لله نفسه ليجود بها على ترك الدنيا ويزهد بما فيها !! »^(٢). ولم يتوقف الحد عند هذا ، إذ أن هذه الصفات قد يتصف بها أي فرد سواء من الشراة أم من غيرهم، ولكن الشرط الذي ميز هذه الفئة عن غيرها، وجعلها فعلا قادرة على المقاومة في أحلك الظروف، والتضحية بنفسها رخيصة في سبيل الله، هو الإيمان المحض بعبادهم. ثم قانون عدم السماح لهم بالزواج وتشكيل الأسر، هذا القانون الذي جعلهم لا يفكرون في شيء من هذه الحياة الدنية قد يخسرونه أو يحسبون حسابه، فمن المعلوم أن الانتصار على فرد ليس لديه شيء يخسره في هذه الحياة يعد ضربا من المستحيلات. ولذلك استنكر العلماء عليهم أيما استنكار حين ذكر أن بعضهم تأقت أنفسهم للزواج: «غير أن رجالا منهم، فيما بلغنا، تأقت أنفسهم إلى النساء، فلما ذكروا ذلك استوحش منهم أنمتهم وقادتهم»^(٣).

ويتبين من خلال هذا النص أن هؤلاء هم نواة الجيش العماني في ذلك العصر، ويظهر أيضا أنه لم يكن هدف الواحد منهم المال الذي يأخذه من الدولة جراء انضمامه إلى الجيش، لأنه كان مبلغا زهيدا جدا في ظل ارتفاع الأسعار وغلاء للمعيشة، « وكان المرء يرزق منهم في الشهر سبعة دراهم في غلاء من السعر فيصبر على القوات اليسير رغبة في الآخرة والثواب من عند الله، وقد بلغنا أنه ربما بقي مع الرجل منهم الدرهم والدرهمان فيتطوع بذلك الفضل فيرده في فيء المسلمين»^(٤)، ويبدو أن الدولة كانت تمر بوضع اقتصادي سيء، ولهذا لجنت إلى هذا الأسلوب الذي يعد حلا مناسباً لتأمين حمايتها وتجهيز جيشا مستعدا للمقاومة بروح معنوية عالية،

(١) البقرة: الآية (٢٠٧).

(٢) انظر البحث، ص ٣٤.

(٣) انظر البحث، ص ٣٤.

(٤) انظر البحث، ص ٣٥.

دون أن يشكل ذلك إرهاباً لحزبائها المالية.

ولقد كان هناك إحساس مشترك بهذه الأزمة المالية عند الحاكم والمحكوم عند القائد والمقود، فكان الشاري يعتبر نفسه جزء من هذه الحكومة، فلا بد أن يقف مع الإمام في كل ظروفها، فقد كان هناك ولاء عظيم للإمام ومؤسسات الإمامة، تمثل في تبرع هذا الجندي الشاري بجزء من راتبه الزهيد الذي يتقاضاه نهاية كل شهر، فلم يفكر في نفسه فحسب بل كان هم المجتمع شاغل باله : «وقد بلغنا أنه ربما بقي مع الرجل منهم الدرهم والدرهمان فيتطوع بذلك الفضل فيرده في فيء المسلمين»^(١)

أما من حيث التنظيم العسكري الرائع الذي ابتدعه الإمامة في إدارة هذه الفئة، فقد كان مثالا ونموذجاً رائعاً، ذكره المنير بن النير من أجل أن يقدم للإمام غسان أسلوباً ناجحاً مجرباً في عصر سلفه وسابقيه الإمام الجلندي بن مسعود، وقد تمثل هذا النظام في الآتي: قسّم الإمام فئة الشراة إلى مجموعات كل مجموعة يتراوح عدد أفرادها بين المائتين والثلاث والأربع مائة، وعلى رأس كل مجموعة قائد عام، ثم قسّم كل مجموعة من هذه المجموعات الكبرى إلى فئات صغيرة، كل فئة تضم عشرة أفراد، ثم جعل على كل عشرة قائد لهم: «على مائتين من الشراة إلى ثلاثمائة إلى أربع مائة قائد من أهل الفضل والحجة والبصيرة والثقة والمعرفة والعلم والفقہ والحزم والقوة ، على كل عشرة من أصحابه مؤدب»^(٢).

وقد تم اختيار القائد بعناية، سواء ذلك القائد العام الذي يقود المجموعات الكبرى المؤلفة من مائتين أو ثلاثمائة أو أربع مائة، أو القائد الأدنى منه والذي يقود مجموعة صغيرة لا يتعدى عدد أفرادها عن العشرة، فمن أهم الصفات التي ينبغي أن تتوفر فيه أن يكون : «من أهل الفضل والرحى، والبصيرة والثقة والمعرفة والعلم والفقہ والحزم والقوة»^(٣). لأن مهمتهم لا تقتصر على تدريب الجنود التدريب العسكري فحسب، وإنما هو : «مؤدب ... يعلمهم الدين ويؤدبهم على

(١) انظر البحث، ص ٣٥.

(٢) انظر البحث، ص ٣٤.

(٣) انظر البحث، ص ٣٤.

المعروف، ويسددهم عن الزيغ، ويقيمهم على الطريقة، ويهديهم سبيل الرشاد»^(١).

كذلك يمكننا أن نستشف الاهتمام الكبير الذي أولاه الإمام الجلندي بأخلاق الجند، فاختيار القائد بتلك الصفات يدل على هذا الأمر، فلم يطلق عليه المنير قائد وإنما سمّاه مؤدبا كدليل على أن مهمته الكبرى هي تأديب الجيش على الأخلاق الحميدة، وهذا الاهتمام الكبير بأخلاق الجند يدل على الحنكة العسكرية والحس الديني الذي اتسم بها الإمام، كما يدل على تمرسه وخوضه للعديد من المعارك، وخبرته الطويلة في إدارة الجنود، ومعرفته الواسعة بما قد يصدر من الجندي أثناء المعارك من أعمال قد تسيء إلى سمعة القيادة بصورة خاصة وإلى الجيش بأكمله على وجه العموم، فلطالما حذر العلماء من معرة الجيش وما قد يقوم به الجيش في حال الانتصار على الخصم، إذ قد تظهر في نفوس الجند الرغبة في الانتقام والتشفي من العدو.

٤ - الجانب الاجتماعي

عند قراءة السيرة قراءة متأنية نجد أنها تعرضت لعدد كبير من فئات المجتمع وشرائحه، فقد تعرضت للعلماء، وللقضاة، وللولاة، ولقادة الجيش، وللجنود، ولجباة الزكاة والصدقات، ولأهل الذمة وللنساء، ولطبقة العامة من السواد الأعظم.

وأظهرت السيرة الكيفية المثلى في التعامل مع كافة شرائح المجتمع، من ذلك عدم أخذ الصدقة أو الزكاة منهم في حال عدم مقدرة الدولة على حمايتهم، كما بيّنا ذلك آنفاً.

ومن خلال السيرة نجد أن الإمام الجلندي بن مسعود قد أقر شروطاً خاصة للنساء لضبط المجتمع، والحفاظ عليه من الانحراف، من تلك القوانين: أن طالب المرأة بمزيد من الحشمة والعفة، فأرشدنا إلى تغطية جميع جسدها سوى الوجه والبنان، فأمرها بـ: «إدناء الجلابيب على النساء، ورفع الخمر فوق الأذقان، وستر النواصي، وسائر الزينة إلا الوجه والبنان»^(٢)، وعندما نتمعن في هذا النص يظهر لنا الصورة والهيئة الإسلامية الحقة التي كانت تخرج بها حين تجبر على الخروج، فلا ترى أقدامها، إذ قد أدنت جلبابها إلى أسفل قدميها، ولا يرى من وجهها

(١) انظر البحث، ص ٣٤.

(٢) انظر البحث، ص ٣٥.

الإجزاء بسيط فخمارها قد أحاط بوجهها ولم يظهر منه سوى جزء بسيط، فالناصية مستترية والخمار يصل إلى الذقن. ولم يجد عذرا للمرأة الفقيرة التي قد تعتذر عن ذلك الستر بسبب قلة ما بيدها ، بأن أمرها « أن تنزر فوق درعها»^(١).

ومن القوانين التي وضعها الإمام أيضا أنه نهى النساء عن الجلوس في السكك، كل ذلك من أجل الحفاظ على نزاهة المجتمع وعفة نساءه ورجاله، كما نهاهن عن الخروج وقت تساقط الأمطار، وحين اشتداد الريح، لما قد تتعرض له المرأة من إنكشاف لعورتها في هذه الظروف الاستثنائية. «ونهى النساء عن الجلوس في السكك والخروج في يوم المطر أو الريح العاصف»^(٢).

ووضع قوانين متعلقة بالرجال خاصة، فأمرهم برفع الذبول، وقص الشعر إذا زاد عن الحد المتعارف عليه، كذلك نهاهم عن إبداء العورة، والمتمثلة فيما فوق الركبة، والتي قد يغفل عنها الكثير من الناس، فالأمر بتقصير الثياب - رفع الذبول - لأن إطالتها مدعاة إلى التكبر والخيلاء، أما تقصير الشعر فلما في ذلك من تشبه بالنساء «ورفع ذبول الرجال وتقصير أشعارهم إذا أسبغت على العواتق... ونهى الرجال أن يبدوا ما فوق الركب»^(٣) ، وهذا في حد ذاته أمر في غاية الأهمية، ففيه عدد من الجوانب التي تدل على سمو الحضاري لمؤسسة الإمامة وعلى رأسها الإمام نفسه، والراقي الفكري لشخص الإمام وحسن تدبيره، فهذه الأوامر تدل على اهتمام الدولة بجانب النظافة، والحفاظ على مظهر الرجل والتأسي بهدي المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ومن الجوانب المهمة أيضا أن نهى المسلمين أن يتشبهوا بزي أهل الذمة، وكذلك العكس، فقد نهى أهل الذمة أن يتشبهوا بالمسلمين ويلبسوا نفس لباسهم، وهذا أمر في غاية الأهمية وهو ما يسمى في وقتنا الحاضر بالحفاظ على الهوية الوطنية، من أجل تعزيز مبدأ الوطنية في نفوس العمانيين، وتميزهم عن غيرهم من الناس الذين يشاركونهم السكنى على أرض الوطن.

(١) انظر البحث، ص ٣٥.

(٢) انظر البحث، ص ٣٦.

(٣) انظر البحث، ص ٣٦.

الخاتمة

الحمد لله على تيسيره وتوفيقه، والصلاة والسلام على الهادي المبعوث رحمة للأنام. وبعد.. بعد طفنا سوية في ربوع سيرة العلامة منير بن النير تحليلا وتفسيرا واستخلاصا للعديد من جوانب الحياة الاجتماعية والإدارية والسياسية فإننا نصل إلى نهايتها لنضع بعض النقاط التي خرجنا بها من هذا العمل، ومن أهم هذه النقاط ما يلي :

- أهمية السير في الكشف عن الأحداث التاريخية، وبيان مدى حقيقتها.
- السير لها أهمية كبيرة في إيضاح تفاصيل الحياة الاجتماعية التي قد يغفل عنها المؤرخ .
- تعد سيرة المنير بن النير هذه الوحيدة من نوعها التي كشفت عن تفاصيل الحياة في عهد الإمام الجلندي بن مسعود.
- هذه السيرة هي من مصادر التاريخ العماني في القرن الثاني الهجري فهي تكشف عن الوضع الذي كانت فيه عمان عبر قرابة خمسين سنة من عمر التاريخ .
- السيرة أوضحت فئة الشراة ودورها في المجتمع العماني والصفات التي يتميز بها الشاري.
- السيرة كشفت لنا طريقة تعامل الإمام الجلندي مع كافة شرائح المجتمع.
- السيرة أوضحت لنا الحياة الاقتصادية التي كانت تعيشها عمان إبان إمامة الإمام الجلندي.
- السيرة أوضحت لنا دور العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحرصهم على ذلك .
- السيرة بينت لنا أنه لا عدل في الحكم، ولا مساواة ولا تطبيق لشرع الله إلا إن تركت الدولة تدار من قبل علمائها ومخلصيها.
- السيرة أوضحت لنا المستوى الحضاري الذي بلغته عمان في عهد الإمام الجلندي بن مسعود.
- السيرة أعطت لنا أساليب رائعة في إدارة المجتمع والإدارة العسكرية.
- السيرة قارنت لنا بين فترتين من فترات التاريخ عمان العريق (الإمامة الإباضية الأولى والإمامة الإباضية الثانية).

• سيرة منير بن النير الريامي الجعلاني^(١) إلى الإمام غسان بن عبدالله (رحمهما الله)

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليك، أما بعد فإنني أحمد إليك الله^(٢) وأوصيك ونفسي بتقوى الله الذي خلقك فبرأك في خلقك، ورزقك فلم يرزقك معه رازق، وأنعم عليك نعمًا ظاهرة وباطنة في خصال شتى يعجز عنها الإحصاء، ويضعف^(٣) عنها الشكر إلا ما وفق الله من الخير وحمل عليه من مكروه الطاعة، وذلك بيد الله يوتيئه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وأن نسأل الله الذي له مقاليد السموات والأرض أن يفتح لنا ولك من رحمته ومفاتيح فضله، وما يبلغنا وإياك لكرامة الآخرة ويعصمنا وإياك به مما نحاذر من فتن الدنيا وشرور أهلها فإنما نحن به وله.

أما بعد، أحسن الله إليك في الأمور كلها وبارك لنا ولك في عواقبها، فإنه ولي ذلك ومولاه والقادر أن يهب لنا ولك ما نسأله، ويبلغنا وإياك من رحمته ما لم نبغعه^(٤) بهمتنا ولم نمض^(٥) فيه مسألتنا. فإنني كتبت إليك وأنا ومن قبلي من إخوانك وأهل رعيّتك من أهل خاصتك على ما تحب، والله المحمود^(٦). حبيب^(٧) إلينا سلامتك^(٨) صلاحك ورشدك ورضيك^(٩)، وما زاد الله لك من مزيد رحمته

(١) اعتمدنا في التحقيق على السيرة الواردة في كتاب السير والجوابات الذي حقق من قبل الدكتور سيدة اسماعيل كاشف وطبعته وزارة التراث القومي والثقافي، واضفنا الاختلاف الوارد والزيادة التي وجدناها في مخطوطة من مقتنيات مكتبة جامعة لفوف (The Library of the University Of Lwow) تحت رقم : ١١٠٨٢) وهو ضمن مجموعة بعنوان " تجارة العلماء والسير العمانية " منسوخ سنة : ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م . وقد حصلت على هذه النسخة من الأخ الفاضل سلطان بن مبارك الشيباني وسنرمز لها بالحرف (أ) . كما قارن ما ورد في السيرة المحقق والمخطوطة بما ورد في تحفة الأعيان للإمام السالمي وسنرمز لها بالحرف (ت) . ومخطوط منسوخ من مكتبة جامعة السلطان قابوس وسنرمز لها بالحرف (ج) .

(٢) في (ج) : العبارة ساقطة (سلام عليك، أما بعد فإنني أحمد إليك الله)

(٣) في (ج) : (يعجز)

(٤) في (ج) : (ما لم نبغعه ساعة بهمتنا ...)

(٥) في (ج) : (تمض)

(٦) في (ج) : (محموده)

(٧) في (ج) : (حبيب)

(٨) في (أ) : سقطة كلمة (سلامتك) .

(٩) في (أ) : (وديك) . وفي (ج) : (ورويتك)

عزيز علينا عنتك^(١)، وفسادك، حراس في الأمور كلها على ما يسرك من موافقة الحق ولا قوة إلا بالله .
أتاني كتابك تحثني على الإقبال إليك في الأمر الذي عرفت قبل اليوم رغبتني فيه وحرصني عليه
للذي أرجو فيه من القوة للدين وأهله، والبركة والعذر مع الله والمسلمين، من دنا منهم أو قصى،
والمناصحة لله والحجة على من شك وارتاب، أو عرض إلى شيء من الباطل، مع إظهار السنة
وإطفاء البدعة، ونشر المعروف ونسب^(٢) الدين الذي أنزل الله به الكتاب وأرسل به الرسول صلى
الله عليه وسلم، ومضى عليه أمة المسلمين وقاداتهم وخوارجهم، وما أثروا بأعقابهم من الحسن
الجميل الذي زينهم الله به في الدنيا وأوجب لهم به عليه الكرامة في الآخرة، وذلك الذي طلبوا.
لم يخرج من خرج منهم^(٣) لأعراض الدنيا وباطلها، ولا رضوا لأنفسهم بالوهن في الدين،
والتقصير عما سمي^(٤) أسلافهم من المبالغة في دين الله، مناصحة الله، وغيره للدين، إذ ترك الدين
وسنة الدين وشرعة الدين. واختلفت الأهواء وتفرقت بالناس السبل فالتقى الله البصر في صدورهم،
فأبصروا من الحق ما جهل الناس، وعرفوا منه ما أنكر الناس، وحافظوا^(٥) منه على ما ضيع
الناس ولزموا^(٦) ما ترك الناس، لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يخشون الدوائر، ولا ينظرون في
عواقب أمور الدنيا. فسار من سار منهم في دار العلانية بسيرة معروفة موصوفة منسوبة غير
مخزية لهم ولا فاضحة لهم، ولا متعقب عليهم ما لا يوافق الحق ولا يوافق رضوان الله، حتى
مضوا على الصدق والوفاء وما بدلوا تبديلاً. لم يزدادوا في أيام الحياة إلا زهداً بالدنيا، ورغبة
في الآخرة، قد تركوا الدنيا وراء ظهورهم، وجعلوا الآخرة بين أعينهم، للذي^(٧) يرجون من
موعود الله الذي لا خلف له، قوله : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمْ

(١) في (أ) : (عبتك)، وفي (ج) : (عبتك)

(٢) في (ج) : (وثبتت)

(٣) في (أ) : (لم يخرج منهم...)

(٤) في (ج) : (سمي إليه...)

(٥) في (أ) : (وحفظوا)

(٦) في (ج) : (منه ما...)

(٧) في (أ) : (للدين) .

اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (١). فشمر القوم لا يألون تنافساً وسباقاً (٢) إليه مع الذي وفوا (٣) الله من البيعة التي اشترى عليهم {أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِذًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} (٤).

ثم وصف الخصال التي جرت عليها البيعة فيما بينه وبينهم، وثبتت (٥) بها لهم عليه الجنة فقال: (التائبون) من كل ذنب وخطيئة وعيب وريبة (٦) وعمى وشبهة وشك وفتنة وباطل وضلال، (العابدون) المخلصون لله العبادة لا يريدون به غير الله ولا يريدون بها إلا ما عنده، (الساكنون) في الصيام والخيرات، (الراكعون) مع أهل الركوع بتمام ما فرض الله من الركوع على المصلين الصلاة، (الساجدون) الحامدون، (الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر)، {وَالْخَافِضُونَ لِأُحْدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} وسار «أهل التقية» منهم في دار التقية سيرة بيّنة معروفة غير ملبس عليهم فيها، ولا شكّاك ولا مرتابين، يعرفون بسيماهم وورعهم وتحريمهم (٧) وفضلهم الذي فضلهم الله به في الناس، وبما خصهم به دون الناس من معرفة الحق وصدق الإخاء والوفاء (٨) بما كتب الله عليهم واصلون لمن وصل الله بحقه، قاطعون من عصى الله في حكمه، التراؤف والتراحم فيما بينهم (٩) مقبولة، كلمتهم واحدة بالحجج الواضحة على من خالف الحق ولزم الباطل. هم والناس {خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} (١٠) فمنهم المشرك بالله الكافر الخارج بشركه، ومنهم

(١) التوبة: الآيات (١٢٠ - ١٢١)

(٢) في (ج) : (ومساقا)

(٣) في (ج) : (وفق)

(٤) التوبة : الآية (١١١).

(٥) في (أ) : (ويثبت)

(٦) في (أ) : كلمة (وريبة) ساقطة

(٧) في (ج) : (ونجدتهم)

(٨) في (أ) : (معرفة الحق والصدق والإخاء والوفاء...)

(٩) في (ج) : (ظاهرة)

(١٠) الحج : الآية (١٩).

الحاكم بغير ما أنزل الله، ومنهم المُعين عليه، ومنهم الشاك فيه المرتاب المتحير، ومنهم المبتدع المشرع^(١) في الدين ما لم يأذن به الله، الخارج من الإيمان ببدعته الداخل بها في الكفر، ومنهم ذو الطمع البائع خلفه بالثمن القليل، ومنهم الجبار الظالم المتعدي الظهير على الله باستحلال المحارم، ومنهم ذو الشهرة الذي تنازعه نفسه إلى مباشرة ما يدين بتحريمه، فكل هؤلاء يجمعهم الكفر، وبه دخلوا النار، وإن تفرقت بهم المنازل وتشتت بهم الأهواء، فهؤلاء قد عرفهم المسلمون.^(٢)

وفرقه أخرى^(٣) دخلوا مع المسلمين من الباب الأعظم وخرجوا من النفق الأصغر، سماهم الله المنافقين بما استحقوا به عند^(٤) المسلمين وأفضوا فيه إلى الله^(٥)، فعظمت منونتهم على المسلمين، وكفى لهم بالله جازياً يعلمه فيهم. فكل هؤلاء سقاط قد سقطوا من الإسلام، خارجون من الإيمان، داخلون في الكفر، فإننا نسأل الله أن يستنقذنا وإياكم من جميع الأخلاق الموبقة لأهلها.

ونكر الخصم الذين أبصروا سبيل الحق وعرفوا به جور الناس عنه، وأنكروا على الناس ترك ما تركوا من طاعة الله وركوب ما ركبوا من معصية الله وتضييع ما ضيعوا من حقوق الله واشتراح ما شرعوا مما لم يأذن الله به، فأنكروا ذلك وخصموا الناس بالحجج الواضحة والحق المبين، فأفلجهم^(٦) الله على خصمهم في الدنيا والآخرة، وذلك قوله : {يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ}^(٧). فلا يهديهم لهم^(٨) في الدنيا ولا في الآخرة ويفعل الله ما يشاء. فبالذي أبصروا من الحق واستقاموا عليه من أمر الله من بعد البصيرة والمعرفة والتمسك بجملة الطاعة والانتهاة عن جملة المعصية، ثبت لهم الإيمان ودخلوا به الجنة. فعليك بتقوى الله واتباع طاعته التي وصف بها أوليائه. فإننا وإياك قادمون على الله ومسئولون

(١) في (ج) : (المشرع)

(٢) في (أ) إضافة كلمة (واختصمهم) وفي (ج) : (واحتصمهم)

(٣) في (ج) : (وفرقه أخرى منهم دخلوا)

(٤) في (ج) : (من)

(٥) في (ج) : (وأفضوا به إلى الله تعالى ..)

(٦) في (أ) و (ج) : (فأفلجهم)

(٧) إبراهيم : الآية (٢٧).

(٨) في (أ) : (الله). وفي (ج) : (له)

عن العمل والعمر والنعم والتقدمة ، فأعدّ واستعدّ للقاء الله ، ثم انظر^(١) فيما مضى عليه أئمة المسلمين وقادتهم فإن يكن الذي مضوا عليه هو الحق فتركه ضلال ، وقال الله : {فَمَّاذَا بُعِثَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} ^(٢)

فقد بلغك إن كان بلغك الذي مضى عليه المسلمون قبلنا وقبلك ، عمار بن ياسر ، ومن أخذ أخذه من أصحاب صفين ، وأصحاب النهر^(٣) ، وأصحاب حروراي ، وأصحاب النخيلة ، وقريب والزحاف ، وأبو بلال ، وعبدالله بن يحيى ، والجلندى بن مسعود ، وأصحاب الخطم^(٤) ، فإن كانوا خرجوا من بيوتهم عن إخراج أو ضيم في دنياهم ، أو غضب لعشائريهم ، أو طمع لعرض الدنيا ، أو حمية أو عصبية ، أو على عمى أو ضلال من سيرتهم ، أو إرادة^(٥) الملك ، فقد خالفوا الحق . فعند من نرجو الحق بعدهم؟! وإن كانوا خرجوا جهاداً في سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، لا يريدون شيئاً من أعراض الدنيا ولا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يخشون الدوائر ولا يهتمون للعواقب ، ولا ينزلون^(٦) الناس عندهم لشرف^(٧) ، ولا قوة ولا أرحام ، ولا قرى^(٨) ولا فقه ، ولا قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا منهم إلا بحيث أنزلوا أنفسهم من طاعة الله ومعصيته حتى مضوا لسبيلهم - رحمهم الله وغفر لنا ولهم - على الصدق والوفاء ، فلنا ولكم فيهم^(٩) أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . فقد بلغني أن عمار بن ياسر - رحمه الله - كان يقول لعلي بن أبي طالب : ويلك يا علي ، الحق بالله قبل أن يحكم الحكمين ، وذلك أنه كان يتخوف عليه الركون إلى

(١) في (ج) : (انظروا)

(٢) يونس : الآية (٣٢)

(٣) في (أ) : (النهروان)

(٤) في (ج) : (الخطم)

(٥) في (ج) : (وإرادة)

(٦) في (أ) و (ج) : (ينزل)

(٧) في (ج) : (بشرف)

(٨) في (أ) : (قراءة)

(٩) في (أ) : (كلمة فيهم) ساقطة

الدنيا، وليس بين قوم^(١) وبين الهلاك إذا أمكن لهم دينهم واستخلفوا في الأرض وأهلك عنهم عدوهم إلا أن يركنوا إلى الدنيا بما يكون فيه وهن الدين وضعف عن الحق .

وقد بلغنا عن عبدالله بن (٢) الراسبي - رحمه الله- أنه^(٣) قال لما حكم الحكمان في دين الله قال : لا حكم إلا لله ولو حكم الحاكمون بغير ما أنزل الله، والله يقضي بالحق وهو خير الفاصلين. وبها كانت لهم الحجة على من حكم في دين الله بغير ما أنزل^(٤) . فأوضح الله عذرهم وأفلج^(٥) حجبتهم وأعلى كلمتهم، وجعلها كلمة باقية، في أعقابهم موروثة عنهم، يتبع فيها من أبصر الحق سبيلهم. وبلغنا عن المرداس بن أدية - رحمه الله- ، أنه لما أراد الخروج كان ينتخب أعلام المسلمين وتقائهم يشترط عليهم لله وللدين ولأهل الدين على الخروج في سبيل الله: إنك تخرج جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته لا نريد شيئاً من أعراض الدنيا ولا لك في الدنيا حاجة، ولا لك إليها رجعة، أنت الزاهد في الدنيا المبغض لها الراغب في الآخرة الجاهد في طلبها الخارج إلى القتل لا غيره ، فاعلم أنك مقتول وأنك لا رجعة لك إلى الدنيا، وأنك ماض أمامك لا شيء إلا^(٦) الحق حتى تلقى الله، فإن كنت على هذه الحال فارجع إلى ما وراءك فاقض من الدنيا حاجتك ولبانتك^(٧)، واقض دينك ، واستر نفسك وجد في أمرك بالفراغ، وودع أهلك وأعلمهم أنه لا رجعة لك إليهم ، فإذا فرغت بايعت^(٨)ك . فما سمعنا بقوم قتلوا في كثرة الناس، أوفى ببيعة ولا أمضى مقدماً، ولا أظهر ديناً ولا أوضح عذراً، ولا أفشى عدلاً ولا أكرم صبراً منهم، حتى مضوا لسبيلهم - رحمهم الله- وغفر لنا ولهم جزاهم عن الإسلام وأهله خيراً .

وقد بلغنا عن أبي يحيى - رحمه الله- ، والمختار بن عوف، وبلج بن عقبة، وأصحابهم من

(١) في (ج) : (القوم)

(٢) في (أ) : (وهب)

(٣) في (ج) : (أنه) ساقطة

(٤) في (أ) : (الله)

(٥) في (أ) و (ج) : (وأفلج)

(٦) في (أ) : (عن) . وفي (ج) : لا تتشي .

(٧) في (أ) : (وشأنك)

مكارم الأخلاق وما ليس^(١) لأحد من أهل الباطل عليهم فيه متعلق، إلا من ظلم نفسه وترك الحق ودخل في الباطل، فقد وضع عذرهم واستبان سبيلهم لمن وطئ عنهم العدل الذي أثروا بأعقابهم، وما انتشر في البلاد من الفضل الفاخر في سيرتهم وخطبهم، وما نشروا من المعروف حتى مضوا لسبيلهم، - فغفر الله لنا ولهم -^(٢) أو عن الجلندی بن مسعود ومن معه من بوارع^(٣) كل قوم^(٤) وما عرفوا به من المعروف والعدل والإحسان والصدق والصبر^(٥) والاقتصاد والبصيرة والمعرفة والورع والتزاهد^(٦) والتخرج^(٧) والعبادة والسمت بالحسن الجميل. لم يأخذوا الصدقة بغير حقها ولم يضعوها في غير مواضعها^(٨)، ولم يستحلوها من الناس على غير الإثخان في الأرض والحماية والكفاية والمجاهشة^(٩) عن حريم^(١٠) المسلمين^(١١)، بل أخذوها بحقها بعد إحكام الأمور التي تعنيهم في دين الله وأهل^(١٢) الرعية، ثم وضعوها في مواضعها، وقسموها على أهلها بحكم القرآن، فريضة من الله والله عليم حكيم.

ثم بلغنا عنهم والذي^(١٣) استقام عليه رأيهم أن يرفضوا بصدقة البحر إلا ما طاب بأنفس الناس أن يفعلوه^(١٤) لهم^(١٥) لما يتخوفون من الدخول عليهم في سبيل الله إذ لم يحموه، ولا يولون أمرهم ولا

(١) في (أ) : (ما ليس)

(٢) في (ت) : (من هذه النقطة بدأت السيرة في تحفة الأعيان)

(٣) في (ج) : (توارع)

(٤) في (ج) : (قوام)

(٥) في (ت) : غير موجودة كلمة (الصبر)

(٦) في (أ) : (الزاهد) . في (ت) : (الزهد)

(٧) في (أ) : (التخرج)

(٨) في (أ) و (ج) : (مواضعها)

(٩) في (أ) : (المكافحة)

(١٠) في (أ) : (تحريم)

(١١) في (أ) : (توجد عبارة (ولا على غير زيادة عن حمى الله) . و (ج) : (ولا على غير الزيادة عن حما الله)

(١٢) في (أ) : (وحفظ)

(١٣) في (أ) : (فيما)

(١٤) في (أ) : (يبتلوه)

(١٥) في (أ) : (وذلك لما)

يبعثون في حوائجهم ولا يستعملون على صدقاتهم وأهل رعيّتهم ولا يستقضون^(١) على أهل ولايتهم ، إلا أهل الثقة^(٢) وأهل العلم والفهم والورع والتخرج^(٣) المعروفون بالفضل، الموصوفون بالخير من أهل البيوتات من قومهم^(٤)، غير سقاط ولا أذعياء، ولا متهمين ولا مقترفين^(٥) . منهم موسى بن أبي جابر، والحسن بن عقبة، والوليد بن خالد، وموسى بن سعيد، وجعفر بن بشير، ومعين بن عمر، ولوط بن سام، وحميم بن المغيرة، والهماس بن مغلّس^(٦)، والنير بن عبد الملك، وعبد الله بن أبي، وعمار بن همام، ومحمد بن عبد الله بن سوم، وعمر بن يحيى، وحמיד بن عبد الله، ويحيى بن يزيد^(٧)، وعمر بن عبد الله، وضرباؤهم من الناس، لا يتعلق عليهم بالسينات^(٨)، ولا يلجأ إليهم القبيح، ولا يتهمون^(٩) في دينهم، مرضيون في إخوانهم، متبع رأيهم، معروف فضلهم معروفون به . قد اجتمعت^(١٠) آراؤهم في قوة الحق، وأحكام أمور الدين. على ماتبتين من الشراة إلى ثلاثمائة إلى أربعمائة قائد من أهل الفضل والرحى^(١١) والبصيرة والثقة والمعرفة والعلم والفقه والحزم والقوة، على كل^(١٢) عشرة من أصحابه مؤدب من أهل الفقه يعلمهم الدين ويؤدبهم على المعروف ويسددهم عن الزيغ ويقيمهم على الطريقة ويهديهم سبيل الرشاد . ليس الدنيا من ذكرهم، ولا جمع المال^(١٣) من شأنهم، ولا الشهوات من حاجاتهم. وكيف لا يكون ذلك كذلك من باع لله نفسه ليجود

(١) في (أ) : (يستقضون)

(٢) في (ج) : (الفضل)

(٣) في (أ) : (والتخرج)

(٤) في (ج) : (قوم)

(٥) في (أ) : (مقترفين)

(٦) (أ) : (والهماس بن مغلّس) وفي (ج) : (والهمام بن المغلّس)

(٧) في (ت) : (لا يوجد يحيى بن يزيد وإنما ورد (حميد بن عبد الله بن يزيد)

(٨) في (ت) : (بالسباب)

(٩) في (ت) : (يتهموه)

(١٠) في (ت) : (اجتمعت) وفي (ج) : (اجتمعت)

(١١) في (ت) : (الحجا) . وفي (أ) : (والرجا) وفي (ج) : (والرجا)

(١٢) في (أ) : (له على)

(١٣) في (أ) : (مال)

بها على ترك الدنيا ويزهد بما فيها !! غير أن رجالاً منهم، فيما بلغنا^(١)، تأقت أنفسهم إلى النساء، فلما ذكروا ذلك استوحش منهم أنمتهم وقادتهم، فلم يكن من القوم إذ ذكروا النكاح نظر إليه دون أن يعرضوا أمرهم على أهل الفضل من أهل العراق . فلما وصل ذلك إليهم فزعوا منه وساء لهم ذكر^(٢) الشراة الذين باعوا الله أنفسهم للنساء وطلب الشهوات، فكتبوا إليهم : إنكم كتبتم إلينا تخبروننا عن الشراة أن أنفسهم تنازعهم إلى النساء، وهذا أمر عظيم ، غير أنهم إن لم يقدرُوا على الصبر فليعرض الفقير منهم نفسه على النساء المسلمات الصالحات ، فإن قبلته المسلمة بعشرة دراهم ينجزها إياها ولا يبقى لها عليه دين بعد العشرة فليتزوج، وإن صبر عن النساء فهو خير له ، فإن لم يقدر على وفاء حقها فلا يحمل على نفسه لامرأة ولا لأحد من الناس ديناً للذي طوق نفسه من البيعة وحمل على نفسه من الميثاق، فلما عرض القوم أنفسهم على النساء بذلك الشرط لم يقبل منهم إلا قليل منهم، فصبر القوم على ما لم يقووا له وقبلوا النصيحة واهتدوا بهدي أهل الفضل^(٣) واتبعوا أمرهم، ولو خالفوهم إلى ما نهوهم عنه، وكرهوا عليهم من ذلك ما كان لهم واسعاً . وكان المرء يرزق منهم في الشهر سبعة دراهم في غلاء من السعر فيصبر على القوت اليسير رغبة في الآخرة والثواب من عند الله^(٤) . وقد بلغنا أنه ربما بقي مع^(٥) الرجل منهم الدرهم والدرهمان فيتطوع بذلك الفضل فيرده في فيء المسلمين -رحمهم الله وجزاهم خيراً - مع ما أظهروا من السنّة،^(٦) وإدناء الجلابيب على النساء، ورفع الخمر فوق الأذقان، وستر النواصي، وسائر الزينة إلا الوجه والبنان، أما ما وراء^(٧) ذلك فهو حرام على من أبداه من النساء أو^(٨) نظر إليه من الرجال شهوة. والنطاق من تحت الدرع؛ إلا فقيرة لا تقدر على درع سابعة عليها^(٩)

(١) في (ت) : (فيما بلغنا) غير موجودة

(٢) في (ج) : (ذلك)

(٣) في (أ) : (واهتدوا بأهل الفضل) وفي (ج) : (واقتدوا هذا أهل الفضل)

(٤) في (أ) : (وكان امرأة منهم ترزق في الشهر سبعة دراهم في غلاء من السعر ، فتصبر على القوت اليسير)

(٥) في (أ) : (فضل من)

(٦) في (ت) : (والأمر بإدناء)

(٧) في (ت) : (أما ما وراء ذلك)

(٨) في (أ) : (و)

(٩) في (ج) : (فلها)

أن تتزر فوق درعها^(١) ونهى النساء عن الجلوس في السكك والخروج في يوم المطر أو الرياح العاصف، ورفع ذيول الرجال^(٢) وتقصير أشعارهم إذا أسبغت على العواتق، والإنكار^(٣) على أهل القبلة أن يتشبهوا بزى^(٤) أهل الذمة والإنكار على أهل الذمة أن يتشبهوا بزى أهل الإسلام، ونهى الرجال أن يبدوا ما فوق الركب^(٥) أهل فقه وأهل علم وحلم وتوددة^(٦) ووقار وسكينة ولب وعقل وبرٍّ ومرحمة^(٧) وصدق ووفاء^(٨) وتخشع وعبادة^(٩) وورع وتخرج وصلة ونصيحة ظاهرة مقبولة، لا يطمعون بمطامع سوء، ولا يتعاطون من الناس الحقوق، ولا يدخلون في خصومات الناس ولا يجتعلون^(١٠) على استخراج الحقوق، ولا يسترشون على طلب الحوائج التي تغنيهم^(١١) من أهل الرعية، ولا يستفضلون في الرزق على السعة^(١٢)، ولا يغتاب بعضهم بعضاً، ليس من شأنهم الغيبة ولا البغي ولا الحسد ولا التقاطع ولا التدابر ولا البغضة ولا شيء من أخلاق أهل الريبة^(١٣)، يحرصون على ما رابهم^(١٤) في الدين ومع أهل الدين ويكرهون العيوب، ويهجرون أخلاق الفجور والمعاصي.

(١) في (أ) : (على درع سابعة فلها أن تبرز فوق درعها)

(٢) في (ت) : (وأمر الرجال برفع ذيولهم)

(٣) في (ت) : (وأنكر)

(٤) في (ج) : (بهدي)

(٥) في (ت) : (وكانوا أهل)

(٦) في (أ) : (تودة) . وفي (ت) : (تودة وتودد)

(٧) في (ج) : (رحمة)

(٨) في (ج) : (ووقار)

(٩) في (ج) : (زيادة كلمة (وزهادة)

(١٠) في (أ) : (يختلون)

(١١) في (أ) : (تغنيهم)

(١٢) في (ت) : (أمر)

(١٣) في (ت) و (ج) : (الشبهة)

(١٤) في (أ) : (الزينة)

(١٥) في (أ) : (مآريهم) . وفي (ت) : (آدابهم) . وفي (ج) : (زانهم)

هم أنوار في الأرض وعود^(١) في الناس ، يعرفون بسيماهم. وكيف لا يكون كذلك مَنْ باع الله نفسه ينتظر حتفها صباحاً ومساءً!!؟ ليس لهم في شيء من الأمور ولا لأحد من الناس دنت رحمته^(٢) أو بعدت أو عظم خطره أو صغر^(٣)، أو ارتفع شأنه أو تواضع، هو^(٤) إلا ما وافق الحق مع ما لا يحصى من أخلاقهم الحسنة الجميلة التي زينهم الله بها في الدنيا، وترك عليهم الثناء الحسن الجميل في من خلف بأعقابهم^(٥)، حتى إذا خلفوا الدنيا وفتنتها وتركوا وراء ظهورهم ما فيها ، نزل بأقوام تسموا بعدهم بالإسلام فاعتقدوا الشرى في غير صدق أهله ، فركنوا إلى الدنيا ومال بهم الهوى إلى باطلها ، ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة . قال الله^(٦) : {فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} ^(٧) . فباعوا الكثير الباقي بالقليل الفاني، وصغر الدين في أعينهم وهان عليهم فأهانهم الله وأنزل بهم الخزي وألبسهم شيعاً وأذاق بعضهم بأس بعض ، فتركوا الدين ودعوة الدين وتداعوا إلى القبائل، وأدخلوا قومهم في أمرهم، ودانوا بالحمية والعصبية وعرضوا إلى أطماع الدنيا وباطلها وركنوا إلى الحياة الدنيا. فقد رأيتهم^(٨) كيف فعل الله بهم إذ بدلوا الدين ونكثوا البيعة ونقضوا الميثاق ، هتك الله^(٩) سترهم وفضحهم وسفك دماءهم على البغي والضلال والعمى والحمية^(١٠) وتواكل أهل الرجاء والتقية في الدين في أمرهم ، تركت النصائح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال الله^(١١) : {قُلْ لَّوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} ^(١٢).

(١) في (أ) : (وعونا) . وفي (ت) : (غرياء) . وفي (ج) : (غريا)

(٢) في (أ) : (رحمه)

(٣) في (ج) : (ضفرة)

(٤) في (ت) : (هوى)

(٥) في (ت) : (توقف عند هذه النقطة ولم يكمل بقية السيرة)

(٦) في (ج) : (الله تعالى)

(٧) التوبة : الآية (٣٨)

(٨) في (أ) و (ج) : (رأيتهم)

(٩) في (ج) : (ساقطة (لفظ الجلالة))

(١٠) في (أ) و (ج) : (الحمايا)

(١١) في (ج) : (جل من قائل)

(١٢) هود : الآية (١١٦)

فلما ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعث عليكم شراركم ، فقد رأيتم كيف دانوكم^(١) وكيف كانت سيرتهم فيكم وما أظهروا في الأرض من الفساد، وتعاونهم على الإثم والعدوان، وتناولهم على الناس بالمعاصي، حتى قطعت السبل واستحلت المحارم ونكحت الفروج حراماً ، وأهرقت دماء المسلمين بغير حلها، ودخلت البيوت بغير إذن أهلها، وأكلت أموال اليتامى ظلماً، وأموال الناس بالباطل، وحكم على الناس بغير ما أنزل الله، مع ما لا يحصى من جورهم وعداوتهم^(٢) ولؤمهم وسوء سيرتهم . لا ينظرون لدين ولا لدنيا ، ليس معهم من الدين شيء ولا من أخلاق ذوي الحفاظ ولا يغارون^(٣) لعربي إن اعتدى عليه علج منهم بسبيل أو حر ، ولا لعربية غلبها علج على نفسها حراماً ، حتى صار الناس لا يدرون من يثقون^(٤) ، إذ صارت الأمة أميراً^(٥) والعبد أميراً^(٦)، وسائر أتباعهم من أعرابي جاف^(٧) لا يعرف لأسباب الأمور طريقاً في دين الله ولا دنيا، ومقطع^(٨) من الناس لا يعرف له أصل ، ولا من أين مد إليهم بعد أن يتبع سبيلهم فهو ما من^(٩) الأمر في عشائهم وأهل رعيته بما لا تستطيع حمله السموات ولا الأرض ولا الجبال ، وهم وأتباعهم وبنو عمهم أخبث من الأتباع وأسوأ سيرة وسيبلاً .

ثم إن الله تبارك وتعالى ابتعث أقواماً من بار وفاجر فأظهرهم عليهم فأزال بهم النعل عن مملكتهم وما كانوا فيه ومكن للمسلمين دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم من الخوف

(١) في (ج) : (فكيف رأيتم كيف دانوكم)

(٢) في (ج) : (وعدوانهم)

(٣) في (أ) : (يعادون)

(٤) في (أ) : (يثقون) . وفي (ج) : (ما يثقون)

(٥) في (أ) : (أمينا)

(٦) في (أ) : (أمينا)

(٧) في (ج) : (عرابي حاف)

(٨) في (أ) و (ج) : (أو مقطع)

(٩) في (أ) : (ماض)

أمنّا، يبلوا^(١) بذلك أخبارهم ، ويمحص به من أرادته ارادة الخير وافلج^(٢) ويمحق الكافرين و {قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} ^(٣) . فقد كانت في القوم سير ما نعرفها في الدين ولا نقرأها في كتاب الله ولا نطأ^(٤) عليها ماثورا من سنة نبي الله -صلى الله عليه وسلم، ولا أثرأ من التابعين بإحسان، ولا يقول أحد من الثقة^(٥) في الدين والبصيرة في الأمور، والمعرفة بها ، والتخرج عن حرام الله وضع لهم تلك السير ، ولا كتبها لهم ولا دلّهم عليها . فقد اعترضت الأمور ^(٦) وأخذت بغير الحق واستحلت الغنائم من أهل القبلة ، وأخذت لأقوام^(٧) أيديهم ما ادعوا من الحقوق بغير حكم ، وأحرقت المنازل واشترت الامتعات، ولا يقول احد من الثقة^(٨)، واستعمل السفهاء واعتقد الشر^(٩) لعرض الدنيا وباطلها في غير صدق ولا حسن سمت، انتهكوا فيه ما زجر عنه غيرهم من نكاح النساء بالكذب وموعد الباطل حتى استحلت فروج النساء بما يعاب على اليهود والنصارى، فمن^(١٠) بعدهم من أهل الكفر والمعاصي. وبعث في الصدقات غير أهل الثقة، واستعمل أقوام أنفسهم بغير إذن الأنمة في طلب الدنيا والحرص على جمعها، وأخذت الصدقات بحقها وبغير حقها، وقسمت في غير أهلها، وقال الله : {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) في (أ) و (ج) : (يتلو)

(٢) في (أ) و (ج) : (منهم)

(٣) الأعراف : الآية (١٢٩)

(٤) في (ج) : (يطا)

(٥) في (أ) و (ج) : (ولا نقول أن أحد من أهل الثقة)

(٦) في (أ) : هذه الجملة ساقطة (والمعرفة ... اعترضت الأمور)

(٧) في (ج) : (الأقوام)

(٨) في (أ) و (ج) : هذه الجملة ساقطة (ولا يقول أحد من الثقة ...)

(٩) في (أ) و (ج) : (الشراء)

(١٠) في (ج) : (فيمن)

وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١)

غير أنه قد استقام الحديث على ترك سهم المؤلفة قلوبهم وسهم المساكين من أهل الكتاب، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم من الجزء الذي يؤخذ من أغنيائهم. واستقام قسم الصدقات على ستة أسهم للفقراء سهم، وسهم للعاملين عليها، وسهم في السبيل، وسهم لأبناء السبيل، وسهم في الرقاب، وسهم للغارمين. فمن شهد الصدقة فيما بين الثمرتين، من ابن سبيل أو غارم أو شارع في رقبة (٢) على قدر غرمهم وضعفهم وبعد سعيهم (٣)، فإن فضل من هذه السهام (٤) شيء إلى دراك ثمرة أخرى، رد الفضل فقسم على ثلاثة أسهم: للفقراء سهم وفي السبيل سهمان. فترك ذلك وجمع في ثلاثة أسهم غير ما فرض الله في كتابه. وذهب بصدقة البحر رأساً فحرمها الفقراء، وابن السبيل، والغارمين، وفي الرقاب. وصدقة البحر والسواحل لا تحل على غير الحماية والكفاية والزيادة عن حمى الله، وخمسون علجاً في مركبين قطعوا سبيل البحر فيما بين البصرة وغروب عمان، وجاسوا سرب أهل البر وأخرجوهم من صياصيتهم ومعاشيتهم ومنافعهم، والسعاة في الصدقات رصداً لهم إنما ينظرون ما صفا (٥) لهم فيأخذون منه الصدقة ويتركون ما كدر عليهم. و (٦) سلب العدو وسبي وقتل لا يطلبهم طالب ولا يتهياً (٧) لهم منهى (٨)، ولا ينفق في طلبهم مال، ولا تبذل فيه قوة، ولا يوجف عليهم خيل ولا ركاب (٩) مصنعة (١٠) السواحل من عساكر المسلمين مرغد

(١) التوبة : الآية (٦٠)

(٢) في (ج) : (اعطوا)

(٣) في (ج) : (سعيهم)

(٤) في (ج) : (السهام الثلاثة)

(٥) في (ج) : (صفي)

(٦) في (أ) و (ج) : (وقد سلب)

(٧) في (أ) و (ج) : (يتهين)

(٨) في (ج) : (منتهى)

(٩) في (أ) : (ولا مصنعة)

(١٠) في (ج) : (ولا ركاب مضبغة)

(١) حماه الله أن يذاد عنه^(٢)، وإنما الجهد والعمل في طلب جمع الصدقات لتؤكل بغير حقها، واحد يرزق ثلاثين كل شهر وآخر عشرين وآخر عشرة. والبقية كل واحد عشرة لا يزداد^(٣) عليها. وذلك أن الرجل والنفر من الشراة يبعثون إلى بلد من غروب^(٤) عُمان أو شروقتها^(٥) فيكرونها^(٦) أو يزداد لهم في الرزق، فيرون^(٧) تلك الزيادة الذين خرجوا، زعموا جهاداً في سبيل الله وابتغاه مرضاته!! ويطلب المرء البيعة على الشراء وعليه عشرة دينا أو أقل أو أكثر فيكره حتى يقضي دينه، فيذهب فيقضي ما كان عليه ثم يبايع على الشرى، حتى إذا اعتقد عليه الشرى عمد إلى امرأة غنية فقبل لها بثمانين نخلة وشرىها^(٨) وثلاثمائة درهم أو أقل أو أكثر وبأربعة وصفا، وليس وراء ظهره شيء فمضى لهم ذلك وتركوا عليه، ولم ينزلوا حيث أنزلوا أنفسهم، فما حرم عليهم دين عشرة دراهم قبل الشراء^(٩) وأحل له قيمة ثلاثة آلاف درهم أو أكثر بعد الشراء، مع أشياء لا تحصى من رغبة أنفسهم وشحها واختلافهم فيما بينهم وتشتيت أهوانهم وقلة بصرهم وشدة عماهم، وأخذ القربان من الناس، الفقير منهم والغني، من بعد أن يفرض^(١٠) عليهم دراهم ثم يؤخذوا بها جبراً، وأخذ أقوام الحقوق لأنفسهم بلا وزن يعرف ولا عدد يحصى ولا كيال ولا قيمة ولا بصيرة إلا الحراف^(١١) على الظن والهوى، فهل لهذا مدة أو انصرام، أو يعرف ميقات هذا وغايته؟! فانظر رحمك

(١) في (أ) : (من عد) . وفي (ج) : (من عد حما الله)

(٢) في (ج) : (أن لا يذاد عنه)

(٣) في (أ) : (يزال) . وفي (ج) : (والتقية لعله أراد والنفقة ...)

(٤) في (أ) : (غرب)

(٥) في (أ) ، (ج) : (شرقها)

(٦) في (أ) : (فيكرونها) ، وفي (ج) : (فيكرونها لعله أراد فيكرونها)

(٧) في (أ) و (ج) : (فيرشون)

(٨) في (أ) و (ج) : (وشرىها)

(٩) في (أ) : (أو أحل)

(١٠) في (أ) : (يعرض)

(١١) في (أ) : (الجراف)

الله فيما كتبت إليك به، فإن يكون الذي عبت من هذا ونقمت عيباً أو نقماً تبصر^(١) وجهه فاتق الله وردّ الأمور عن الجور والعدوان إلى قصد السبيل، فإنه خير لك في المعاد وأوضح لعذرك وأوفق للحق معك. واعلم أن الوهن والتقصير وتآلف الناس على ما لا يوافق الحق لا يزيد في الرزق ولا يمد في العمر ولا يزيد لأهله إلا مقتاً ووهناً وخساراً. وإني لخائف إن لم تقبلوا الذي ساق الله إليكم بشكر، وتأخذوه بقوة وتمضوا فيه لأمر الله، وتعملوا فيه بفرائض الله، أن تكون عاقبة ترك ما تركتم وتضييع ما ضيعتم منه ووهن وهنتم منه، ذلاً وصغاراً، وأن يكون الذي نقمت وعبت ليس بعيب وهو لكم واسع في الدين، فاكتبوا إلينا ببيان توسيعه في كتاب الله وسنة نبيه وسنن المسلمين قبلنا، فإنه يوطأ ما أثرنا بأعقابنا كما وطننا عن القوم الذين خلوا قبلنا ما أثروا لنا بأعقابهم.

واعلم أن الذي كان مما كتبت إليك به ونقمت وعبت ردّ عنا هداة المسلمين من اليمن وخراسان وغيرهم وحولهم^(٢) أن أنكروا ما لا يعرفون، والذي أنكروا إن شاء الله منكر فإن عرفت صوابه ووثقت من نفسك ومن أتباعك ووزرائك بالاستقامة عليه، فالتوبة خير لنا ولكم من الإصرار على الذنوب والمضي على القبيح، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وإن استقام على المسير معك في الأرض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فابدهوا بمن معكم ممن تعرفون خطاه وسوء سيرته من سائر وقاعد، فاعملوا فيه بالصلاح ومراجعة الحق وترك الباطل. وإياك أن تكثر بمن يشين^(٣) ولا يزين، ويفسد ولا يصلح، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين. نسأل الله أن يتولانا وإياك بما تولى به المتقين، وأن يردنا وإياكم إلى الحق^(٤) وأهل الحق، وجمعنا وإياك عليه، ويهدينا وإياك لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إن الله رءوف رحيم.

(١) في (أ) : (ببصرة)

(٢) في (ج) : (وحق لكم)

(٣) في (ج) : (يسير معك)

(٤) في (ج) : (وإلى أهل الحق)

فإذا استعنتم^(١) أنفسكم ومن معكم واستقامت أموركم على ما مضى عليه من كان قبلكم من أسلافكم، واستقام على المسير مبارك^(٢) بن جعفر، وسليمان بن عثمان، والحكم بن بشير، ومسعدة بن تميم، والأزهر بن علي، وعلي بن عزرة، وجعفر بن زياد، وعبدالله بن أبي قيس، وعبدالله بن نافع، ورايس بن يزيد^(٣)، وأبو مالك بن هزير، والأشعث بن محمد، والأزهر بن عبد الملك، وعبد العزيز بن عبدالرحمن، وضرباؤهم من المسلمين فاكتب إلينا فيأتيك من أحببت منا وكرامة لك ونعم^(٤) عيين، فإن عرفتم حقه ورفضتم به، فكيف تدعون الناس إلى الحق وأنتم تاركون !! وإن كرهه نفر الذين سميت لك في الكتاب السير^(٥) فنحن أضعف عنه وأبعد داراً وأكثر ديناً، وأشد حاجةً إلى المقام في صنعتنا^(٦) ومعاشنا، ولو خلونا ما سرنا^(٧) إلا معهم وإن عرفنا فضله، لأننا نرهب تغير الناس وشروهم^(٨) فذلك الذي يردعنا عن المسير وإن كنا عنه ضعفاء، عافانا الله وإياك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. (تمت الرسالة)^(٩)

(١) في (أ) : (استعتم) وفي (ج) : (استعتم)

(٢) في (ج) : (منازل)

(٣) في (أ) : (نويد) وفي (ج) : (راشد بن يزيد)

(٤) في (أ) : (ونعمة)

(٥) في (ج) : (المسير)

(٦) في (أ) و (ج) : (ضيقتنا)

(٧) في (ج) : (إضافة هذه العبارة (تمت الرسالة))

(٨) في (ج) : (وشروهم)

(٩) في (ج) : (وحق لكم)

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. الأزكوي: سرحان بن سعيد، كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق: محمد حبيب صالح، محمود بن مبارك السليمي، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، سنة: ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م، ط١.
٣. البطاشي: سيف بن حمود بن حامد، اتحاف الأعيان في بعض تاريخ علماء عمان، مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان قابوس للشؤون الدينية والتاريخية، سلطنة عمان، سنة: ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ط٢.
٤. الجعلاني: المنير بن النير، سيرة العلامة المنير بن النير إلى الإمام غسان بن عبدالله، نسخة من مخطوطة من مقتنية من مكتبة جامعة لفوف، الأوكرانية (The Library of the University of Lwów)، تحت رقم: (II١٠٨٢)، وهي ضمن مجموعة مخطوطة بعنوان «تَجَارَةُ الْعُلَمَاءِ وَالسَّيَرُ الْعُمَانِيَّةُ». منسوخ سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م.
٥. الجعلاني: المنير بن النير: نسخة من مخطوط سيرة العلامة المنير بن النير إلى الإمام غسان بن عبدالله، نسخة من مقتنيات مكتبة جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان.
٦. الراشدي: مبارك بن عبدالله بن حامد، الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي وفقهه، سلطنة عمان، سنة: ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ط١.
٧. ابن رزيق: حميد بن محمد، الصحيفة القحطانية، تحقيق: محمد حبيب صالح، محمود بن مبارك السليمي، علال الصديق الغازي، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، سنة: ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ط١.
٨. -----: الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين، تحقيق: عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان سنة: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ط٥.
٩. السالمي: عبدالله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، مكتبة مسقط، سلطنة عمان، سنة: ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
١٠. السعدي: فهد بن علي بن هاشل، معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية، (قسم

- المشرق)، مكتبة الجيل الواعد، سلطنة عمان، سنة: ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، ج ٣.
١١. السليمانى: عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالله، مدينة نزوى في عهد الإمامة الإباضية الثانية، النادي الثقافي، سلطنة عمان، سنة: ٢٠١١م، ط ١
١٢. السيابي: سالم بن حمود بن شامس، عمان عبر التاريخ، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، سنة ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م
١٣. العوتبي: أبو المنذر سلمة بن مسلم، الأنساب، تحقيق: محمد إحسان النص، وزارة التراث والثقافة، سنة: ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ط ٤، ج ١، ص ٢٦٨. ج ٢.
١٤. الكندي: محمد بن إبراهيم: بيان الشرع، تحقيق: سالم بن حمد الحارثي، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، سنة: ١٩٨٤م.
١٥. الكندي: أحمد بن عبدالله، المصنف، تحقيق: عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، سنة: ١٩٨١م،
١٦. مجموعة مؤلفين: السير والجوابات، تحقيق: سيدة إسماعيل كاشف، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، سنة: ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م، ط ٢.
١٧. ابن مداد: سيرة العلامة المحقق عبدالله بن مداد، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، سنة: ١٩٨٤م، العدد ٥٦، سلسلة تراثنا.
١٨. الندابي: ناصر بن علي، الإمامة الإباضية في اليمن وامتداد نفوذها إلى الحجاز، رسالة ماجستير للباحث في مجال التاريخ، من جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان، بحث غير منشور.
١٩. الندابي: ناصر بن علي، العلاقة الثقافية والاجتماعية بين عمان وبلاد المغرب في العصر الإسلامي الوسيط، جامعة مولاي إسماعيل، المملكة المغربية، رسالة دكتوراة في التاريخ الإسلامية غير منشورة.
٢٠. هاشم: مهدي طالب: الحركة الأباضية في المشرق العربي، دار الحكمة، لندن، سنة: ٢٠٠٩، ط ٣.

الأخلاق والقيم في السير الإباضية

كتاب طبقات المشايخ بالمغرب للدرجيني نموذجاً

د. يحيى بن بهون حاج امحمد
أستاذ محاضر بجامعة غرداية/الجزائر
yahiabenbouhoun@yahoo.fr

الملخص

لقد كان من سير "العزّابة" ولا يزال العناية الكبرى بالأخلاق والقيم، أين تتجلى أسمى معاني القدوة الحسنة في المجتمع، وإليهم يُشار بالبنان في كل مكان وزمان؛ ومما اشتهر به "العزّابة" التورع عن ما في أيدي الناس، والأكل من عرق الجبين، والزهد عن الكماليات ومُتّع الحياة الزائفة...؛ ومن فضائلهم أيضاً إجلال أهل الحق والتقوى، وعدم موالة من حاد الله ورسوله، وأنهم ينقطعون للعلم والمطالعة معظم أوقاتهم، ويقومون على رعاية شؤون الخلق ويحسنون حتى لمن أساء إليهم...؛ إلى غير ذلك مما يُبرز القيم المثلى والصفات الفضلى في معاملاتهم ومعاشرتهم للناس، وهم في ذلك من قبس القرآن يستوفدون ومن أنوار النبوة يستهدون.

وقد أوردت كتب السير الإباضية أخباراً كثيرة ومواقف عديدة تصف أخلاق وشيم "العزّابة"، ومن أهم تلك التآليف والمصنّفات نجد كتاب "طبقات المشايخ بالمغرب" لأبي العباس أحمد بن سعيد للدرجيني (ت: ٦٧٠ هـ)، الذي يعدّ أحد أهم مصادر السير الإباضية وأشرفها، وهو حافلٌ بذكر أخبار السلف الصالح من أهل الدعوة والاستقامة، ومع مرور الزمن وتبدّل الطبائع تزداد حاجة بني الإنسان عموماً والمسلمين خصوصاً إلى التمسك أكثر وأكثر بالقيم والفضائل كي تستقيم شؤون حياتهم التي تتسارع وتيرتها يوماً بعد يوم؛ وفي ذلك يسعى "العزّابة" إلى غرس القيم والفضائل في نفوس الشباب والناشئة؛ انطلاقاً من تجسيد القدوة الحسنة وتدريس كتب السير واستخراج ما فيها من الرقائق والأخلاق بما يعزز في نفوس الناشئة قيم التواضع والعفاف والرغبة في طلب العلم... إلخ؛ والدعوة إلى كل ما يُحيي القلوب ويربط ماضي السلف بحاضرنا

اليوم ويستشرف المستقبل الواعد بحول الله.

من هنا جاءت فكرة هذا البحث والذي تتلخص أهم محاوره حول النقاط الآتية، وهي:

١- الملخص.

٢- الدرجيني حياته وآثاره.

٣- بين يدي كتاب "طبقات المشانخ بالمغرب".

أ- موضوع الكتاب وأبوابه.

ب- منهج المؤلف في الكتابة.

ج- القيمة العلمية للكتاب.

٤- الأخلاق والقيم في كتاب طبقات المشانخ.

٥- نماذج من سيرة العزابة في كتاب طبقات المشانخ.

٦- ما يستفاد من ذكر مجموعة القيم والأخلاق.

٧- الخلاصة والتوصيات.

٨- قائمة المصادر والمراجع.

• الدرجيني حياته وآثاره

هو أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يـخلف الدرجيني (أبو العباس) (توفي حوالي:

٦٧٠هـ / ١٢٧١م)؛ من أشهر علماء درجين ببلاد الجريد، جنوب تونس، واحد من العلماء الخمسة

في سلسلة نسبه، كلهم علماء نحارير.

تلقى تعلمه الأول بدرجين، ثم رحل إلى وارجلان سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م، وأخذ العلم عن الشيخ

أبي سهل يحيى بن إبراهيم بن سليمان لأعوام، ثم عاد إلى موطنه درجين.

فقيه ومؤرخ وشاعر، وكان إماماً قدوة؛ له قصائد كثيرة وشعر فائق، وله أجوبة بالشعر، والغاز في الفرائض؛ وقد ذكر في بعض قصائده أنه أنشدها قبل البلوغ؛ وجمع بعض قصائده أبو طاهر إسماعيل بن موسى في كتاب الفرائض والحساب.

بالإضافة إلى فقهه، وقوة لغته وبلاغته وشعره، فهو مؤرخ من المحققين، لم يكتف بنقل ما سبقه إليه غيره من كتّاب سير الإباضية، وإنما أبدع منهجاً جديداً في كتابة السيرة الإباضية، وهو منهج الطبقات، إذ وضع في ذلك مؤلفه المشهور: «طبقات المشايخ بالمغرب» في جزأين، وجعل كل طبقة خمسين سنة، بدأ بالطبقة الثانية (٥٠ - ١٠٠ هـ/ ٦٧٠-٧١٨ م)، ولم يتكلف الكتابة في الطبقة الأولى، لأنها في اعتقاده أشهر من أن يضيف إليها شيئاً، ولذلك جاء أبو القاسم البرادي بعده بقرنين تقريباً (حي ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧ م) ليكتب: «الجواهر المنتقاة فيما أخل به كتاب الطبقات»؛ وهو من وراء كتابه هذا يهدف إلى تبيين أن هذا الدين ورد إلينا بالتواتر، جيلاً عن جيل، وطبقة عن طبقة؛ والحقيقة أن طبقات الدرجيني مجموعة من السير والتاريخ والفقه، وهو مفيد في تاريخ الإباضية بالمغرب، فيه معلومات قيمة عن واحات ورجلان وأريغ بثقرت، ووادي سوف، وجربة، وجبل نفوسة... وغيرها. وتعتبر «طبقات الدرجيني» أحد المصادر المهمة لصناعة معجم أعلام الإباضية، لما حواه من التواريخ الدقيقة^(١).

• بين يدي كتاب «طبقات المشايخ بالمغرب».

أ- موضوع الكتاب وأبوابه.

كتاب طبقات المشايخ بالمغرب؛ حلقة رئيسية في التعرف على أعلام وتاريخ المذهب الإباضي بالشرق والمغرب، من القرن الأول الهجري إلى القرن السابع منه، إذ الباحث أو الدارس للتاريخ في المغرب الإسلامي القديم لا يمكن أن يستوفي تفاصيله إلا بالاطلاع على مادة هذا الكتاب.

ويبدأ المؤلف كتابه بشرح بعض المصطلحات التي يتردد استعمالها في الكتاب وبخاصة

(١) معجم أعلام الإباضية؛ مجموعة من الباحثين، نشر جمعية التراث، غرداية - الجزائر، ط١، ١٩٩٩، ج ٢، ص ٨٩.

مصطلحات: "العزّابي"، و"الختمة"، و"الهجران"...؛ ثم يذكر بإجمال طبقات المشايخ وتسمية المشاهير منهم بما يشبه فهرساً عاماً لمادة كتابه؛ ثم يذكر أول الدعاة لمذهب الإباضية ببلاد المغرب، كما خصّص فصلاً ذكر فيه فضائل الفرس والبربر.

ليشرع في صلب الموضوع منطلقاً من الحديث عن حملة العلم الخمسة إلى المغرب، ثم إمامة الرستميين بتيهرت، ثم موقعة مانو الشهيرة وانقراض الإمامة بسببها، ووصول الدعوة العبيدية الشيعية وانتشارها بأرض المغرب، وتفاصيل أخرى عن ثورة أبي يزيد مغلّد بن كيداد، ثم يذكر شيئاً من أخبار أبو يزيد بن مغلّد وأبو خزر يغلى بن زلتاف الوسيانيين، كما يذكر شيئاً من أخبار أبي مسور بن يوجين اليراسني وابنه أبو زكرياء.

ويأتي بعد إلى ذكر تفاصيل بديعة وفريدة سماها: "لمع من سير الحلقة، وما ينبغي لأهل طريق العزّابة أن يلتزموه ويعلموه مما رتبته الشيخ أبو عبد الله^(١)؛ وفيه: هيئة لباس العزّابة من أهل الحلقة، والمهام التي يتولاها الشيخ، وأدب العزّابة في العبادة، وكذا أوقات الدراسة والنوم... إلخ؛ هذا بالنسبة للجزء الأول من الكتاب.

أما الجزء فقد خصصه المؤلف لذكر سير أعلام الإباضية طبقات طبقات من الخمسين الثانية إلى عصره هو.

ب- منهج المؤلف في الكتابة.

في التقديم الذي وضعه الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي _البكري_ لتحقيق كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، حديث حسنٌ ومستفيضٌ عن مادة الكتاب ومنهج مؤلفه فيه؛ منه قوله: "...ذكر المؤلف في صدر الكتاب أنه قد قسمه إلى جزئين، جزء التاريخ وجزء السيرة، كما قسم كلَّ قرنٍ _على غرار أبي عمار عبد الكافي_ إلى طبقتين: الخمسين الأولى والخمسين الثانية،

(١) محمد بن بكر بن يوسف الفرستائي النفوسي (أبو عبد الله)؛ (و: ٣٤٥هـ / ٩٥٦م - ت: ٤٤٠هـ / ١٠٤٩م)؛ أحد أقطاب الإباضية في المغرب؛ وصفه الدرجيني بقوله: «هو الطود الذي تضاعلت دونه الأطواد، والبحر الذي لا تقاس به الشاد»؛ وهو خصمٌ عظيم من جلائل السير والأثار، ولد بفروسطاء بجبل نفوسة؛ ثم تنقل بين عدّة مدن للاستزادة من الفنون على يد أكابر العلماء في زمانه. سافر إلى قسطنطينية بحثاً عن أبي عمران موسى بن زكرياء، ليأخذ عنه الفقه والفروع، إلا أن وفداً من جربة اضطروه إلى التحول من مرحلة التعلم إلى مرحلة التعليم وتأسيس حلقة العزّابة. وقد تميّز أبو عبد الله بتأسيسه لنظام هو الآلية بين النظم الاجتماعية «نظام حلقة العزّابة»...؛ ينظر: معجم أعلام الإباضية؛ ج ٤، ص ٧٧٢.

وقد سَدَّ بهذا التقسيم ثغرة طالما شكها الباحثون، هي خلو المراجع الأولى غالباً من تاريخ الميلاد أو الوفاة، فغداً مُبهماً لذلك عصرُ كثيرٍ من رجال التاريخ على الباحثين، فكان في طريقة الدرجيني تخفيفٌ من منونة البحث، وحصرٌ لعصر كلٍّ من ترسَّم خطى أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر اليراسني الورجلاني في سيره، قدماً بقديم، بيد أنه فصلٌ ما أجمله أبو زكرياء في سيره...^(١).

إذا فالجزء الأول من الكتاب قد خصصه المؤلف للحديث عن نشأة المذهب الإباضي ودخوله بلاد المغرب، وقد فصل في ذكر مناقب الدولة الرستمية وسيرة أئمتها، من النشأة إلى السقوط على يد العبديين سنة ٢٩٧ هـ.

ثم أعقب الحديث عن محاولات الإباضية لإعادة الإمامة والتي باءت جميعها بالفشل؛ ولعلَّ أشهرها ثورة أبي خزر يغلا بن زلتاف^(٢)، وأبي نوح سعيد بن زنگيل^(٣)، ثم الانصراف في التفكير والتخطيط لمسعى جديد يحافظ على جذوة المذهب وسط أمواج الفتن المتلاطمة على بلاد

(١) أبو العباس الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، ط ٢، د.ت، المقدمة، ص: ل، م.

(٢) يغلا بن زلتاف الوسياني (أبو خزر)، (ت: ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م)؛ من كبار علماء الإباضية، برع في علم الكلام، وانفرد فيه بآراء متميزة. وهو من أبناء الحامة من بلاد الجريد بالجنوب التونسي، إذ كانت في عهده أهلة بالإباضية؛ نشأ بها وتلقَّى العلم عن جُلَّة علماء عصره، تصدَّر هو وزميله أبو القاسم يزيد بن مخلد اليهراسني للتعليم، فبعداً حلقات وقصدهما الطلبة من مختلف مواطن الإباضية بالمغرب. انتهجا طريقة المدرسة المتنقلة بين أحياء مزاتة، ومن تلاميذه: أبو نوح سعيد بن زنگيل، وأبو زكرياء فصيل بن أبي مسور اليهراسني؛ ترك كتاباً بعنوان: «الردُّ على جميع المخالفين» ولعلَّه أقدم كتاب إباضي مغربي في علم الكلام بعد الدينونة الصافية، وصلنا كاملاً، وقد حقَّقه الدكتور عمرو خليفة النامي ١٩٧٦ م؛ ينظر: معجم أعلام الإباضية؛ ج ٤، ص ١٠٠١ وما بعدها.

(٣) سعيد بن زنگيل (أبو نوح)؛ (أوائل ق: ٤ هـ / ١٠ م)؛ شيخ الشيوخ سعيد بن زنگيل، أحد أقطاب العلم عند إباضية المغرب، نشأ وسكن بالجريد بتونس، ثم استوطن وارجلان بالجزائر؛ يعدُّ حلقة بارزة في سلسلة نسب الدين، فهو شيخ العلامة الإمام أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي، جاء في نسبة الدين مايلي: «أخذ... أبو عبد الله محمد ابن بكر عن الشيخ أبي نوح سعيد ابن زنگيل عن أبي خزر يغلي بن أيوب وزلتاف أمه...». برع في علوم الفصاحة والبيان وفنون الجدل والردُّ على المخالفين... كانت له مناضرات مشهورة، خصَّ بها علماء المعتزلة والكار، على حدِّ سواء، فكان كثير التنقل يدعو إلى مذهب الإباضية الوهبية؛ ينظر: معجم أعلام الإباضية؛ ج ٣، ص ٣٦٤ وما بعدها.

المغرب، فكان ميلاد فكرة نظام الحلقة على يد أبي مسور^(١)، ثم وضع أسس هذا النظام على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني، والذي عُرف بنظام الحلقة أو "حلقة العزّابة"^(٢)، وقد فصلّ الدرجيني في معالم هذا النظام وقوانينه في آخر الجزء الأول من كتابه، وذكر أشياء مهمة عن دور الحلقة في رعاية الشؤون الدينية والاجتماعية لإباضية المغرب.

وفي الجزء الثاني صنّف الدرجيني أعلام الإباضية إلى طبقات، وجعل كل طبقة في خمسين سنة، وقد بدأ بالصدر الأول إلى عصر المؤلف، وبلغت بمجموعها اثني عشرة طبقة، انطلق من الطبقة الثانية (٥٠ - ١٠٠ هـ / ٦٧٠ - ٧١٨ م)، ولم يتكلّف الكتابة في الطبقة الأولى، لأنها في اعتقاده أشهر من أن يضيف إليها شيئاً، ولذلك جاء أبو القاسم البرّادي^(٣) بعده بقرنين، فكتب "الجواهر المنتقاة فيما أخلّ به كتاب الطبقات"، محاولاً استدراك ما أغفله الدرجيني في طبقاته، وإن كان الأجدر بالبرّادي أن يترجم لعصره ومصره هو لا أن يكتب السير المشرقية؛ فقد فصلّ المشاركة في ذكر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بما لا مزيد عليه. وقد بيّن المؤلف أي الدرجيني بأمانة ونزاهة بأنّه استقى مادة الجزء الأول من كتابه؛ من كتاب "السير وأخبار الأئمة" لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني، لذا فإنّ التطابق واضح بين الكتابين، أما الجزء الثاني فيعدّ تأليفاً مستقلاً للدرجيني. كما استقى مادة القسم الأول من الجزء

(١) زكرياء بن فضيل بن أبي مسور يسجا بن يوجين اليراسني (أبو يحيى)؛ (ت: ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م)؛ من أفذاذ علماء جربة بتونس، وهو ابن علماء، فأبوه عالم مشهور، وأسرته في العلم ذات ظهور. عالم ذكي، سخيّ علماً ومالاً، تلقّى العلم في جربة عن والده أبي زكرياء فضيل في الجامع الكبير، وحضر دروس العلماء والمشايخ الموجودين في زمانه، ثم أرسله والده ليتعلّم عند الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي الفرسطاني في أريخ، فكان بذلك النواة الأولى لحلقة العزّابة، وبفضله وبفضل أقرانه - تلامذة الشيخ أبي عبد الله - تأسّس نظام العزّابة بجربة، ولعلّه أوّل عزّابي فيها. اشتغل بالتدريس؛ ثمّ حمّله أهل جربة على تولّي رئاسة الحلقة؛ وظلّ رافعاً مشعل العلم طيلة النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بجربة، إذ توفّي أكثر مشايخ جربة، وبقي وحيداً في المجتمع، ومع تقدّمه في السنّ كان يجول بحماره كلّ جمعة مع الفتّيان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، معلّماً للسير ومميّناً للبدع... فركّز مبادئ الإباضية في قبيلة مزاتة؛ ينظر: معجم أعلام الإباضية؛ ج ٢، ص ٣٣٤.

(٢) تفصيل تاريخ نظام الحلقة وسير أئمتها، موضوع كثير من الدارسين والباحثين منهم: د. فرحات الجعبري، وأ. صالح بن عمر سماوي... وآخرون.

(٣) أبو الفضل أبو القاسم ابن إبراهيم البرادي الدّمري؛ (حي في: ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م)؛ ولد بجبل دشر في الجنوب التونسي، المعروف حالياً بجبل الحواية. درس في مسقط رأسه، ثمّ انتقل إلى جزيرة جربة حيث تلقّى العلم عن شيوخها، وانتقل بعد ذلك إلى يفرن بجبل نفوسة وتلمذ على الشيخ أبي ساكن عامر بن علي الشماخي. فأصبح شيخاً وعالماً فقيهاً. ثمّ رجع إلى دشر، ومنها إلى جربة حيث بدأ في نشر العلم، فتولّى التدريس؛ كما تولّى رئاسة حلقة العزّابة. وقد ترك البرادي مؤلّفات عدّة، أشهرها «الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطبقات»، (مط)، وهو في سير أعلام الإباضية، وذكر الطبقة الأولى - التي أغفلها الدرجيني في طبقاته - (١-٥٠ هـ)؛ ينظر: معجم أعلام الإباضية؛ ج ٤، ص ٧٠٨ وما بعدها.

الثاني والذي خصصه لتراجم إياضية المشرق، من كتاب "سير محبوب بن الرحيل" المعروف بكتاب أبي سفيان؛ وهو كتاب مفقود في العصر الحاضر، فلولا التلخيص الذي أورده الدرجيني في هذا القسم من طبقاته لما سمعنا بهذا الكتاب

ولا عرفنا مادته ومحتواه؛ كما استفاد الدرجيني من منهجية الشيخ أبي عمار عبد الكافي في تقسيم الطبقات -خمس سنين لكل طبقة- وقد ذكر ذلك بنفسه؛ كما أفاد كثيراً من كتاب "سير الوسياني" فهو الجامع لأثار السلف وبخاصة الروايات التي وصلت بالتواتر.

ومما يزيد في قيمة الكتاب ومن قيمة صاحبه ما يدلّك من جليل أمانته العلمية في النقل والتثبت من صحة الأخبار والآثار، وهو كثير في الكتاب، من ذلك قوله حين ترجم للشيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، وقصيدته الحجازية: "...ومما يدلّك على سعة ما عنده من هذه الفنون^(١) قصيدته الحجازية المتطاوله، فإنه أودعها فصولاً على ما ذكرته من ذلك أبياتها عدد أيام العام، بدأ فيها بغزل رقيق، ثم الرحلة عن وارجلان، والتنبيه عن من صاحبهم في ذلك الركب وذكر الطريق منزلة في سيرهم حتى وصلوا، وذكر المناسك، ثم فعل كذلك حتى خرج، ثم خرج إلى شيء من علم الحدثان، ثم وعظ أحسن وعظ وتذكير، ففيها ما يشهد له باتساع الفن، فكنت اعتقدت أن أودعها هذا الكتاب^(٢)، وأشرحها إجابة لرغبة من رغب إلى ذلك، لكن منعنتي العجلة في تعليق هذا الكتاب، وكوني أيضاً لم أجد من يرويها عن أبي يعقوب فأرويها عنه على صحة وأعرف مقاصده فأحذو حذوها، ولعمر الله إن فيها لفوائد كثيرة..."^(٣).

ج- القيمة العلمية للكتاب.

يتجه الدرجيني في كتابه الطبقات فيما يكتب وفيمن يُترجم له إلى ناحية معيّنة هي ناحية الإخلاص للعقيدة، والالتزام بمبادئ الإسلام وأحكامه ويُعرض عما سوى ذلك، ويصور فيهم مدى ما وصلت إليه التضحية ونكران حظوظ النفس لديهم، وما قاموا به وعاشوه لنصرة هذه المبادئ وإشاعتها، فهو من هذه الناحية يقوّي في القارئ المؤمن الجانب الروحي والأخلاقي، ويحثه على

(١) يقصد به فنون الشعر وعلم اللغة.

(٢) يعني كتابه المشهور "طبقات المشائخ بالمغرب".

(٣) الدرجيني، طبقات المشائخ، ج ٢ ص ٤٩٤-٤٩٥.

التمسك بالقيم الإسلامية والتضحية لأجلها^(١).

ومما يميز الكتاب أيضاً جهد مؤلفه في التأريخ والنقد وتمحيص الأخبار... وفي ذلك يقول الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي (البكري): "...على أننا إذا تصفحنا الكتاب لا نجده يقتصر على ذلك، بل يسير على نهج علماء السير السابقين، لا تخلو تراجمهم من استطرادات مهمة، ومحاورات علمية قيّمة، لاسيما إذا كانت تتصل بالمرجع له مباشرة، أو بسبب قريب الأمر الذي كانت به كتب التراجم مشحونة بالأبحاث العلمية، وقد يشغل مجموعها أحياناً الحيز الأكبر من الكتاب، ولذا نجد مصنفاً كثيراً ما يسوق مسألة ثم يكرّ عليها جرحاً وتعديلاً، وأخيراً يقرر فيها القول المعتمد...؛ وهكذا ينتقل بنا من تاريخ إلى سيرة، إلى مسائل شرعية وبيان أحكامها، إلى غير ذلك مما يجعل الكتاب سائغاً مستساغاً..."^(٢). كما تكمن أهمية الكتاب في مجموعة المصادر التي أُلّف منها الدرجيني كتابه الطبقات، فقد عُرف من سير أبي زكرياء والذي يذكره عادة بلفظ "قال الشيخ رحمه الله"، وأبو زكرياء يسبق الدرجيني بحوالي قرنين من الزمن، وقد توفي حوالي (٤٧١هـ) أو (٤٧٤هـ)، كما استقى بعض مادة كتابه الأخرى من كتاب سير أبي سفيان محبوب بن الرحيل^(٣)، وقد كان الإمام أفلح بن عبد الوهاب يوصي الناس بقراءة هذا الكتاب لاستيعابه تاريخ المذهب بصورة وافية؛ وغالب رواية الدرجيني عنه بلفظ: "قال أبو سفيان"، بالإضافة إلى "سير الوسياني"^(٤) (ت: بعد ٥٥٧هـ)؛ وكذا سير أبي عمار عبد الكافي وإن كان قد اكتفى بأخذ تقسيم الطبقات من عنده.

(١) أبو العباس الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، نخ: إبراهيم طلاي، ط٢، د.ت، المقدمة.

(٢) نفسه، ص: م.

(٣) محبوب بن أبي عبد الله السدراي (أبو سفيان): (٤٠٠-٤٥٠هـ / ١٠٠٩-١٠٥٨م)؛ شيخ بارز من المذكورين بالعلم والصلاح، من سدراتة قرب ورجلان، تتلمذ على يد واضع نظام العزاية الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي (ت: ٤٤٠هـ / ١٠٤٩م)، وأخذ عن أبي عمران موسى بن زكرياء؛ وقد أثرت عنه آراء فقهية، وروى عنه أبو زكرياء في سيره روايات عديدة. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج٤، ص ٧٤٥.

(٣) في الطبقة الثانية عشرة (٥٥٠-٦٠٠هـ / ١١٥٥-١٢٠٣م)، وقال عنه: «الحافظ للسير والأثار، المروي عنه التواريخ والأخبار، لم تقفه سيرة لأهل الدعوة من كل الأعصار»؛ وذكر الوسياني نفسه سبب تأليفه للكتاب عندما قال: «إني نظرت إلى الأثار قد أمّحت، وإلى أخبار أهل دعوتنا قد انطمست، فأحببت أن أولّف لكم منها كتاباً ممّا بلغني وصحّ عندي، ولم تخالجنّي فيه الشكوك». ينظر معجم أعلام الإباضية؛ ج٣، ص ٤٢٠ وما بعدها.

• الأخلاق والقيم في كتاب طبقات المشايخ.

إذا عرفنا بأنَّ الدرجيني يتجه في كتابه فيما يكتب وفيمن يُترجم لهم إلى ناحية معيّنة هي ناحية الإخلاص للعقيدة، والالتزام بمبادئ الإسلام وأحكامه ويُعرض عما سوى ذلك، ويصوّر فيهم مدى ما وصلت إليه التضحية ونكران حظوظ النفس لديهم، وما قاموا به وعاشوه لنصرة هذه المبادئ وإشاعتها، فهو من هذه الناحية يقوِّي في القارئ المؤمن الجانب الروحي والأخلاقي، ويحثه على التمسك بالقيم الإسلامية والتضحية لأجلها^(١)؛ فلا غرو أن نلاحظ من خلال الديباجات التي تسبق التعريف بمناقب كل علّمْ في الكتاب تقريباً؛ إشارات تصف خصال العزّابة وتجمع إلى علمهم صفات الزهد، وطلب العلم، والتواضع، والإيثار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

من ذلك قول الدرجيني في تعريف "أبو ميمون الجيطالي": "...ومنهم أبو ميمون من أهل أجيّطال من نفوسة الجبل رحمه الله، ممن له في الآخرة رغبة وترغيب، ولم يكن له في دنياه أكثر نصيب، وكان ذا جدّ في العلم، والاجتهاد وسعي في العبادة، ومنافع العباد، وكان ممن يُعدُّ في الشيوخ، وممن قدمه في العلم ذا رسوخ، وكان ذا تفقّد لمواضع المعروف وذا إيثار..."^(٢).

ومنه أيضاً قوله في الترجمة لأبي إسماعيل البصير؛ "...ومنهم أبو إسماعيل البصير إبراهيم بن ملال المزاتي رحمه الله؛ شيخ عبادة وورع، واجتهاد في معرفة ما فرض الله وشرع، كثير الملازمة لزوايا المسجد، لالتقاط الفوائد، يغدو إليها ويروح كما يغدو الطير ثم لا يروح إلاّ بطيئاً باستفادة كل خير..."^(٣)؛ وغيره كثير، بل في معظم الكتاب في جزئه الثاني من أوله إلى آخره.

• نماذج من سير العزّابة في كتاب طبقات المشايخ.

في هذا البحث المختصر لا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال الوقوف على كل الخلال التي اشتهر بها العزّابة لكثرتها وصعوبة حصرها، ولكن حسبنا أن نشير إشارات خاطفة إلى أبرز ما

(١) أبو العباس الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، ط٢، دت، المقدمة.

(٢) الدرجيني؛ طبقات المشايخ بالمغرب، ج٢، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٣) نفسه، ج٢، ص ٤١٢.

يمكن أن يتَّصف به العزَّابي ويقتَرَن به عادة، وإن جرى العُرف اليوم على أنَّ “السَّير” يقصد بها زيادة على التراجم مجموعة الأخلاق وأنماط الحياة اليومية للعزَّابي من عمارة المساجد وحلق الذكر والعلم ورفقة الصالحين والتورع عن الشبهات وخدمة الصالح العام ونكران الذات... إلخ؛ وكذا الاتباع وعدم الابتداع، أي اتباع أثر السلف الصالح قدر المستطاع وتجنب ابتداع أنماط جديدة في النُظم الدينية والاجتماعية؛ ومحاربة البدع والمبتدعين في كل زمان ومكان؛ هو شيمة من شيم العزَّابة، عرفوا بها أسوة بالصالحين الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هذه الخاصية التي امتاز بها العزَّابة حتى اشتهروا بها؛ تعدّ من صميم شيمهم؛ لذلك تجدهم يعدُّون “الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر” الركن السادس في الإسلام؛ وما ورد من الآثار يؤكد هذا، من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: “الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جنديان من جنود الله؛ من نصرهما نصره الله ومن خذلهما خذله الله...”

يذكر الدرجيني نماذج كثيرة لهذا الصنف من العزَّابة؛ وإن كنت أحسب أنه لا يكاد يختفي عند أحدهم، فحتى وإن لم يذكره في تراجم بعض الأعلام إلا أننا نحسب أنه ما تزال منهم بقية؛ ومن هؤلاء: أبو المنيب محمد بن يانس؛ “... قيل وكان دأبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يتفقّد المزارع والجَنَّات والطرقَات محتسباً ثواب الله، فمتى وجد أحداً أهْمَ بإفساد شيءٍ من ذلك، أو بإدخال ضُرٍّ على أحدٍ من المسلمين صرفه عن ذلك، وحال بينه وبينه، وكان لا تمسُّه غفلةٌ عن هذا الشأن، ومع كثر عبادته جعل هذا من أوكدها، قيل فلمَّا كان ذات يوم وجد ثلاثة إخوة وقد عزموا على ضررٍ، قد قصدوا به غيرهم، وقد أخذوا في عمله، فنهاهم عن ذلك فقاموا إليه ونالوا منه، وعاملوه أقبح معاملة، فسمعت قبيلته وأهل منزله بالذي ناله من القوم، وأرادوهم بشرٍّ، فنهاهم محمد عن ذلك، وقال: ما نالوا منِّي شيئاً إلا وقد نلت منهم أكثر وأعظم، فانتقم الله منهم جميعاً في اليوم الذي كان ما كان منهم للشيخ...”^(١).

ومنهم أبو مرداس مهاصر السدراتي وهو من أعلام الطبقة الخامسة (٢٠٠ - ٢٥٠هـ)، “... ”

نكر عنه أنه كان بتأهت ذات مرة، فسمع رجلاً يدعو رجلاً آخر إلى الحق، فلم يُجب دعوته وأعرض عنه؛ فجاء أبو مرداس إلى دار الإمام^(١) فجعل يضرب فيها بالحجارة ويقول: بهلة^(٢) الله اليوم على من سكن هذه البلدة، فقال رجلٌ للإمام: كيف نحن وهذه التي يذكر أبو مرداس؟ فقال: نحن في وسطها إذا لم نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر...^(٣)؛ ولقد كان هذا دأب العزابة في كل زمان ومكان، ولا تزال منهم بقية إن شاء الله.

٢- التواضع

التواضع الجمّ شيمة من شيم المروءة التي يَتميّز بها العزابة، وقد ضربوا بها أروع الأمثلة وأصدقها؛ من ذلك ما ذكره الدرجيني عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني، قال: "...ومن تواضعه ما ذكر ياجر بن جعفر قال: كنا في حلقة أبي عبد الله نقرأ عليه، فكان العزابة أرادوا كنس الغار فكنس معهم الشيخ أبو عبد الله وجعل يرفع معنا الكناس على عاتقه؛ فقال له يوماً بعضنا وهو ينقل معنا، أقعد يا شيخ فإن العزابة يكفونك، قال أو يحملون عليّ ذنبي؟ فكان يرفع قليلاً قليلاً جهد طاقته، فقلت له: ارفع إذا أكثر من هذا، فقال: لو كان رأيك يؤخذ لأخذنا به أنفأ...^(٤) ومثال هذا كثير، منه الترجمة التي خصها لأبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني وابنه أبي إسحاق رحمهما الله؛ وفي ذلك يقول: "...وأما أبو إسحاق إبراهيم فإمام في علم الأدب، وإن ذاكر في الفروع فيا للعجب، لقد تمسك من الحديث والأصول بسبب أقوى سبب، وعند كليهما من الورع والزهد والتواضع والاقتصاد ما ليس يدركه أحد من المتتسكين ونوي الاجتهاد...^(٥)".

ومما يروى عن الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني أيضاً أنه "كان إذا جاء إلى موضع الوضوء في مسجد وارجلان، انصرف كل من حول المتوضى، فيضع سيفراً ومفتاحاً

(١) عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم.

(٢) أي: غضب الله ومقته.

(٣) الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٤) نفسه، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٥) الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٤٩٢.

ويضع عمامته وكساءه، ويقعد في ثوب واحد فيدخل المطهرة، فيرجعون ويأخذ أحدهم شيئاً منها ويأخذ الآخر شيئاً آخر، حتى يرجع الشيخ فلا يجد شيئاً فيقول ردوا عليّ علائقي، فيقول أحدهم أرء بعوضٍ، فيسأل عن مسألة في النحو ثم يجيب فيرد ما أخذ، ثم يسأل الآخر عن فريضة ويسأل الآخر عن مسألة فقهية ويسأل الآخر عن تأويل آية، ويسأل الآخر عن تأويل رؤيا وعن غير ذلك، فيجيب كلهم فحينئذ يردون عليه ما أخذوا، فكان ذا دأبه حتى لقي الله^(١).

٣- إكرام بالضيف وابن السبيل

مما ورد في كتاب الطبقات_ وهو كثير_ في سيرة أبو جعفر أحمد بن خيران الوسياني أنه كان من عادته تأخير العشاء إلى صلاة العتمة، فإذا صلى نادى في المسجد: "أهل هنا ضيف؟ ألا لا يبتن أحدٌ دون عشاء؟" ثم لا يُقنعه ذلك حتى ينتظر انصراف الناس، فإذا انصرفوا طاف في زوايا المسجد بعكازه يفتش: هل من طارق؟ هل من ابن السبيل؟...^(٢)؛ كما يروى عن أبي محمد عبد الله بن الأمير أنه كان يعدّ علف دابة الضيف من جملة إكرامه، وله في ذلك قصص مع أضيافه أوردها الدرجيني في طبقاته^(٣). وذكر الدرجيني أيضاً أخباراً عن أبي محمد عبد الله بن يحيى بن عيسى العباسي_ رحمه الله_ قال: "...حدثني بعض العزّابة عن الشيخ عبد الله عن علي قال: خرجت من أريغ أريد وارجلان في جماعة من العزّابة، فسلكننا على "تلا" منزل الشيخ عبد الله بن يحيى، قال: فخرج إلى العزّابة فسلم عليهم وأنزلهم للضيافة، فلما دخلنا موضعه قتم لنا تمرأ كبيساً مُعسلأ، ولبينا عجبياً، فلما أكلنا من ذلك ما اشتهينا، احضر صفحة تريد...؛ قال: فلما أراد العزّابة الخروج عُدت إليه لأخبره بذلك فوجدته يفرّق فضلة الثريد على الجيران^(٤)، ثم دخلت عليه فوجدته على مرضخه وبين يديه حشف أجرش يابس وكوز ماء، وكلما رفع حشفة مرضخها وأزال نواتها وأكلها، وأتبعها بجرعة ماء من الكوز، وفضّ النواة لعلف الغنم، فقلت له: ما هذا يا شيخ؟ هلاً أكلت من التمر الذي أطعمتنا منه؟ فقال: يا بني إن من أكل خيار ماله فقد

(١) نفسه، ج ٢ ص ٤٩٢ وما بعدها.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٢٢٥.

(٣) نفسه، ج ٢، ص ٤١٤.

(٤) يقصد بهذا العمل البركة، لأن عليها دعاء العزّابة بعد فراغهم من الأكل، فيحصل بذلك عظيم بركة وفي هذا رويت كرامات كثيرة.

أكل دم وجهه، وذلك مدخراً لأمثالكم، وإن الذي بين يديّ مع العافية كثير^(١).

٤- علو الهمة، والعزيمة التي لا تكلّ

وهي من الخلال التي تميّز بها العزّابة ومما حرصوا على تلقينه أبنائهم الطلبة؛ وقد ذكر الدرجيني خبراً عن أبان بن وسيم الويغوي^(٢) قال: "...ذكر غير واحد أنّ بدا أمر أبان بن وسيم، ورجوعه إلى الله وتركه ما كان فيه من الخوض في غمرات الدنيا، أنه كان هو وأخ له اسمه سعيد يكنى أبا محمد مريضين، وكان أخوه أسنّ منه، وكان متقدّم التوبة؛ فاضطجعا في غارٍ واحدٍ، وكان مضطجع أبي محمد داخل الغار، وأبان مما يلي باب الغار، وكان الشيوخ والعواد يدخلون لعيادة أبي محمد، فيدخلون ويتجاوزون أبان، وينتهون إلى سعيد فيجلسون إليه ويؤنسونه، ويحقّون به ويختلفون إليه، ويسألونه عن حاله، وعمّا يشتهي، فإذا كان عند انصرافهم دعوا الله أن يشفيه، ثم يتجاوزون على أبان لا يختلفون، وغايتهم أن يقولوا كيف حالك يا أبان؟ يا ضعيف؟ وربما دعوا له بالشفاء؛ فكان ذلك لما أراد الله به من الخير والصلاح زجراً له عمّا كان عليه، وردعاً فإذا سألوه هذا السؤال قال: فإن فرّج الله عن أبان سيركم ما يصنع وتقفون على خبره إن شاء الله، وفرّج الله عليه فوفى بما اعتقد..."^(٣).

والحق أنّ قصة أبان بن وسيم الويغوي صارت مضرّباً للمثل لعلو الهمة في ميزاب إلى اليوم، وتحكى باللسان البربري في المجامع وحلق العلم للطلبة والعوام.

٥- التحريض على طلب العلم والحثّ عليه

يبتدئ العزّابة دروس الوعظ ومختلف فنون العلم عادة بذكر فضل طلب العلم ومنزلة المتعلم والعالم عند الله سبحانه وتعالى...؛ ويختارون لذلك الرقائق والأثار التي وردت في هذا الصدد؛ ومن أهم الكتب الإباضية التي أسهبت في هذا الباب كتاب "قناطر الخيرات" للشيخ

(١) نفسه، ج ٢، ص ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٢) أبان بن وسيم الويغوي النفوسي: (٢٠٠-٢٥٠هـ / ٨١٥-٨٦٤م): من علماء الإمامة الرسّمية، تلقّى العلم في كبره على الشيخ أبي خليل صال الدركّني، واشتغل بالزراعة؛ ثم ولّاه الإمام أفلح بن عبد الوهاب على جبل نفوسة، بعد وفاة أفلح ابن العباس. أجازته شيخه بالفتوى قائلاً له: «لكلّ زمان نذير وأنت نذير زمانك يا أبان، أفّت للناس بالرخص كي يكون ذلك لهم عنراً عند مولاهم»؛ وكان فقيهاً مفتياً ثقةً، وصفه الوسياني بأنه «إمام أحكام»؛ يكاد لا يخلو كتاب من كتب الفقه والتاريخ والسير الإباضية من أرائه وفتاواه. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ٨.

(٣) الدرجيني؛ طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

إسماعيل الجبالي، وهو كتاب نفيس يقع في ثلاثة أجزاء أول جزء فيه هو: "قنطرة العلم والإيمان"، وهو معتمد إلى اليوم في خلق العلم بمساجد الوادي يشرحه شيخ العزابة للتلاميذ (إروان) وللعمامة أيضاً في المسجد.

وفي كتب السير ومنها كتاب طبقات المشايخ للدرجيني نماذج عديدة في هذا الباب؛ منها ما أورده الدرجيني في الترجمة لأبي عمران المزاتي، أين قال: "...وعن أبي محمد أن أبا عمران قال مراراً في مجالس كثيرة: تعلم حرف واحد من العربية كتعلم ثمانية مسألة في الفروع، وتعلم مسألة واحدة كعبادة ستين سنة، ومن حمل كتاباً إلى بلد لم يكن فيه ذلك الكتاب فكانما حمل ألف حملٍ دقيقاً، وتصدق به على أهل ذلك البلد، وهكذا في فضل العلم وطلبه..."^(١)، ومثل هذه الأخبار كثيرة في كتاب "قناطر الخيرات" السالف الذكر.

وذكر الدرجيني أيضاً حديثاً عن أبي موسى عيسى الزواغي قال: "ذكر عنه أنه قال: خرجنا من هؤلاء يعني قومه وأهله وتركناهم وجمعنا أصحاب شياهم وبقرات، وقرأنا العلم ورجعنا وجمعنا مثل ما جمعوا من شياهم وبقرات؛ لا أقول إن أبا موسى رحمه الله قال هذا القول فخراً وافتخاراً، بل تحريضاً على طلب العلم والاجتهاد في الخير والصلاح، وإعلاماً بأن طلب الدنيا مُدركٌ لا يفوت، وأن المتعین طلب العلم والدين"^(٢). وقد يحفّ الدرجيني تراجمه بالكرامات التي تروى عن الزاهدين والأتقياء في مضممار طلب العلم وتشجيع التلاميذ على طلبه وتحصيله؛ من ذلك قوله عن أبي خليل الدركلي^(٣): "...روي أن أبا خليل كان يقول للتلاميذ^(٤) سيروا إلى الحلقة، واقصدوها حيثما كانت يا كُسالي، فإن رجلاً قد سار من الجبل إلى فزان وإلى غدامس وإلى الساحل، رغبة في طلب الحلقة، وفيما يستفيدة، فلقيه في الطريق قطّاع، فدافع عن نفسه حتى

(١) الدرجيني؛ طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٣٩٢.

(٣) صال الدركلي (أبو خليل)؛ (ق: ٣٣ / م: ٩): علم من أعلام «إينرگل» بجبل نفوسة، أخذ العلم عن حملة العلم الخمسة من البصرة إلى المغرب، وقيل: هو أول من تتلمذ عليهم؛ أخذ العلم عنه خلق كثير، ومن أبرز تلامذته: أبان بن وسيم الويعوي؛ وكانت له كرامات عديدة دالة على ورعه وتقواه ذكرها كتاب السير والطبقات؛ وله فتاوى وآراء فقهية؛ معجم أعلام الإباضية، ج ٣، ص ٤٦٥.

(٤) التلاميذ: هم حفظة كتاب الله، ويقال لهم بالبريرية في ميزاب «إروان»، يعمرون مجالس الذكر وحلق العلم؛ ومنهم ينتقى خلائف العزابة متى احتاجوا إلى ذلك؛ انظر بتفصيل: صالح بن عمر سماوي، العزابة ودورهم الاجتماعي بوادي ميزاب، المطبعة العربية، غرداية، ط ١، ٢٠٠٥، كله.

جُرح سبعة عشر جُرحاً، فظنوا أنه قد مات فتركوه، فوجد في نفسه النهوض فنهض، ودخل موضعاً يقال له "وعمان"، ومكث فيه أربعين ليلة بلا طعام ولا شراب، غير أنه يرى في نومه من يُطعمه ويسقيه، وخرج من الموضع وهو أصحَّ شيء، وكأنه لم يُصبه ألمٌ، وذلك بفضل الله وحُسن نية الرجل وجميل قصده...^(١).

ومما يروى أيضاً عن بعض المشايخ رحمهم الله، ومنهم: أبو محمد وسلان بن يعقوب المزاتي^(٢) أنه لما كان في أيام إقامته بجبل نفوسة طلباً للعلم، كان إذا وصله كتابٌ من تلقاء أهله رمى به في كوة لا يقرأه، حتى قضى وطره من علم الفروع وعقد النية على الرجوع إلى أهله، فقرأ الكتب فوجد في الأول التعزية بأمه، ووجد في كل كتابٍ ما لو اطلع عليه لكان شاغلاً عما قصد إليه من الخير...؛ قيل وكانت إقامته بين أهل الجبل سبع سنين، فحصل ديواناً عظيماً، فكان يقرأ فيه ويدرس عند أهله، وكانوا إذا رأوه يقرأه في الشتاء، قالوا له، يبتلُ كتابك، ببِلل أندية الشتاء، ويقول لهم: سيأتي الصيف ويجف، فإن كان الصيف قالوا: يحترق كتابك ويتقبَّض بحر الشمس، ويقول لهم: سيأتي الشتاء، وينبسط، وكان رحمه الله لا يفتر عن القراءة في كل زمان^(٣).

وقد تكررت قصة الانقطاع لطلب العلم وعدم النظر في الرسائل التي تصل من الأهل، مرّات عديدة في تاريخ أعلام الإباضية؛ وذلك بحفظ الطلبة والعزّابة للسير وسعيهم في اقتفاء آثار أسلافهم، ولنا في الشيخ أبي مسور يسجا بن يوجين اليراسني (ق ٣٥٠هـ / ٩٦١-١٠٠٩م)^(٤) همّة عالية ومثال

(١) الدرجيني؛ طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٤١١.

(٢) وسلان بن يعقوب الدجمي المزاتي (أبو محمّد)؛ (٣٥٠-٤٠٠هـ / ٩٦١-١٠٠٩م): من قبيلة مزاتة، عمل في شبابه راعياً بالبادية، ثم أخذ عن أبي القاسم يزيد بن مخلّد في كبره، فدرس القرآن لمُدّة سبع سنين، وعلم الأصول والحجّة والكلام لمُدّة ستّ عشرة سنة. جمع ديواناً كبيراً كان يدرسه عند أهله، وعادته عدم الفتور عن القراءة في كلّ زمان. أخذ به رجال المعزّ الفاطمي وحبسه لأنه صاحب أبي القاسم يزيد بن مخلّد، ثم أطلقوا سراحه، لأنّ أهل السحن اشتكوا قراءته الدائمة للقرآن، وكان جدير الصوت؛ معجم أعلام الإباضية، ج ٤، ص ٤٤١.

(٣) الدرجيني؛ طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٣٧١.

(٤) يسجا بن يوجين اليراسني (أبو مسور)؛ (آخر ق: ٣٥٠هـ / ٩٦١م): من عظماء جربة بتونس. اسمه يسجا، وهي بريئة تعني: استقام. لنا أراد يسجا المسير إلى أهله اشتغل بنسخ الكتب، وكان شديد الاهتمام باقتنائها. ترك أقوالاً فقيهة، وجكماً كثيرة، ذكرت بعضاً منها كتب السير. ويذكر القطب أطفيش أنّه أصل نسب أولاد أبي مسور الذين جاؤوا من جربة أو نفوسة ونزلوا العطف، وهم الذين يحملون لقب «الحاج عيسى» -حالياً- من عشيرة آل الحجّاج. توفّي في حومة قلّة بجزيرة، وبها دفن، ولا يزال قبره معروفاً؛ أنظر: معجم أعلام الإباضية، ج ٤، ص ٩٨٣.

يُحتدى، وفي القرون المتأخرة الشيخ أبو زكرياء يحيى بن صالح الأفضلي^(١) _ رحمه الله _ ، وآخرون غيرهم. وفي مساعدة الطلبة وتشجيعهم على التعلّم ما يروى عن أبي زكرياء فصيل بن أبي مسور؛ ذكر الدرجيني عنه قال: "...كان أبو زكرياء يقول: "منزل التلامذة كشجرة الخروب"؛ يعني أنه لا ينبت حول الخروب نبات، فإن نبت كان ضعيفاً لأن الخروب يشتف، وكذلك ما كان حول منزل التلامذة فإنه يكون اهتمام أهله لما يصلح شأن التلامذة، فجهدهم مكابرتهم، وإطافهم، والقيام بمؤونتهم؛ وكأني به رحمه الله يخاطب بذلك أهله وحشمه ليكون لهم الاهتمام بأمورهم، والقيام بحقوقهم، ما لا يكون عند غيرهم ذلك، فيفتنون أثاره ولا يستعظمون ما ينفقون في جانب التلامذة وما يخرج من مصالحهم.

ويروى عنه أيضاً كان _ رحمه الله _ يصرف الدنانير بالدراهم، ويجعل الدراهم في القراطيس والصُرر، ثم يعلّقها في في ألواح التلامذة، وربما يجعلها في أوعية دفاترهم، وربما جعلها بين التلميذ وثيابه وهم لا يشعرون، وكل ذلك رغبة منه في كتمان الصدقة، فلما مات أبو زكرياء -رحمة الله عليه- انقطع عن التلامذة ما كانوا يعتادونه من ذلك، فعلموا أنه إنما كان يفعل ذلك أبو زكرياء وتحققوا ذلك"^(٢).

٦- النصيحة لله

بعد خلق النصيحة والوصية للطلبة والأبناء وكل من يطلبها من ركانز العزّابة في حركاتهم وسكناتهم وهو كثير في كتاب الطبقات، ومرّد ذلك كما أسلفنا هو خلق الاستقامة الذي امتاز وعُرف به العزّابة؛ ولعل النصيحة والوصية تدخل في باب "الأمر بالمعروف"؛ لذلك فهي لا تكاد تتخلف بين ترجمة وأخرى مما أورده الدرجيني؛ من ذلك أنّ أبو صالح جنّون بن يامريان وهو شيخ وأرجلان على عهده؛ "...كتب له ابن عمّ له كتاباً من المغرب: يا ابن عمي ايتني،

(١) يحيى بن صالح ابن يحيى الأفضلي (أبو زكرياء)؛ (و: ١١٢٦هـ / ١٧١٤م - ت: ١٢٠٢هـ / ١٧٨٨م): من العلماء الأعلام، وكبار المشايخ في وادي ميزاب إبان النهضة الحديثة، بل هو باعثها الأول. تلقى مبادئ العلوم في مسقط رأسه ببني يسجن، ثم قصد جربة في آخر النصف الأول من القرن ١٢هـ / ١٨م؛ فأخذ في البداية من مجموع مشايخها؛ ويذكر أنه بدأ غير مجتهد في تحصيله، فشجّعه على الاجتهاد والكّد نملة أبت إلا أن ترفع نواة بإصرار. فمكث في التعليم بجربة اثنتي عشرة سنة منضلة، تفرّغ فيها كليّة للعلم لا يلتفت لشيء غيره، وكانت رسائل أهله إذا وصلت لا يقرأها، بل يضعها في كوة عميقة في حجرته، ثم يسدّ الكوة لكي لا يراها فتحدّثه نفسه بقراءتها، ولمّا أنتم دراسته واستعدّ للرحيل فتح الرسائل فقرأها فإذا جُلّ أسرته قد ماتوا، ووجد في الرسائل من الأخبار المزعجة ما لو قرأه لقطعته عن العلم؛ انظر: معجم أعلام الإباضية، ج ٤، ص ٩٦٥.

(٢) الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

فإنَّك قُمتَ في أرض الفقر، فإنَّ عندنا أرضاً كريمة، قدر الكساء يحمل البعير وسقهُ حَبّاً، فأجابه أبو صالح: يا ابن عمي ايتني، فإنَّ عندنا أرضاً قعدة الرجل يحمل البعير وسقهُ عسلاً، وفي هذه الحكاية حُسن الجواب المسكت، وفيها ما يدلُّ على القناعة والرصانة^(١)...

ومما يُروى أيضاً أنه جاء رجلٌ إلى الشيخ أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر^(٢) -رحمه الله- يشاوره في الزوج، وأي امرأة يتزوجها؟ فقال: إذا جئت إلى شجرة فأي ثمارها أيسر عندك؟ ما مددت إليه يدك نحو فمك، أم ما أشرف إليه عنقك، أم ما طأطأت إليه رأسك؟ فقال: بل ما مددت إليه يدي، وما كان أمامي فلم أحتج فيه إلى مدّ يدي إلى الأشرف ولا أن أطأطئ رأسي؛ قال: عليك بقرينتك^(٣).

وروى أبو عمرو عن أبي يحيى قال: "قال الحواريون لعيسى ابن مريم: من نجالس بعدك يا روح الله؟ قال من يذكركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقته، ويرغبكم في الآخرة عمله؛ قال أبو زكرياء: مثل أبي يحيى، وقال أبو عمرو: مثل أبي زكرياء؛ وهذه الملح يذكرها العزّابة لطلبتهن في مجالس العلم عادة يزكون بها الأنفس.

• ما يستفاد من ذكر مجموعة القيم والأخلاق.

لقد كان حرص العزّابة وما يزال ظاهراً في المحافظة على السير ونقلها من السلف إلى الخلف، جيلاً عن جيل، وتربية النشء التربية الصالحة وتوجيههم الوجهة السليمة لما ينفعهم في أمر معاشهم ومعادهم.

لذلك تجد كُتّاب السير كالدرجيني وغيره ينقلون الوصايا التي حفظها الرواة الثقاة فيثبتونها في ثنايا كتبهم، وهي عن الحصر كثيرة، لاحظ من ذلك قول الدرجيني: "... وقد بلغنا عن أبي عبيدة عن أبي عبيدة عبد الحميد الجنائني رحمه الله- أنه قال لأهل الجبل (والله ما تركتكم إلا

(١) نفسه، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٢) يحيى بن أبي بكر بن سعيد الیهراسني الوارجلاني (أبو زكرياء)؛ (ت: ٤٧١ أو بعد ٤٧٤ هـ / ١٠٧٨ أو بعد ١٠٨١ م)؛ هو أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني، أشهر من نار على علم، وهو صاحب كتاب «السيرة وأخبار الأئمة»، عليه اعتمد كل أصحاب السير والطبقات الإباضية، مثل: الوسياني، والبعظوري، والدرجيني، والشَّماخي، ومن جاء بعدهم... إلى يومنا هذا، وعن كتابه يقول الوسياني: «له فضل السبق في هذا، لم يال خيراً برأفته وهُمتُه وفراسته»... انظر: معجم أعلام الإباضية، ج ٤، ص ٩٤٨.

(٣) الدرجيني؛ طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٤٥٠.

على الواضحة النيرة، ما بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاث رجال لم أرهم، وفي بعض الروايات أن أبا خليل هو المتكلم بهذا الكلام^(١)؛ وروى أيضاً قال: "...بلغنا عن أبي عبد الله بن يزيد الفزاري قال: (إنما غلبنا أصحاب الربيع باتباع الآثار)، وقال أبو صالح يعلو: (السبيل محفور إلى الركبة، فلا يؤخذ منه مخرج إلا بالوثبة)"^(٢)؛ إلى آخره من العبارات الدالة على أهمية السير في صيانة تاريخ الأمة ونقله إلى الأجيال المتعاقبة.

• الخلاصة والتوصيات.

إن البحث في سير العزابة عميق وشيق، ولاشك أن القارئ المتأنى لكتاب "طبقات المشايخ بالمرغرب"، لأبي العباس الدرجيني وغيره من كتب السير تستوقفه آثار السلف الصالح فيأمل ماضيهم ويقلب ذلك مع حاضره، محاولاً استخراج مجموع القيم والأخلاق التي وردت في أثناء الترجمة للمشايخ والعزابة، وما يجب أن نكون نحن عليه الآن؛ وقديماً قال الشاعر:

وهل إن كان حاضرنا شيقاً نسود بكون ماضينا سعيداً
فشر العالمين نوي خمول إذا فاخرتهم ذكروا الجدوداً
وخير الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسباً جديداً

لذلك تجد الدرجيني في كتابه الطبقات يتجه فيما يكتب وفيمن يترجم له إلى ناحية معينة هي ناحية الإخلاص للعقيدة، والالتزام بمبادئ الإسلام وأحكامه ويعرض عما سوى ذلك، ويصور فيهم مدى ما وصلت إليه التضحية ونكران حظوظ النفس لديهم، وما قاموا به وعاشوه لنصرة هذه المبادئ وإشاعتها، فهو من هذه الناحية يقو في القارئ المؤمن الجانب الروحي والأخلاقي، ويحثه على التمسك بالقيم الإسلامية والتضحية لأجلها^(٣).

ومما يمكن أن نوصي به في ختام هذه الورقة هو:

١ - ضرورة التعاون في التعريف بمخزون السير المخطوط منها والمطبوع وجعله في المتناول.

(١) نفسه، ج ٢، ص ٤٧٧.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٤٧٩.

(٣) أبو العباس الدرجيني، طبقات المشايخ بالمرغرب، تح: إبراهيم طلاي، ط ٢، د.ت، ج ١، المقدمة.

- ٢- تنظيم حلقات فكرية دورية حول السير الإباضية على مستوى الأقطار المغربية والمشرقية.
- ٣- إنشاء دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات في السير الإباضية.
- ٤- التعريف بالإرث الإباضي من خلال تبادل الكتب والدراسات المتخصصة.
- ٥- تحفيز الباحثين وحثهم على لولوج موضوع السير من خلال إعداد الدراسات الأكاديمية المتخصصة.
- ٦- ضرورة تبسيط السير وتقديمها للأطفال والناشئة في قالب قصصي ممتع.
- ٧- طبع أشغال هذه الندوة ونشر توصياتها واستعمال مختلف الوسائط الورقية والرقمية لنشر أعمالها.

المصادر والمراجع

- ١- أبو العباس الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، دار البعث، قسنطينة، ط١، ١٩٧١.
- ٢- أبي الربيع سليمان الوسياني، سير الوسياني، تح: عمر لقمان بوعصبانة، نشر وزارة التراث القومي - سلطنة عُمان، ط١، ٢٠٠٩.
- ٣- أبو العباس أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد الشماخي، تح: محمد حسن، دار المدار الإسلامي، ط١، ٢٠٠٩.
- ٤- يحيى بن أبي بكر بن سعيد الیهراسني الوارجلاني (أبو زكرياء)، السيرة وأخبار الأئمة، طح.
- ٥- إبراهيم البرادي، الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطبقات، طح.
- ٦- القطب أطفيس، الرسالة الشافية، طح.
- ٧- معجم أعلام الإباضية، مجموعة من الباحثين، نشر جمعية التراث، غرداية - الجزائر، المطبعة العربية، غرداية، ط١، ١٩٩٩.
- ٨- صالح بن عمر سماوي، العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بوادي ميزاب، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، ط١، ٢٠٠٥.
- ٩- فرحات الجعبيري، نظام العزابة عند الإباضية الوهية بجربة، المطبعة العصرية - تونس، ط١، ١٩٧٥.
- ١٠- إسماعيل الجيطالي، قناطر الخيرات، تح: عمرو خليفة النامي، دبط، دبت.ط.

الشيخ سليمان بن ناصر بن سليمان الإسماعيلي وعلاقته بكتاب السير والجوابات بمكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدى بسلطنة عمان

إدريس بن بابه باحامد القراري
إمام خطيب وباحث/ سلطنة عمان
idbahamed@yahoo.com

مقدمة

• المبحث الأول: تعريف السير والجوابات والمقصود بمؤلفات السير الإباضية.

المطلب الأول:

ورد ذكر السيرة في لسان العرب ما مفاده، أن السيرة هي السنة والسيرة الطريقة، تجمع على سير، يقال سار بهم سيرة حسنة والسيرة الهيئة، قال أبو عبيد: سار الشيء وسرته، فعم^(١).

ورد في لسان العرب ما نصه: الجواب: معروف رديد الكلام، والفعل أجاب يجيب، قال الله تعالى: «فإنني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجبوا لي» (البقرة/ ١٨٦)، قال الفرّاء: يقال إنها التلبية والمصدر الإجابة، بمنزلة الطاعة والطاقة، والإجابة رجع الكلامن تقول: أجابه إجابةً وإجاباً وجواباً وجابئةً، ومن هذا المثل المعروف: أساء سمعاً فأساء جانباً، والجابة مصدر كالإجابة، يقال فلان حين الجيبة بالكسر، بمعنى حسن الجواب^(٢).

فمن خلال هذا كله يتبين لنا أن الإجابة هو رد الكلام ورجع الكلام، ولا يكون رجع الكلام ورده باللسان فقط فقد يكون بالكتابة ولما يكون في هذه الحالة يسمى جواباً أيضاً، وتجمع

(١) محمد بن مكرم، ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله عل الكبير وآخرون، دار المعارف، دط، دت ن، د م ن، ج ٣، ص ٢١٦٩. باب: سير، ينظر: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، اعتنى به: محمود خاطر، مراجعة: لجنة من مركز تحقيق التراث، دار الكتب المصرية، دط، د تن، ص ٣٢٥، باب: سير.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ١/ ص ٧١٦، باب: جواب. ينظر: الرازي، مختار الصحاح، ص ١١٦، باب: جواب.

هذه الرسائل التي فيها رد على كلام جاء مهما كان نوعه على جوابات.

المطلب الثاني: المقصود بالسير والجوابات الإباضية.

المقصود بسير علماء أهل عمان: .. ما روي عن الأئمة والعلماء العمانيين والإباضية عامة من قول أو فعل، وحينما نذكر كتب السير والجوابات فإن الذهن ينصرف إلى كتب تراجم الرجال وما أثر عنهم من أقوال وأفعال.

أما المقصود بالجوابات في هذا البحث هو: ردود على الاستفسارات التي كان يرسلها المسلمون إلى الأئمة والعلماء الإباضية والعمانيين، عن حقيقة المذهب الإباضي، وعن العقيدة الإسلامية، وعن التوحيد وعن المعاملات وغير ذلك مما يتعلق بأمور الدين والسياسة والحكم. كما تتضمن هذه الجوابات كتابات للعلماء في بينهم لتفسير مسائل معينة وتبادل الآراء في ذلك. وقد قرنت السير بالجوابات في هذا المخطوط نظرا لاحتوائه على هذين النوعين سير وأجوبة، فجاء بهذا الاسم المقصود وحصره في الأئمة العمانيين كما فعلت الباحثة يبدو لي يحتاج إلى نظر خاصة بعد أن وجدت مخطوطة فيها عدد لا بأس من سير وجوابات غير العمانيين إلا أنهم إباضية، فمن اللائق أن يعنون الكتاب، سير وجوابات الإباضية والعمانيين. ليدخل ضمن الإباضية إباضية المغرب الذين وردت سيرهم وجواباتهم داخل المخطوط، ويدخل في العمانيين كل من كان عمانيا دون استثناء^(١).

المطلب الثالث: الغرض من كتابة السير والجوابات:

- إفادة الجيل الذي يأتي بعد الجيل الذي كتبت فيه هذه السير والجوابات للاستئارة بنورهم والاستفادة من تجاربهم وخبراتهم.
- تصور واقعي فعلي لما كان يقع في زمن من الأزمان، واكتساب تصور واقعي لمختلف مجالات الحياة الدينية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

(١) ينظر في هذا المعنى: وزارة التراث القومي والثقافة، السير و الجوابات لعلماء وأئمة عمان، تحقيق: سيدة إسماعيل كاشف، سلطنة عمان، د ط، ١٩٨٦، ١٤٠٦ هـ، ج ١، ص ٦ وما بعدها.
ينظر: أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم بن محمد طلاي، ط ٢، د ن، دم ن، صفحات: أ إلى ع. من المقدمة.

- شرح وافي وبيان واضح جلي لحال المذهب الإباضي في تلك الأزمنة، وماهي سبل حماية هذا المذهب كفكر إسلامي معتدل؛ يدعو إلى المعرفة والتعارف والاعتراف.
- حفظ الذاكرة التاريخية من التلف والضياع على أيدي مؤرخي البلاط، وأصحاب الأهواء.
- دحض حجج واتهامات المغرضين بالتاريخ النير الحقيقي الذي كتبه علماء المذهب وأصحابه عن أنفسهم.

• المبحث الثاني: مكتبة السيد محمد بن أحمد وحضور مؤلفات السير داخلها.

المطلب الأول: نبذة عن مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي.

تسمى هذه المكتبة بمكتبة السيد، وقد صار هذا الاسم علما على مكتبة معالي السيد محمد بن أحمد البوسعيدي بالعلبة، فحينما يطلق اسم (مكتبة السيد) ينصرف الذهن إليها مباشرة دون غيرها من المكتبات، وقد تعارف الباحثون والرؤاد على هذا الاسم، وهي تقع في منطقة الشَّرادي من ولاية السيب، داخل مزرعة معاليه رحمه الله- ولهذه المكتبة تاريخ عريق إنَّ على مُستَوى التأسيس أو بعده، فقد كانت بدايات تأسيس المكتبة في السبعينيات من القرن الماضي، حيث كان معالي السيد يجمع الكتب والمخطوطات في غرفة صغيرة وهذه الغرفة كانت في محلّ المكتبة حاليا، فقد كان معالي السيد شغوفا بالعلم وأهله، مما جعله يجمع فنون العلم، من مخطوطات ومطبوعات وغيرها، وقد تفضّل الله سبحانه وتعالى على معاليه بأن وفّقه لبناء المبنى الجديد للمكتبة وهو ما عليه المكتبة الآن، وللمكان خصوصية رائعة من حيث الشكل الهندسي الرائع، فهي ذات شكل دائري، يميّز بفن معماري عماني رائع، إضافة إلى ما تحويه من وسائل عصرية تفيد الباحثين ورؤاد المكتبة من طلبة وغيرهم، وكان يعتبر معالي السيد محمد بن أحمد هذه المكتبة لشدة تعلّقه بها (منسكا من مناسكه اليومية)، فكان يقول: فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في المكتبة.

بدأ معالي السيد جمع مخطوطات المكتبة وما تحويه كما سبق من السبعينات وكان اهتمامه بالمخطوط لعدة أسباب منها:

١- تأثره بضياح مكتبة الشيخ خلف بن سنان والتي تحوي ٧٠٠٠ آلاف مخطوطة أو تزيد.

٢- اهتمامه بالعلم والمعرفة قبل كل شيء، ما جعله يسعى لجمع المخطوطات بشتى الطرق والوسائل مهما صعبت المسالك إليه، وعزّت المقاصد.

٣- المخطوط يمثل عصرا من العصور وجيلا من الأجيال ينبغي الاهتمام به لنصل الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل، فهو ذاكرة الشعوب والأمم، وهو هوية المجتمع، ففي المخطوط نجد الجانب الأدبي والتاريخي والحضاري لكل شعب من الشعوب ولكل أمة من الأمم.

٤- عشقه الشديد للاطلاع على ما ورد من علم في بطون تلك المخطوطات.

٥- يُعتبر المخطوط كنز من كنوز التاريخ لا ينبغي تضييعه، ففيه حياة الأمم.

٦- المخطوط جهد إنساني بذل فيه مؤلفه مجهودا معتبرا كيف لا نهتم به.

٧- المخطوط مصدر مهم من مصادر المعلومات التي يرجع إليها الباحثون والمحققون والمنقبون ما جعل معالي السيد يحافظ عليه ليصل إلى كل هذه الشرائح وغيرها للاستزادة والتنقيح والتحليل والبحث والاستخراج.

• عدد المخطوطات والمطبوعات الموجودة في المكتبة

تضم مكتبة معالي السيد عددا كبيرا جدا من المخطوطات يقدر بأربعة آلاف وخمسمائة مخطوط أو تزيد إذا أمعنا التدقيق فيها، إضافة إلى تلك المجاميع التي تجمع مختلف العلوم بين طيّات مخطوط واحد، تولى معالي السيد -رحمه الله- تصنيفها وفهرستها، والتعليق على بعض منها وهذا ما يبدو جليا في بعض المخطوطات التي تحتاج إلى ذلك، وبهذا تعدّ مكتبة السيد محمد

معلما مهما من معالم المخطوطات في الوطن العماني والعربي، فهي لا تقل شأنًا عن كثير من المكتبات التي تحوي بين جدرانها كنوزا مهمة من هذا التراث الإنساني ألا وهو المخطوط.

وتتنوع مواضيع تلك المخطوطات بين الفقه، واللغة، والكيمياء، والطب، والأسرار، وغير ذلك من مختلف أنواع العلوم الإنسانية والإسلامية، ولا يخلو أن تجد ضمن المخطوطات مخطوطات بغير اللغة العربية، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدلُّ على سعة أفق معالي السيد، ولم يكن متحجر الفكر، أو مركِّزا على جانب معين، بل كان هدفه جمع المخطوط كيف وأيا كان، إيمانا منه بأن فائدته للأجيال المتعاقبة لا محالة ستكون مهمة، وقد اطلَّعت على بعض المخطوطات مكتوبة باللغة التركية، وأخرى بالفارسية، وأخرى بالسواحلية.

وقد سلك السيد في فهرسة مخطوطات المكتبة مسلكا معيَّنا وواضحا وهو مسلك الترقيم الأبجدي لعناوين المخطوطات، وهو مسلك سهل وبسيط يساعد الباحث في الرجوع إلى المخطوط بأيسر طريق، حيث تجد كلَّ مخطوط يبتدئ بالهمزة في خزانة الهمزة، وكلَّ مخطوط يبتدئ بحرف الباء في خزانة حرف الباء، وهكذا، إضافة إلى الأرقام الخاصة بكلِّ مخطوط، وهذا ما ستجده واضحا في فهرس مخطوطات المكتبة، حيث تجد لكلِّ مخطوط معلومات وافية بذاتية من المُستَسَلِّ العام للمخطوط، ثم اسم المخطوط، ثم الموضوع، ثم المؤلف، ثم اسم النَّاسِخ، ثم تاريخ النَّسخ، ثم إلى من نُسخ إن وجد، ثم بيانات المخطوط من مقاسه طولا وعرضا، وعدد أوراقه، ثم وصف للحالة العامة للمخطوط، ثم نوع الحبر، وعدد الأسطر، وبعض الملاحظات إن وجدت، إضافة إلى وجود كم هائل من الكتب المطبوعة التي تزيد عن السبعة آلاف عنوان، ولا بد أن أن نشير إلى وجود متحف تاريخي بين جنبات المكتبة جمع فيه السيد بعض الأثریات والتحف التي تحكي تاريخا وتنبيئ عن سيرة سلف كان له حضوره القوي في باب الحضارة والإنسانية.

المطلب الثاني: نماذج لبعض المخطوطات المتعلقة بالسير في المكتبة.

العنوان	الرقم داخل المكتبة
كتاب في السير	٨٦٥
سيرة الشيخ سعيد بن أحمد بن سعيد الكندي	١٨٥٩
سيرة مقتل الحسين	١٢٧٥
سير وأخبار	٤٢٥
السيرة الكلوية سيرة ابن المنذر	١٤٣٠ / ١٠٠٥
سيرة السيد سلطان بن أحمد بن سعيد وسيرة ولده السيد سعيد بن سلطان	١٣٤٠
السيرة العبادية	٤٩٢
سير	١٤٣٤
سيرة الإمام محمد بن عبد الله الخليلي	١٦١١
السير والأخبار قطعتين	١٨٧٣ / ١٨٧٢
سلاسل الذهب	٢٠٠٢
كتاب السير (مجموع) [مهم للبحث]	٢٠٢٣
كتاب السلاسل (نسخة مصورة)	٥٩
لقط الآثار المؤلف في صحار	٧٨
كتاب في غرائب الآثار	٨٠
أدبيات وسير وفتوح الشام	١٩٦ / ٢٤١ م.
مجلد به تاريخ من النبي صلى الله عليه وسلم إلى خلافة مروان بن الحكم	٢٠٩
مجموع	٢٣٧

العنوان	الرقم داخل المكتبة
كتاب الأخبار والآثار	٢٥٥
مخطوط تراجم لبعض الأعلام	٣١٠
الجواهر المنتقيات / الطبقات	٤٢٠
سيرة الشيخ أبي الحسن الكسائي	٤٥٣
قراطيس بها أخبار وقصص ومواعظ	٦٣٦
مجموعة سير وقصائد	٨٥٦
مجلد به سيرة سعيد بن أحمد بن سعيد الكندي	٨٥٩
مجموعة فقهية سير وخطب	٨٥٧
كتاب فيه كتب عديدة في الفتن الأولى وفتن العمانيين	٩١١
سيرة أبي المنذر سلمة بن مسلم العوتي فالسيرة الكلوية للقلهاتي	١٠٠٤
جزء من سيرة بن هشام	١٠٠٩
لواقح الأخبار في طبقات الأخبار	١١٠٦
مذكرات القاضي عبد الغني بن أبي بكر الأموي بخطه سير وأخبار عن السلطان سعيد بن سلطان	١٢٣٦
مذكرات الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني قاضي زنجبار	١٣٤٦ / ١٣٤٥
مجلد به سير وأحداث	١٣٥٨
تاريخ إبطال الرق في عهد السلطان برغش بن سعيد	١٣٦١
أخبار وقصص	١٤١٩
قصص وأخبار	١٤٣٣
مؤلف لابن رزيق	١٤٣٤
روض الاخبار	١٥٠٧

١٥٠٩	الصحيفة السجادية
١٧١٣	نبذة تاريخية بخط عبد العزيز بن عبد الغني الأموي
١٧٨٣	فصل القضية في نهج الإباضية
١٨١١	القصيدة الحلوانية
١٩٦٠ / ١٩٥٩	كتاب في السير والأخبار
٢٠٣٤	الطالع السعيد نبذ من تاريخ الأمام أحمد بن سعيد
٢٣٥	شرح قصيدة نشوان بن سعيد في ملوك حمير
١٠٣١	مجموعة أشعار وسير

• المبحث الثالث: كتاب السير لسليمان بن ناصر بن سليمان الإسماعيلي.

المطلب الأول: ترجمة مختصرة للمؤلف سليمان بن ناصر بن سليمان بن عبد الله الإسماعيلي^(١).

هو الشيخ الفقيه القاضي سليمان بن ناصر بن سليمان بن عبد الله الإسماعيلي، من علماء القرن الثاني عشر الهجري، كان ناظماً للشعر مجيداً فيه، من علماء ولاية إبرا، من العلماء الذين اشتهر أنه تلقى العلم عنهم: الشيخ راشد بن سعيد الجهضمي، عرف الشيخ سليمان بجودة خطّه وروعته حيث نسخ كثيراً من الكتب المهمة التي كتب الله تعالى لها الحفظ وكان سبباً في ذلك، وله مؤلفات قيمة وإن لم تكن كثيرة فهي على قدر كبير من الأهمية، من ذلك:

- ١- كتاب ضخّم ومهم جمع فيه مجموعة من سير المسلمين وترواح هذه السير حوالي ٧٦ سيرة، وهو ما عليه مدار هذه الدراسة المقتضبة.
- ٢- رسالة قيمة توجد نسخة منها في مكتبة الشيخ السالمي ببديّة.
- ٣- مجموعة من الأسئلة والأجوبة تنوعت بين النظم والنثر.

(١) فهد بن علي بن هاشل السعدي، معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية، قسم المشرق، مكتبة الجيل الواعد، سلطنة عمان، ط ١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، ج ٢، ص ١٥٥، تر: ٣٨٠.

٤- قصيدتان رثى فيهما الشيخين: راشد بن سعيد الجهضمي، وسالم بن راشد القصابي.

لم يحدد تاريخ وفاته بدقة إلا أنه كانا حيا على الراجح سنة: (١١٨٦ هـ الموافق ل: ١٧٧٢م).

المطلب الثاني: توصيف المخطوط.

يقع هذا المخطوط القيم في بابه في خزانة حرف السين من خزائن مخطوطات مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي رحمه الله تعالى، ويحمل رقم: (٢٠٢٣)، يضم بين طياته (٦٧٢ صفحة) فهو كتاب كبير، صفحاته من الحجم الكبير، مقاس الصفحة الواحدة منه: ٣٢ سم طولاً و ٢٣ سم عرضاً، تحمل كل صفحة من صفحاته ما يقارب ٢٦ سطراً، فالكتاب ضخم وكبير، تولى نسخه الشيخ عبد الله بن سعيد المسكري، وذلك يوم الجمعة ٢٤ جمادى الأولى ١١٨٣ هـ، وهذه المعلومة موجودة في آخر سيرة مشايخ أهل المغرب من أهل نفوسا بصفحة ٦٦٧ من المخطوط. كما نجد ذلك في أول صفحة من صفحات المخطوط بخط رائع ممتاز وعليه نقشة بدیعة من أنامل الناسخ حسبما يبدو.

حالة المخطوط جيدة في جزء كبير من المخطوط، ويرثى لها في جزء آخر منه، ذلك أن الرمة أتت على كم هائل من المخطوط فأتلفته وتحول المخطوط إلى ثوب كبيرة ضاع معها كثير من جوهر الموضوع، ولعل الخرم الحقيقي المؤثر على المادة يبدأ من الصفحة رقم: (٥٥٢) إلى آخر المخطوط، الأمر الذي يجعل عملية ترميمه مهمة مستعجلة ولا بد منها لعدة أمور، أهمها حماية وحفظ الوثائق والمخطوطات والتاريخ من الضياع، استعمل الناسخ الخط المشرقي الواضح الرائع المفهوم، واستعمل في نسخه اللون الأحمر والأسود وإن كان الأسود هو اللون الأساسي، تناول الشيخ في الكتاب عدة سير لعلماء ومشايخ وأئمة لهم دورهم وسيطهم وأثرهم في التاريخ، ومجموع هذه السير ست وسبعون سيرة، مع وجود بعض الأجوبة والكتب إلى بعض العلماء والفقهاء وعدت على أنها سير.

• بداية المخطوط

يبتدئ المخطوط بقول الشيخ: ...بسم الله الرحمن الرحيم سيرة النبي عليه السلام كتبها للعلاء بن الحضرمي، هذا كتاب من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي نبي الله

ورسوله إلى خلقه كافة سيرة للعلاء بن الحضرمي ومن معه من المسلمين عهدا عهدته نبي الله إليهم: أيها المسلمون اتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا للعلاء بن الحضرمي فإنني استعملته عليكم وأمرته بتقوى الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن يلين لكم الجناح وأن يحسن فيكم السيرة بالحق وأن يحسن ولا يتكم ويشاوركم في الأمور، كلها وأن يحكم بينكم وبين من بغى من الناس بما أنزل الله في كتابه من العدل فإذا حكم وعدل وأقسط واسترحم فرحم فاستمعوا له وأطيعوا وأحسنوا موازرتة ومعونته فإن لي عليكم من الله حقا عظيما لا تقدرون على قدر ما يجب لي عليكم ولا تبلغ العقول كنه عظمة الله وحق رسوله .. (الصفحة الأولى من المخطوط).

• نهاية المخطوط

ينتهي المخطوط بقصيدة فيها خرم واضح كما هو الحال في آخر الأبيات التي جاءت في آخر صفحة من المخطوط مفادها:

من لي بقوم أطاعوا أمر ربهم لفرض كان أو سنن
من لي بقوم أولي تقوى قلوبهم من جميع الغش والعرن
ثم الصلاة على المختار وسيدن ما انهل وابل ماء العارض الهتن

تمت القصيدة الحسنة بعون الله وحسن توفيقه وقد أجاد ناظمها وأحسن وهي ستة وثمانون بيتا وكان تمامها بالجمعة الزهراء وواحد وعشرين الحج سنة ١١٨٢ هـ (الصفحة الأخيرة من المخطوط).

المطلب الثالث: واقع مخطوط [كتاب] السير [والجوابات].

قد يبدو عنوان المطلب غريبا نوعا ما؛ فما المقصود بواقع كتاب السير؟ من المعلوم لدى كثير من الباحثين والمطلعين على كتب السير والجوابات أن هنالك كتابا قيما، يحمل اسم [السير و الجوابات لعلماء وأئمة عمان]، من تحقيق الدكتورة: سيدة إسماعيل كاشف، سنة ١٩٨٦ م، بأمر من معالي وزير وزارة التراث القومي والثقافة العمانية، السيد فيصل بن علي بن فيصل وزير التراث القومي والثقافة آنذاك؛ فبعد الاطلاع على هذا الكتب القيم بذلت فيه الدكتورة جهدا قيما ومعتبرا في تصويب النص وإبداء بعض الملاحظات، وتخريج الآيات والأحاديث، أحسست

بأمر غريب وهو أن هذه المعلومات والتراجم مرّت علي قريبا في مخطوط من مخطوطات مكتبة السيد محمد بن أحمد، وأنا أقوم بعمل فهرسة دقيقة لبعض المخطوطات، فاكتشفت والله الحمد أن التراجم المذكورة موجودة كلها في مخطوط بالمكتبة تحت عنوان: «السير»، برقم: ٢٠٢٣، حرف السين، الأمر الذي جعلني أقابل ما ذكرته المحققة للكتاب بما هو ورا في المخطوط، فاكتشفت أن الدكتور و بناء على ما ذكرته في مقدمة التحقيق قد اعتمدت على نسخة واحدة أثناء تحقيقها للكتاب وهي نسخة وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان، والتي تحمل رقم: ١٨٥٤ وهو رقم عام ؛ ورقم: ٢ وهو رقم خاص. وبناء على هذه النسخة قدّمت الدكتورة البيانات الآتية للمخطوط:

١- ضُمّت هذه السير والجوابات في مجلد واحد وفي غلاف واحد مع مخطوط (كتاب الجوهر المقتصر)، ومع مخطوط كتاب (الاهتداء) وصلة كتاب الاهتداء.

٢- بدأ مخطوط (السير والجوابات) بفهرس في صفحتي ١٩٥ - ١٩٦ في المخطوط، ثم جمعت (السير والجوابات) في المخطوط من صفحة ١٩٧ إلى نهاية صفحة ٦٦٩، وهي آخر صفحات المخطوط تقريبا.

٣- عدد السير التي وردت في هذا المخطوط ٣٤ سيرة وقد رأينا تسهيلا للباحث وللقارئ أن نقسمها إلى جزئين ؛ الجزء الأول ويبدأ من السيرة الأولى إلى نهاية السيرة الثامنة عشرة وذلك لارتباط السير ١٦ و ١٧ و ١٨ بعضها مع بعض، ويبدأ الجزء الأول من صفحة ١٩٧ إلى صفحة ٤٢٩ من المخطوط. أما الجزء الثاني فيبدأ من السيرة التاسعة عشرة إلى نهاية السيرة الرابعة والثلاثين، وهي التي تنتهي بها المخطوطة أيضا.

٤- ظاهر من المخطوطة أن هذه السير جُمِعت، [أي مجموعة] ولهذا كُتِبَ في فهرس المخطوطة في صفحة ١٩٥: (معرفة عدد ما جمع في هذا الكتاب من السير والجوابات عن العلماء والأئمة رحمهم الله تعالى). ثم يقول من جمعها: أول ذلك كتاب الأحداث والصفات تأليف أبي المؤثر وفي آخر الفهرس وفي صفحة ١٩٦ من المخطوطة، نرى جامع هذه السير أو غيره يكتب عنوانا آخر لهذه السير أكثر تفصيلا فيقول: كتاب سي الأئمة القائمين بالحق في الأمة الكاشفين لكل غمة الذابيين عن دينهم كل مدلهمة، على أصول مذهب الاستقامة من الإباضية المحقة رحمهم

الله تعالى.

٥- هناك ثلاث سير في آخر المخطوط لم تدرج في فهرس المخطوط أولها سيرة الإمام عبد الله بن إباح إلى عبد الملك بن مروان (صفحة ٦١٣ - ٦٢٣ من المخطوط). السيرة الثانية سيرة شبيب بن عطية العماني (صفحة ٦٢٣ - ٦٤٦ في المخطوط)، ثم ينتهي المخطوط بكتاب الموازنة عن الشيخ العالم أبي محمد عبد الله بن محمد بن بركة البلهوي^(١) رحمه الله (صفحة ٦٤٦ إلى نهاية صفحة ٦٦٩) وهي آخر صفحات المخطوط.

٦- لم يتبين على وجه التحقيق من الذي قام بجمع هذه السير والجوابات ولا في أي عصر جمعت، ولكننا لاحظنا أن الغالبية العظمى من هذه السير التي كتبت منذ القرن الثالث الهجري كتبها أئمة وعلماء عمانيون من الفرقة الرستاقية، أي من هؤلاء الذين كانوا يستنكرون ما قام به موسى بن موسى ومن معه، من عزل الإمام الصلت بن مالك وتولية راشد بن النظر وهذا مما يدعوننا إلى أن نرجح أن جامع هذه السير والجوابات هو نفسه مؤلف كتاب الجوهر المقتصر، وكتاب الاهتداء، والسير الملحقة بكتاب الاهتداء أعني العالم الفقيه: أبا بكر أحمد بن عبد الله بن موسى الكندي النزواني^(٢). هذه المعلومات القيمة الطيبة التي توصلت إليها الباحثة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف بعد أن درست النسخة المخطوطة - التي تحصلت عليها من وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان- دراسة لا بأس بها، محاولة إبراز كل ما لاحظته في مخطوط السير مما

(١) ابن بركة: هو عبد الله بن محمد السلمي المشهور بابن بركة (ق: ٤٤هـ)؛ من كبار علماء القرن الرابع الهجري، أصولي وفقيه ومكلم، لغوي، وقد حمل العلم عن الشيخ: أبو مالك غسان بن محمد الصلاني، والإمام سعيد بن عبد الله (ت: ٣٢٨هـ). ترك الشيخ ابن بركة آثاراً جلية، منها كتابه (الجامع) المشهور، ورسالة التعارف والتقييد، وكتاب المبدأ في خلق السماوات والأرض. من أشهر تلاميذه: أبو الحسن علي بن محمد البسيوي، وقد قصده الكثير من طلبة العلم من خارج عمان، وكان يلقب بشيخ المغاربة. ينظر: تحفة الأعيان، ١/٣١٦. محدث صالح ناصر، سلطان الشيباني، معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، تر: ٨٣٣، ص: ٢٨٥.

(٢) (ت: ٥٥٧هـ): هو العالم المجتهد الفقيه أبو بكر أحمد بن عبد الله بن موسى بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن المقداد الكندي الأفلوجي، من سمد نزوى. تلقى العلم على يد الفقيه أبي بكر النزواني وأحمد بن محمد بن صالح الغلاقلي. وقد ترك لنا آثاراً في شتى العلوم والفنون، كان أهمها: كتاب «المصنف» في الأديان والأحكام يقع في اثنين وأربعين جزءاً، وله كتاب «التخصيص» في الولاية والبراءة، وله كتاب «الاهتداء» في افتراق أهل عمان إلى نزوانية ورستاقية، وكتاب «التسهيل» في الميراث، وكتاب «التيسير» في النحو، وكتاب «التقريب» في اللغة، وكتاب سيرة البررة، وكتاب «جوهر المقتصر»، وكتاب «الذخيرة»، وله سيرة يرد فيها على من اعترض على محاربة الإمام محمد بن أبي غسان لأهل العقر بنزوى، وله أشعار في الأدب والفقه. وهو الذي قام بترتيب أبواب كتاب بيان الشرع، وهو الذي سماه بهذا الاسم. ويعتبر خاتمة العلماء الفطاحل في القرن السادس. وتوفي رحمه الله عشية الاثنين ١٥ ربيع الآخر ٥٧٥هـ، ودفن بموضع المض، وقبره موجود إلى يومنا هذا. ينظر ترجمته: الاهتداء، ١٩٥، منهج الطالبين، ٦٢٦/١. قلائد الجمان، ١٩، البطاشي، إتحاف الأعيان، ١/٢٣٧، الفارسي، نزوى عبر الأيام، ١٢٣-١٢٥.

من شأنه أن يسهم في إثراء المكتبة الإسلامية ويخدم الباحثين، وهو جهد علمي معتبر، إلا أنه مما شذَّ انتباهي عدم إشارة الدكتوراة إلى نسخة أخرى لهذه المخطوطة، خاصة بعدما توصلت بحمد الله تعالى وبعد اطلاعي المتواضع على نسخة أخرى لهذه السير والجوابات في مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، والتي تحمل رقم: (٢٠٢٣)، مع أن عدداً النسخ الخاصة بهذه السير والتي تنسب إلى مؤلف مجهول في الأصل، تصل إلى حوالي عشر نسخ، منها في وزارة التراث، ومكتبة السيد، ووقف السيفين كما ذكر لي الأخ الباحث محمد السيفي، فحاولت استدراك بعض ما أشارت إليه الدكتوراة، وأكدت كثيراً مما رآته، وحاولت أن أبين الجديد الذي لم تتعرض له الدكتوراة وهو أمر وارد نظراً لاعتمادها على نسخة واحدة وهي نسخة وزارة التراث في ذلك العهد، وقد سجلت بداية هذه الملاحظات التي سيأتي بيانها بكل تفصيل لاحقاً:

١- من خلال الاطلاع على المخطوط الموجود بمكتبة السيد اتضح لي أن هناك كتاباً آخر في السير يحمل اسم (سير) من جمع الشيخ سليمان بن ناصر الإسماعيلي، وكان ناسخه: الشيخ عبد الله بن سعيد المسكري؛ وهذا ما دَوَّن في أول المخطوط، فقد جاء فيه: « هذا كتاب السير للوائح بالملك الديان سليمان بن ناصر بن سليمان الإسماعيلي حرره عبد الله بن سعيد المسكري »^(١)، من علماء القرن الثاني عشر الهجري. وقد ذكر الشيخ سليمان في نهاية السير قصيدة رائعة في وصف الكتاب: في الصفحة ٥٨٩ من المخطوط في أبيات رائعة منها:

٢- من عجيب الأمور أن أجد في مخطوط آخر في السير بخزانة حرف السين بمكتبة السيد برقم: ٨٦٥، وهذا المخطوط مجهول النسخ والمؤلف؛ إلا أن المؤلف يذَّكُر كثيراً من الأمور التي تعد مفاتيح للوصول إلى بعض الحلول لإشكالات مهمة؛ كإشكال نسبة كتاب السير الذي بين أيدينا اليوم، فمما وجدته مكتوباً بين ثنايا المخطوط: باب في الإمام العالم وغير العالم والوالي العالم وغير العالم والفرق من أن يجوز للإمام أن يوليه. من القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى في كتاب سير الأئمة؛ تأليف: أبو المؤثر^(٢)، فهذه العبارة تأليف: أبي المؤثر، تدل دلالة واضحة على

(١) الورقة الأولى من المخطوطة، رقم: ٢٠٢٣، خزانة حرف السين، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي.

(٢) مخطوط السير، رقم (٨٦٥) مكتبة السيد محمد بن أحمد، ص ٢٧٥.

أن الشيخ أبا المؤثر الصلت بن خميس الخروصي^(١) المتوفي سنة ٢٧٨ هـ أي في نهاية القرن الثالث الهجري- له هو أيضا كتاب في السير، على حسب ما ذكر في المخطوط.

وبعد الاطلاع على النسخة المخطوطة الموجودة في المكتبة المتعلقة بالسير وما دونته الباحثة سيدة إسماعيل كاشف في تحقيقها وجدت نفس النص المتعلق بهذه الجزئية الوارد ذكرها في باب الإمام العالم وغير العالم، إلا أن الإشكال الذي يفرض نفسه هو: أن كثيرا من السير التي ذكرت في الكتاب المحقق جاءت بعد عصر حياة الإمام أبي المؤثر، هنا يمكننا القول إن للشيخ أبي المؤثر سيرا غير هذه المذكورة في هذا المخطوط؟! وربما من جمع هذه السير جمع ما كتبه الشيخ أبي المؤثر وأضاف عليه إضافات، وهو الحاصل في المخطوطة رقم (٢٠٢٣) الموجودة بمكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، حيث تبين لي أن المخطوط الموجود في المكتبة برقم (٢٠٢٣) والذي يحمل عنوان السير، إنما هو من جمع سليمان بن ناصر الإسماعيلي، فقد جمع ما كتب من السير المنسوبة لمؤلف مجهول وأضاف عليها سيرا أخرى، وأوضح دليل على هذا تواريخ بعض السير والجوابات، فليس من المعقول أن يدون الشيخ الإسماعيلي سيرا في القرن الثالث والرابع الهجري وهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري، إلا إذا كان قد جمعها ورواها عن قبله. كما أنه ليس من المعقول أن يؤلف عالم عاش في القرن الثالث والرابع الهجري سيرا ويجمع جوابات للقرن الثاني عشر الهجري.

٣- يقع هذا المخطوط في ٦٧٢ صفحة وقع خرم واضح في الصفحات الأخيرة، إلا أن هذا الخرم لم يؤثر على المخطوط كلية، فقد بقي من كل صفحة ما يدل على المقصود والمعنى العام للفكرة.

٤- لم يضم مع مخطوط السير للإسماعيلي أي كتاب آخر غير السير والجوابات على خلاف

(١) عالم جليل، وفقه كبير، من قرية بهلا، كان كفيف البصر، يعد من العلماء البارزين في القرن الثالث الهجري. هو واحد من ثلاثة ضرب بهم المثل في عمان فقيل: رجعت عمان إلى أصم وأعرج وأعمى، فكان أبو المؤثر هو الأعمى. كان من أصحاب المشورة في اختيار الإمام الصلت بن مالك الخروصي سنة ٢٣٧ هـ. وكان ممن استمسك بإمامته لما عزله موسى بن موسى وراشد بن النضر. كان من المبايعين للإمام عزان بن تميم سنة ٢٧٨ هـ، حمل العلم عن محمد بن محبوب بن الرحيل، ونبهان بن عثمان وغيرهما. من مواقفه أنه نهى المتبرئين من المهنا بن جيفر عن إعلان برائتهم حتى لا يؤدي ذلك إلى الفتنة، فكف المتبرؤون عما هم عليه وأضرموا في أنفسهم البراءة. له أجوبة وفتاوى كثيرة ترخر بها كتب الفقه والتاريخ. من مؤلفاته كتاب: «الأحداث والصفات». وتفسير آيات الأحكام وقد نسب الكتاب إلى تلميذه محمد بن الحواري، ولعله نسخه فنسب إليه. ينظر ترجمته: محمد ناصر، سلطان الشيباني، معجم أعلام الإياضية، قسم المشرق، ص ٢٤٨، تر: ٧١٧.

النسخة التي اعتمدها الدكتورة سيدة كاشف في تحقيقها. إلا أن هنالك إضافات من الناسخ والمؤلف على الصحيح، فمما ورد في الصفحة (٥٩٢) من المخطوط قول الشيخ سليمان بن ناصر الإسماعيلي خاتمة للكتاب كما أشار الناسخ:

في سير المسلمين الشادة الغرر	هذا كتاب شريف ***** الأثر
مثلّ أتى في أصول الدين والسير	قد فاق الشرع تصنيفا فليس له
ومعدن الخير ياذا السمع والبصر	فهو الدليل هو الهادي ونور هدي
زيف يعاب حسين الذكر والنظر	كنز من التبر والإبريز ليس به
والكيماء لمحتاج ومفتقر	وهو الأنيس إذا لم تلق ذا *****
يسلي عن الهم والأحزان والضجر	وهو الجليس جليس *****
في قالب العلم قد صحت من الكدر	وحبذا من أصول فيه قد سكبت
يا طالب العلم هذا خير مذكر	فرحان حاز خيرا لا فناء له
ومن جموع اليوم هائل عسر	أبقى وأنفع من مال ومن خدم
في مقعد الصدق في الجنات والنه	أدعوك يا رب أن تسكن مؤلفه
علم الغريزة حتى فاز بالظفر	إذ أثر العلم من علم المواد إلى
يوما إلى الرتبة العليا بلا نكر	نعم الكتاب الذي يسمو بصاحبه
محرر الخط عبد الله في السطر	طوبى لمالكه كوبي لناسخه
إبرا وفاقت جميع السهل والوعر	نسل سعيد الذي ازدانت بطلعته
فاق البرية من بدو ومن حضر	المسكري الأبى المصقع الفطن

كما قال الناسخ الشيه عبد الله بن سعيد المسكري كما سبق ذكره في القصيدة، أبيات
مهمة تؤرخ لهذا المخطوط من جملة ما قال:

بتاسع يوم من ربيع المؤخر	فرغنا فرغنا بحمد الله ذي الكرم الوتر
وعام مضى بعد الثمانين كملا	ومائة بعد الألف يا صاح في الدهر
وبالجمعة الزهراء كان تمامه	وفي ساعة ***** المريخ تمّ بلانكر
كتاب سما في الكتب نورا وحكمة	به ***** أعلام كالشمس والبدر
حوى دين محبوب ودين رلسب	ودين ابن عباس النقي من الكدر
وأبناء محبوب صلت وجابر	وخالد قحطان المؤيد بالطهر
تنتيه به القرأء في كل محفل	وترفوا إليه الأبصار بالعجب والفكر

إلى أن يقول:

ومن لي بتصنيف يماثل وضعه	وهيهات بحر النيل يوزن بالزجر
ومن لي بمخلوق كمثل ابن ناصر	سليمان ربّ الحلم والعلم والقدر
كريم إذا استوهبته جمع ماله	يجود ولو بالنفس في العسر واليسر
ويغنيك من فقر إذا جنت سائلا	كما أحببت الأمطار مجدوبة القفر.

وينبغي التنبيه إلى أن التاريخ المذكور في القصيدة والذي يبين يوم وشهر وسنة النسخ
يتعلق بجزء كبير من السير والجوابات والمذكورة، إضافة إلى أن هنالك تواريخ أخرى
دونت فيها بعض السير والجوابات؛ فنجد أن السيرة الموجهة لأهل المغرب تم نسخها بتاريخ
الجمعة ٢٤ جمادى الأولى ١١٨٢ هجرية. والقصيدة التي ختم بها المخطوط كان تاريخ نسخها:
الجمعة ٢١ ذي الحجة ١١٨٢ هجرية. بمعنى سنة تقريبا من تاريخ كتابة السير والجوابات

كما تقدم^(١)

٥- كل التراجم التي ذكرتها مُحَقِّقَةُ كتاب السير والجوابات موجودة في المخطوط وتزيد عليها، وهذا ما سأذكره بتفصيل بحول الله تعالى وهو الأمر الذي يبين أن جامع كتاب السير الموجود بين أيدينا هو سليمان بن ناصر الإسماعيلي. مضيفا على ما وجدته سابقا من سير وجوابات قامت بتحقيقها الدكتورة سيدة. ولعل ما يؤكد هذه النقطة أن عدد السير و الجوابات الموجودة في نسخة مكتبة السيد هي ٧٥ سيرة وجواب؛ أما ما ذكر في الكتاب المحقق (٣٤ سيرة وجواب)؛ بمعنى أن نسخة المكتبة تزيد عما ذكرت المحققة بحوالي ٤١ سيرة وجوابا.

٦- عنوان المخطوط الذي اختاره الإسماعيلي هو: كتاب السير، كما هو مذكور في الورقة الأولى، أو: (كتاب السير وجمهور الأثر) من خلال ما ذكر في الصفحة (٥٨٨) من المخطوط فقد ذكر الناسخ مايلي:

«تمت السيرة وقد انقضى كتاب السير وجمهور الأثر الجامع لسير المسلمين الفقهاء المهتدين العلماء والأنمة الراشدين والأولياء الذين أثروا الدين على الدنيا، واستحبوا الفنا على البقيا، جعلنا الله ممن سلك سبيلهم واتبع..»^(٢).

٧- ترجيح محققة الكتاب أن الكندي هو جامع السير أمر نسبي لا يمكن الجزم بأنه غير صحيح، كما لا يمكن الجزم بأنه صحيح ودقيق، ذلك أن الأمر يحتاج لمزيد من التثبت والتأكيد إذا علمنا أن كثيرا من كتب السير والجوابات لم تُنسب إلى أصحابها أو أن كثيرا منها جهل مؤلفه على الصحيح الراجح، خاصة ما دَوّن في القرون الهجرية الأولى.

٨- من الملاحظات التي ينبغي تسجيلها عن المخطوط أن الناسخ أضاف بعض السير والجوابات بعد أن كتب ديباجة الخاتمة التي تعنون للكتاب وتبين تاريخ النسخ، فقد أضاف بعد القصيدتين اللتين تتحدثان عن المخطوط مدحا له وتاريخا له؛ سيرة لمحمد

(١) للتأكد من التواريخ ينظر، مخطوط السير، رقم: (٢٠٢٣)، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، ص ٦٦٨. و ص ٦٧٢.

(٢) مخطوط السير، رقم (٢٠٢٣) مكتبة السيد محمد بن أحمد، ص ٥٨٨.

علي بن علي وأخيه الحسن بنعلي الكلبيين إلى غير ذلك مما ورد ذكره في الفهرس ولم
أورد الفهرس كاملا خشية الإطالة.

المطلب الرابع: المنهج المتبع في تدوين كتاب السير:

إن المطلع على السير والجوابات الواردة في مخطوط (السير) يلاحظ وبكل وضوح
المنهج الذي سلكه كتاب السير والجوابات، من حيث اعتمادهم على أمور ثابتة وواضحة؛ من
ذلك:

١- القرآن الكريم

نجد حضور أي القرآن الكريم داخل السير و الجوابات قويا جدا، الأمر الذي يدل دلالة واضحة
على تمكن هؤلاء الكتاب من كتاب الله، واستحضارهم أحكام الشريعة الإسلامية في كل ما يرونه
من أمور تتعلق بمختلف مجالات الحياة، ولعل هذه العبارة الواردة في المخطوط لتؤكد وبكل
وضوح صحة ما اعتمدناه ولا حزننا حيث ورد في سيرة الإمام الصلت بن مالك ما يلي نصه:
.. واعملوا رحمنا الله وإياكم أن أبواب الوقوف والجهالة معروفة بينة في كتاب الله وسنة رسوله الله
صلى الله عليه وسلم..^(١)، وهذا القول يدل دلالة صريحة على جعل القرآن والسنة معتمدا على
الأحكام، لذا نجد أن أغلبية السير والجوابات لا تخلوا من هذين المصدرين التشريعيين الأصليين
فمن باب التمثيل لا الحصر نذكر هذه النماذج:

إلى أولا: ما ورد من آيات في سيرة شبيب بن عطية؛ من ذلك قول الله تعالى: ﴿وتعاونوا على
البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض
أقاموا الصلاة أتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور﴾^(٣)، وقوله تعالى:
﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾^(٤)،

(١) مخطوط السير، رقم: (٢٠٢٣) مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، ص ١٦٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٣.

ومنه قوله تعالى: ﴿ هذا بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها ﴾^(١).

٢- السنة النبوية الشريفة الفعلية والقولية والتقريرية

لم يختلف اهتمام أصحاب السير والجوابات بالقرآن الكريم عن اهتمامهم بالسنة النبوية الشريفة المطهرة، وحينما نذكر مصطلح السنة هنا نقصد به السنة القولية والفعلية وكذا التقريرية، فمن خلال تصفحي وتأملي لهذه السير الجوابات وجدت أن الاعتماد على السنة كان واضحا جدا في تعليل الأحكام، والاجتهادات، وربط بعض الأحكام ببعضها ببعض، ونظرا لعدم إمكانية استقراء واستقصاء كل ما ورد في ذلك سأكتفي بذكر بعض النماذج وأحيل إلى بعضها من باب التأكد وإلا فالأصل في المخطوط واضح؛ فمن ذلك ما ورد في جواب من أبي المؤثر الصلت بن خميس إلى أبي جابر محمد بن جعفر قوله: ...وقد بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من تعلم العلم ليباهي به العلماء ويماري به السفهاء ويصرف وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار »^(٢)، من السنة الفعلية ما ورد في قول أبي المؤثر: .وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث القليل إلى الكثير^(٣) وهنا يقصد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث نفرا قليلين إلى أناس كثيرين في بعض الحالات لقتالهم، وقد جاء هذه الاستشهاد من أبي المؤثر في معرض حديثه عن الجهاد والقتال والمقاتلة.

٣- الاستشهاد بأثار الصحابة والتابعين الأخيار:

وهذا ما نجده ماثورا في أكثر من سيرة وجواب لتأكيد حكم شرع، أو اعتماد قول ورأي واجتهاد، من ذلك ما ذكر في سيرة أبي المؤثر في التحريض على الجهاد حين يكون لازما، قال: ...وبلغنا عن أبي بكر رحمة الله عليه لما بعث جيش أسامة بن زيد قال له المسلمون: لو حبست جيش أسامة بن زيد تقوِّي به فيما قبلك فإن المسلمين قليل والإسلام ضعيف، فقال أبو بكر رحمة الله عليه: إن جيشا غمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإنفاذه لأنفذته ولو أكلتني السباع بالمدينة،

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣ . للاستزادة من ذلك ينظر مثلا في المخطوط صفحات: ٨١، ٨٢، ١٠٤، ١٢٧، ١٤٤، ٣١٧، ٤٣٥، ٥٤٩، ٦٤٤، ٢١٦.

(٢) مخطوط السير، رقم: (٢٠٢٣) مكتبة السيد محمد بن أحمد، ص ١٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩١ . للاستزادة ينظر مثلا في المخطوط صفحات: ٩٢، ١٠٧، ١٢٦، ١٢٩، ١٦٨، ٢١٣، ٢٣٤، ٢١٦.

فبعث أبو بكر رحمه الله الجيش إلى الشام ولم ينظر في قولهم...^(١)، ومن ذلك أيضا ما ذكر في رسالة هارون بن سليمان إلى الإمام المهنا بن جعفر في شأن محبوب بن الرحيل، وقد كان الحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث على إقامة شرع الله تعالى وحدوده كما أمر، وفعل نبيه والصحابه من بعده فذكر من ذلك ما فعله عمر بن الخطاب، فقال: ...وقد أتى عمر بن الخطاب بالمغيرة بن شعبة فشهد عليه أربعة بأنهم رأوه بين رجلي امرأة مجتهدا في الحركة قد جلس منها مجلس الرجل من أهله فقال ثلاثة منهم رأينا فرجه في فرجها مثل المروود في المكحلة، وقال الآخر فإني لم أره ولكني رأيتهما متجردين وهو جالس منها مجلس الرجل من أهله، وأجمعوا له جميعا على تجرد ومجلسه منها مجلس الرجل من أهله وتفرقوا في رؤية الفرج فجلد الذين زعموا أنهم رأوا فرجه في فرجها ورأهم قاذفين فجلد كل واحد منهما ثمانين جلدة واستتابهم ولم يجلد المرأة ولا المغيرة ولا الشاهد الرابع ولم يستتب المرأة ولا المغيرة ولا الشاهد الرابع ولو كان ذلك بلغ بواحد منهم عند عمر كفرا لاستتابه ولو كان ما ذكر ممن تجردا وجلسه منها جلوس الرجل من أهله مكفرا لهما عنده لكان الشاهد الذي شهد عليهما بالتجرد والجلوس منها مجلس الرجل من أهله كفرا عند عمر لما رماها به مما لم يقبل قوله فيها ولا استتابه من كفارة إياهما بما وصف منهما لأن من كفر مؤمنا فهو أولى بالكفر منه ولم نجده استتابها ولا استتاب الشاهد الرابع بما رماها من التجرد والاجماع ولم يجلده كما جلد الثلاثة الذين شهدوا عليها ولم يستتب كما استتاب الثلاثة الذين جلدتهم فوقنا لوقفه عن كل ما كان مثله...^(٢).

ومما ورد في سيرة الإمام راشد بن سعيد رحمه الله والذي يدل على الاستشهاد بآثار الصحابة والتابعين الأخيار ما جاء عن في قصة وفاء الإمام أبي الشعثاء جابر بن زيد رحمه الله؛ ومما جاء في ذلك: وقد روي عن الحسن بن أبي الحسن البصري دخل على جابر بن زيد رحمه الله وهو يجود بنفسه للموت، فقال له: يا أبا الشعثاء قل لا إله إلا الله، فسكت جابر، فأعاد عليه القول، فقال يا أبا الشعثاء قل: لا إله إلا الله، فلم يجب، فقال الحسن لا حول ولا قوة إلا بالله

(١) مخطوط السير، رقم: (٢٠٢٣) مكتبة السيد محمد بن أحمد، ص ١٩٠.

(٢) مخطوط السير، رقم: (٢٠٢٣) مكتبة السيد محمد بن أحمد، ص ٢٢٠.

رجل مثل جابر بن زيد لم يرزق عند موته شهادة إن لا إله إلا الله ، ثم أعاد عليه القول ثالثة، فقال له يا أبا الشعثاء، قل: لا إله إلا الله، فقال جابر: قد طال ما قلناها إن تُقبِلت، ثم تلا هذه الآية: هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون^(١)، قال الحسن: عالم وربُّ الكعبة^(٢).

ومن ذلك ما جاء في سيرة أبي الحسن علي بن محمد البسياني في موضوع الإمامة حيث تكلم بكل استفاضة عن هذا المبحث وغيره مستدلا ومستشهدا بما قاله الله تعالى وقاله نبيه الكريم، واستدل بما قاله أبو بكر الصديق رحمه الله تعالى في باب طاعة ولي الأمر ما أطاع الله تعالى فقال: ورواية أخرى [يقصد عن النبي صلى الله عليه وسلم]: «إن وليكم حبشي فأقام فيكم كتاب الله وسنتي فاستمعوا له وأطيعوه»، وقال أبو بكر: قد وُلِّيتُ هذا الأمر عليكم ولست بأخيركم فأطيعوني ما أطعت الله؛ فإذا خالفت أمره فلا طاعة لي عليكم...^(٣)

٤ - المصادر التاريخية

من المميزات التي ميزت هذه السير والجوابات، الاستشهاد بالمصادر التاريخية والمقصود بالمصادر التاريخية ذكر بعض المصنفات أو العلماء الذين قالوا بقول من الأقوال فمن ذلك ما ورد في سيرة الشيخ الفقيه أبي قحطان خالد بن قحطان رحمه الله، حيث تكلم عن آدم وحواء وعن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الخلافة والإمامة الإباضية إلى الصلت بن مالك وخروج موسى بن موسى، ذكر ما نصُّه: وفي كتابا لصلت بن مالك إلى الجمهور بن سنجة يخبره كيف تمَّ اعتزاله...^(٤).

ومن ذلك ما ورد في سيرة أحمد بن موسى بن عبد الله بن موسى في قوله: وأما قوله من دفن الأنهار، فغفكان يعني حبس أنهار البغاة فإن ذلك عنده لا يجوز بإجماع فليت شعري

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

(٢) مخطوط السير، رقم: (٢٠٢٣) مكتبة السيد محمد بن أحمد، ص ٢٧٧، ٢٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٠، للاستزادة من هذه الجزئية ينظر مثلا مخطوط السير صفحات: ١٩٧، ٣٤٧، ٣٩٣، ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٤٧، ٦٢٠.

(٤) مخطوط السير، رقم: (٢٠٢٣) مكتبة السيد محمد بن أحمد، ص ٤٥١.

عَمَّنْ أَخَذَ هَذَا الْأَثَرَ وَإِلَى مَنْ يَسْنَدُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْبَصَرِ فَإِنَّ الْمَوْجُودَ فِي آثَارِ الْمُسْلِمِينَ خِلَافًا لِمَقَالِهِ وَالْمَسْيُودِ إِلَى عُلَمَاءِ الدِّينِ نَاقِصَ لَاعْتِلَالِهِ، وَقَالَ الشَّيْخُ بَشِيرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ مَحْبُوبٍ فِي سِيرَةِ الْمُحَارِبَةِ وَإِذَا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى الْبَغَاةِ وَشَهَرَتْ فِيهِمْ قَصْدُ الْمُسْلِمُونَ حِينَئِذٍ بِالْحَرْبِ إِلَى مَجَامِعِهِمْ وَفَرَقَهُمْ بِكُلِّ مَا لَا يَطْمَعُ الْمُسْلِمُونَ بِكَفَايَةِ بَغْيِهِمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا بِذَلِكَ الْحَرْبِ لَهُمْ يَجُوزُ مِنْهُمْ وَتَغْرِيقُهُمْ وَتَحْرِيقُهُمْ وَهَدْمُ حَصُونِهِمْ وَقَطْعُ الْمَوَادِّ عَنْهُمْ وَحَبْسُ الْمِيَاهِ وَالْأَطْعَمَةِ عَنْهُمْ وَالْحُمُولَةَ أَنْ يَصِلَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ كَانَ لَهُمْ أَوْ لغيرهم إِلَى أَنْ يَفِينُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ أَيَّامَهُمْ^(١)

٥- طرح أسئلة وإيجاد أجوبة لها.

وهذا ما نجده واضحا جليا في كثير من السير والجوابات وبالأخص التي تتحدث عن مسألة من مسائل العقيدة، أو مما من شأنه أن يقع فيه الاختلاف بين العلماء والمجتهدين لعدة احتمالات، ومن ذلك ما جاء في سيرة ابن بركة في الحديث عن إمامة الصلت بن مالك وخروج راشد عليه فبعد حديث طويل عن صفة خروج راشد على الصلت بن مالك، ومحااجة البعض في ذلك أراد الإمام أبو محمد أن يبين ويجيب عن بعض الاحتمالات التي قد ترد في هذا الموضوع، بعد أن ذكر أن هذا الفعل من أفعال المرجنة الحشوية^(٢).

• المبحث الرابع: أهم المواضع التي حواها مخطوط السير المطلب الأول: الولاية والبراءة.

أولى كتاب السير والجوابات في الفكر الإباضي منذ القديم عناية واهتماما منقطع النظير في الاهتمام بمسائل العقيدة على عمومها، وركزوا على مسائل مهمة في بعض الأحيان، مستفترغين جهدهم في التحليل والنقد، والاستشهاد، ومن ذلك مبحث الولاية والبراءة الذي يعد في الأصل من مسائل العقيدة التي برزت فيها نظرة المذهب تأصيلا وتطبيقا، والمطلع على مخطوط السير والجوابات للشَّيْخِ سُلَيْمَانَ بْنِ نَاصِرِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ ليجد هذا الملحظ واضحا جليا، ففي عدة سير وجوابات نجد العلماء الأخيار يتعرضون لهذه المسألة ويبرزون فيها الآراء المعتمدة، ولربما

(١) مخطوط السير، رقم: (٢٠٢٣) مكتبة السيد محمد بن أحمد، ص ٢٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٩، ١٣٠، ينظر مثلا: المصدر نفسه: ١٥٨، ١٩٢، ٢٢٦.

اجتهد عالم من أولئك العلماء في جزئية من جزئيات الموضوع، وفرض لذلك فروضا وأعد جوابات شافية تكافية لتلك الفروض المحتملة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الاهتمام البالغ والبلغ بأمور الدين والعقيدة بالدرجة الأولى. وقد وردت عدة مباحث لتأصيل هذا المبدأ وكذت تطبيقه من ذلك ما ورد في سيرة أبي الحسن، يقول: قلت من ترك المضمضة والاستنشاق متعمدا والسواك وأخذ الشارب وحلق العانة وقلم الأظفار ونتف الإبطين على العمد ما يكون منزلته [يقصد الولاية أم البراءة] قال: يكون خسيس المنزلة بتركه السنة وينصح له ويستتاب ولا يبلغ به ذلك إلى براءة^(١).

وفي سؤال آخر يتعلق بقراءة السورة في الظهر والعصر فإن الشيخ يرى أن يستتاب وإلا تبرئ منه، وهذا مفاد قوله: هذا قد خالف السنة والإجماع وصلاته منتقضة ويستتاب وإلا برئ منه^(٢)، على أن هذه المسألة اجتهادية وليس الموضوع موضع تعليق أو تحليل للآراء والأقوال، هذا فقط من باب التمثيل على ورود مباحث الولاية والبراءة في المخطوط وتطبيقات ذلك. وهي كثيرة جدا^(٣).

المطلب الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن المتفحص في مخطوط السير و الجوابات يجد أن جزءا كبيرا منه يهتم بهذا الجانب وهو الوعد والوعيد أو التواصي بالحق أو ما يسمى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل هذه المسميات تدل على معنى واحد، فقد اهتم أصحاب السير والجوابات بهذا المبدأ الأساسي في استقامة الدين وسلوك الفرد والمجتمع، الذي ينتخب منه الخليفة والإمام، فبناء الفرد والمجتمع على قواعد متينة، وركائز قوية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يبشر بنهضة دينية ودنيوية حافلة، استنادا إلى نصوص الشارع الحكيم، الذي حض على هذا المبدأ العملي في أكثر من موضع إن في الوحي المتلو أو غير المتلو، والجميل في الموضوع أن نجد أن هذا المبدأ لم يكن مقتصرًا على فئة معينة ومحددة، بل كان مبدأ عاما شاملا لكل من بدر منه ما يوجب تذكيره وتنبيهه،

(١) المصدر السابق، ص ٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٥.

(٣) للاستزادة ينظر مثلا: ٣٧٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠.

فصار هذا المبدأ قضية كبرى من قضايا المجتمع بل والمدرسة الإباضية، ولعل مبدأ الولاية والبراءة تولد من هذا المبدأ، فإن التزم العبد أحكام الشريعة كان في الولاية وإن خالف عومل بما تقضيه مصلحة الدين. ومن بين الأمثلة على هذا ما ورد في سيرة أبي الحسن علي بن محمد البسياني رحمه الله فمن جملة ما قاله: وقد أوجب الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتابه فقال: كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر^(١) فجعلهم على ذلك خير أمة، ولا يكونوا خير أمة إلا بالأفضل من العمل فقد ذم من ترك ذلك، فقال تعالى: «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون»^(٢)، «وأوجب لهم العذاب لولاية الذين كفروا فمن تولى الكافر كان مثله، بقوله: ومن يتولهم منكم فإنه منهم»^(٣)،.... وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لكم»، وقد يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق أبي بكر الصديق أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا أعمهم الله بعقاب»، وقد سار بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجمعت الأمة عليه وبيان الحجة في ذلك إن شاء الله مما عملوا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك واجب على كل مسلم استطاع وسمع في ذلك لله وأطاع، والدينونة عند المسلمين الأمر بالمعروف والعمل به، وولاية أهله عليه، والنهي عن المنكر والبراءة من أهله عليه،...^(٤).

ومما ورد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضا ما جاء في سيرة لأبي الحواري محمد بن الحواري العماني إلى أهل حضرموت، مما جاء فيها: ...وأن تأمروا بالمعروف وتحثوا أهله عليه وتنهوا عن المنكر وتردوه على من عمل به، وتنزلوا كل ذي حدث حيث أنزله حدثه، وتقيموا فيهم كتاب الله، وتحثوا فيهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيروا بهم سيرة

(١) سورة: آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٣٤، ٣٣٥.

أئمة الهدى في حد الغضب منكم والرضا فلا يخرجكم الغضب من الحق ولا يدخلكم الرضا في الباطل ولا *** أمر الناس عندكم قدر تكلم عليهم ما لم يأذن به الله لكم فيهم ولا تخافوا في الله لومة لا نم، واجعلوا الناس من عندكم في الإنصاف سوى، واحذروا أن يستملكم إلى أحد منهم هوى، ولا تركنوا إلى أهل الطمع والجهل والعمى، فإن الله جل ذكره قد حذر نبيه صلى الله عليه وسلم فتنهم، وقال: واحذروا أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليكم^(١) وقال: ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون^(٢).... ونوصيكم بطاعة الله أن تعملوا بها وتدعوا إلى الوفاء بها، وأن تحضوا على إقامة شرايع الإسلام، والرضا بالحلال واجتناب الحرام، وأن تعملوا بفرائض القرآن فيما سرّكم أو أساءكم أو نفعكم أو ضرّكم، وأن تسمعوا وتطيعوا لمن ولّاه الله أمركم فيما أطاع الله فيه وأن تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، وأن تقولوا بالحق، وأن تجتمعوا على العدل...^(٣)، وهكذا نجد أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبدأ راسخ وعليه مدار الحديث في كل ما سنحت الفرصة بذلك^(٤)

المطلب الثالث: الإمامة والخلافة.

من المواضيع التي نقرأها ونمر عليها في كثير من السير والجوابات الواردة في المخطوط، مبحث الإمامة أو الخلافة، وهو موضوع له قدر وشأن كبير لدى أتباع المذهب الإباضي، لذا تناولوه بالاهتمام والرعاية، تحليلًا لما ورد في ذلك من نصوص، وتأصيلًا لبعض المبادئ الهامة، ولعل كثيرًا من السير والجوابات التي تناولت مبحث إمامة علي وخلافته لأمر المسلمين ثم التنازل عن تلك الإمامة الشرعية لمعاوية بن أبي سفيان هي منطلق الإباضية أو كُتَابُ السير والجوابات بداية من القرون الهجرية الأولى إلى يوم الناس هذا، مع مراعاة الزمان والمكان، ولأهمية هذا الموضوع والمبحث الشرعي من جهة والسياسي من جهة أخرى، نجد أن علماء اهتموا به أيما اهتمام فتناولوه من عدة جوانب، خاصة ما يتعلق بالإمام نفسه، ولم يغفلوا

(١) سورة المائدة، الآية ٤٩.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٣) مخطوط السير، سليمان بن ناصر الإسماعيلي، رقم (٢٠٢٣) مكتبة السيد محمد بن أحمد، ص ٤٦٤.

(٤) للاستزادة من هذه الجزئية ينظر مثلاً: مخطوط السير: رقم: (٢٠٢٣) مكتبة السيد محمد بن أحمد صفحات: ٢٧٦، ٢٧٩، ٤٨٢، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٩، ٥٢٤، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٥، ٥٤٦، ٦٢٠ وغير هذا كثير.

ما ينبغي على الرعية في مبحث مُهمٍّ مَفَادُهُ: (واجبات الإمام وحقوقه) فالواجبات ما عليه القيام به، والحقوق ما ينبغي على الرعية اتجاه الإمام، لذا سأورد بعضاً مما ذكر في هذا الموضوع الشيق والمهم، مقتصرًا على بعض جزئياته فقط؛ فمن ذلك: شروط الإمام وأخلاقه.

- أن يكون خير أهل زمانه.
- يكون قوي العقل سليم الفطرة.
- يكون عدلاً مرضياً.
- سليماً مما يحول بينه وبين مزاولة أعمال منصبه على أكمل وجه.

١- واجبات الإمام

- طاعة الله ورسوله.
- إقامة الحدود.
- حفظ الرعية وعدم الألقاء بهم إلى التهلكة.

في فقرة مهمة من فقرات سيرة الشيخ أبي الحسن يقول في هذا الموضوع المتعلق بصفة الإمام الذي يجوز إقامته للأمور: قال: أن يكون خير أهل عصره، ويكون أقوى طباعه عقله ثم يصل قوة عقله شدة الفحص وكثير سماعه بحسن العادة فإذا جمع إلى عقله علماً وإلى علمه حرفاً، وإلى حرفه عرفاً، فذلك الذي يعدُّ لعزِّ الدولة ونكاية العدو، ويقوى على إقامة الحق ويكون عدلاً مرضياً... (١).

٢- حقوق الإمام

- السمع: على الرعية أن تسمع للإمام فيما يراه ويقول به بناءً على الشروط السالف ذكرها، فالاستماع إليه يوجب الطاعة فيما يقول.
- الطاعة: وهذا ما يستلزمه السمع والنصياع لأوامر الإمام.
- النصرة: نصرة الإمام تعني عدم خذلانه في مواقفه التي يرى فيها مصلحة، وإن استدعى الأمر الدخول في حروب ومعارك وفق المصلحة العامة.

(١) المصدر السابق، ص ٣٧٧.

- تسديد إمامته.

- توليه ما أقام حدود الله تعالى واطاع الله فيهم.

ولعل هذه الأمور كلها ملخصة في هذه الفقرة التي وردت في سيرة إلى الإمام الصلت بن مالك في مخطوط السير، يقول فيها: ومما أوجب الله لإمام المسلمين على المسلمين أن يسمعوا له ويطيعوه وينصروه ويسددوا إمامته وويتولوه ما أقام فيهم دين الله وأحسن السيرة وعمل بالكتاب والسنة وكان لجميع المسلمين ناصرا ولجميع الرعية حافظا..^(١).

٣- استقالة الإمامة أو إقالته

في نفس السيرة نجد كلاما مهما يتعلق بجزئية استقالة الإمام وإقالته وما الداعي إلى ذلك وهذا كله ملخص فيما يأتي من هذه الفقرات المقتبسة من المخطوط، والتي تحتاج إلى شرح مستفيض في غير هذا الموضع لضيق الوقت، ومفاد هذه الفقرات هو: «قلت: فالإمام بما تزول إمامته ويكون على ولايته، قال: إذا زال عقله بجنون لا يفيق أو خرس لسانه فلا ينطق أو عمي فلا يبصر، أو أصم فلا يسمع إذا نودي فهذا تزول إمامته على بعض القول لأنه عاجز عن القيام بفروض الإمامة، قلت فإن عرج أو زمن أو مرض هل يعزل، قال: لا إذا عرف منه العدل لم يعزل، ولا يعزل الإمام بالعجز إلا بالذي وصفت لك، فأما إذا كان يعقل ويعدل فلا يعزل» وفي فقرة أخرى من سيرة الشيخ أبي الحسن يقول في هذا الموضوع المتعلق بصفة الإمام الذي يجوز إقامته للأمور: قال: أن يكون خير أهل عصره، ويكون أقوى طبائعه عقله ثم يصل قوة عقله شدة الفحص وكثر سماعه بحسن العادة فإذا جمع إلى عقله علما وإلى علمه حرفا، وإلى حرفه عرفا، فذلك الذي يعدُّ لعز الدولة ونكاية العدو، ويقوى على إقامة الحق ويكون عدلا مرضيا...^(٢). كما أن الإمام إذا ارتكب محرما مما هو معلوم من الدين بالضرورة، كالقتل العمد، والزنا، وشرب الخمر، فإن ذلك مما يوجب عزله، يقول الشيخ أبي الحسن في سيرته: «قلت: فإن زنا الإمام أو قذف محصنا أو قتل نفسا مؤمنا ظلما، قال: تزول إمامته إذا صح ذلك عليه من أحد وجوه الصَّحة عزل من إمامته وقدم إمام يقيم عليه الحد وإن تاب رجع إلى ولايته ولا يرجع إلى إمامة

(١) المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٧٧ وما بعدها.

المسلمين وكذلك إن ارتد عن الإسلام وعلم ذلك منه، قدم إمام عليه وقتل إن لم يتب وإن تاب لم يعزل، قلت فإن رجع إلى دين القدرية أو الروافض أو الخوارج؟ قال: إن علم منه ذلك منه استتيب فإن تاب قبل منه وإن أصر برئ منه زالت إمامته وحورب حتى يعتزل أو يقتل ويقدم إمام غيره وفي فقرة أخرى من سيرة الشيخ أبي الحسن يقول في هذا الموضوع المتعلق بصفة الإمام الذي يجوز إقامته للأمور: قال: أن يكون خير أهل عصره، ويكون أقوى طبائعه عقله ثم يصل قوة عقله شدة الفحص وكثر سماعه بحسن العادة فإذا جمع إلى عقله علما وإلى علمه حرفا، وإلى حرفه عرفا، فذلك الذي يعد لعز الدولة ونكاية العدو، ويقوى على إقامة الحق ويكون عدلا مرضيا....^(١).

هذا غيض من فيض ما ذكر في أحكام الإمام والإمامة على العموم وعلى وجه الخصوص، اكتفيت بذكر هذه المباحث لضيق الوقت وإلا فإن عدة سير وجوابات حوت مباحث مهمة، ونكتا بالغة في موضوع الإمامة، لو أسقطت هذه النقاط على الواقع ولو امتثل بها ولاية الأمر لساد العدل والأمن والأمان، وهذا يحتاج إلى دراسة واقعية عملية سياسية لمحاولة تقريب الحكم الإسلامي الشرعي بسياسات الحكم المعاصر.

المطلب الرابع: التأريخ لبعض الأحداث.

لعل أهم ما يلاحظ في هذه السير والجوابات أنها في الأصل تاريخ، فهي وإن لم تذكر أحداثا وقعت في الماضي فغنها تعد بمثابة مدونة تاريخية تدون للأجيال اللاحقة ما يقع في ذلك الزمان، لذا فإننا لو تأملنا وتمعنا النظر لوجدنا أن من أهم أهداف السير خاصة وكذا الجوابات في بعض الأحيان الاهتمام بالأمور التاريخية، كما هو الحال في كثير من السير التي وردت في المخطوط، ومن ذلك:

وقد أخبرنا بعض شيوخنا أن المسلمين من أهل عمان كانوا يحملون إلى بني عمارة كل عام أموالا ليدفعوا به شرهم وما يحاذرون على المسلمين منهم والله أعلم كان ذلك من صلب أموالهم، أو من مال المسلمين، فغن كانوا دفعوا ذلك من أموالهم فجائز لأن على المسلم أن تكون نفسه أثر عنده من ماله وأن ينفق ماله في صلاح نفسه ودينه، وقد أمره الله تعالى بذلك في غير

(١) المصدر نفسه، ص ٣٧٩.

موضع من كتابه، وإن كانوا دفعوا هذه الأموال إليهم من بيت مال الله على سبيل ما يدفع إلى المؤلفة فجايز ذلك، وقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم مباح وطاعة من فعل ذلك تأسيا به^(١).

...وأيضاً فإن خازم بن خزيمة لما خرج في طلب شيبان فوجد أهل عمان قد قتلوه فطلب إلى الجندى ابن مسعود يسلم خاتمة وسيفه وأن يخطب لسلطان بغداد ويعترف بالسمع والطاعة، فاستشار الجندى العلماء من أهل زمانه ومعهم يومئذ هلال بن عطية الخراساني وسبيب بن عطية العماني وخلف بن زياد البحراني وغيرهم من المسلمين فأشاروا عليه أن يدفع سيف شيبان وخاتمه وما يرضيه من المال ويضمن لورثة شيبان بقيمة السيف والخاتم ويدفع بذلك عن دولة المسلمين فأبى خازم بن خزيمة إلا الخطبة والطاعة، فراوا أن ذلك لا يجوز لهم في باب الدين أن يدفع عن الدولة بالدين وإنما يدفع عنه مع الرجا بالمال^(٢).

المطلب الخامس: الاهتمام بالمسائل الفقهية الفرعية.

سبقت الإشارة إلى أن هذه السير التي جمعها الشيخ سليمان بن ناصر الإسماعيلي إضافة إلى ما تم جمعه من قبله اهتمت اهتماماً بالغاً ببعض الأمور العقدية^(٣) كالولاية والبراءة، والمعصية والكفر والشرك وغير ذلك مما هو مبثوث في ثنايا المخطوط، وهذا لا يعني على أي حال من الأحوال أن الجانب الفقهي كان غائبا في المخطوط، بل نجد أن العلماء والمشايخ أصحاب السير والجوابات اهتموا بكثير من الجزئيات التي وجب التنبيه والتنبه إليها، في عدة مواضع ما يدل دلالة واضحة جلية لا غموض فيها على تمكنهم في ذلك، ورؤيتهم إلى المنظومة الدينية نظرة شاملة لكل جزئياتها، فلم يغفلوا جانباً من جوانبه، ولم يميلوا إلى جانب على حساب آخر، وإن كانت الجوابات في بعض الأحيان يغلب عليها الطابع العقدي فإن هذا مما يقتضيه الجواب الخاضع لإرادة السائل، فليس من المعقول أن يسأل السائل سؤالاً فقهيًا فيكون الجواب فقهيًا، وكذا العكس، وغرضي من ذكر هذه الملاحظة بيان أن المشايخ الذين كتبوا تلك السير والجوابات لم

(١) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٣.

(٣) المصدر نفسه، ينظر مثلاً: صفحات: ١٤، ٤٧، ١٤٢، ١٨٦، ٣١٥، ٣٥٦ وغير هذا.

يغفلوا جانباً من الجوانب؛ ولعل هذه الأمثلة الواردة في المخطوط تفي بالغرض على سبيل المثال لا الحصر:

مما ورد في جواب للشيخ أبي الحسن: ...قلت رجل أفطر في آخر يوم من شهر رمضان متعمدا فوافق يوم الفطر، ورجل خرج يريد الزنى بامرأة حرام متعمدا فوافق زوجته ورجل سرق شاة فذبحها فإذا هي شاته ورجل قتل رجلا متعمدا لقتله فوافق قاتل أبيه، ورجل قاتل مع فئة على أنها الباغية متعمدا فإذا هو مع المبغا عليها، ما يلزمه في جميع ذلك؟ قال يلزمه التوبة والاستغفار ولا يلزم غير ذلك^(١).

ومن الأمثلة على ذلك أيضا: ما ورد في رجل قال لا أصلي على جنازة ولا أصلي الجماعة ولا أصلي صلاة العيدين ما يبلغ به ذلك، قال [يعني أبا الحسن]: «هذا على الكفاية فإذا قام به البعض من الناس سقط عن من لم يقم به في فعله، ذلك كان مخطئا وبرئ منه على تخطئته للمسلمين وفي مسألة أخرى إن قال رجل لا أصلي قيام شهر رمضان ولا أصلي صلاة الضحى ولا أصلي صلاة الوتر إلا ركعة ولا أصلي بعد صلاة الظهر ولا قبلها ولا أصلي الركعتين بعد المغرب ولا ركعتي التهجد ولا أتفعل بشيء من النوافل، ولا أصوم غير شهر رمضان ولا أتصدق بشيء غير الزكاة ما يبلغ منه ذلك، فكان الجواب: يكون خسيس المنزل ولا يبلغ به إلى براءة إلا أن يضل من فعل ذلك من المسلمين فإن ضل أحدا كان هو الضال،...»^(٢).

الخاتمة

بعد هذه الجولة الطيبة المباركة في رحاب مخطوط قيم من مخطوطات السير و الجوابات الإباضية وهو كتاب السير والجوابات من جمع الشيخ سليمان بن ناصر الإسماعيلي؛ يطيب لي أن أدون بعض النتائج التي تبينت لي من خلال هذه الدراسة التي تحتاج إلى مزيد من العناية والتفقيب والتدقيق إن مدَّ الله سبحانه وتعالى في الأعمار، وسأجمل فيما يلي أهم النتائج والتوصيات:

(١) المصدر نفسه، ص ٣٧٤.

للاستزادة من هذا ينظر مثلا: المصدر نفسه صفحات: ٣٥٧، ٥٢٢، ٣٨٧، ٣٨٨، ١٨٢، وغير هذا في مواضع كثيرة.

(٢) لمصدر نفسه، ص ٣٧٥.

١- الشيخ سليمان بن ناصر الإسماعيلي عالم متمكن لم يدون كثيرا من المؤلفات إلا أنه أجاد في ذلك.

٢- كتاب السير الذي بين أيدينا هو من جمع الشيخ سليمان بن ناصر، مضيفا على ما وجده من ذي قبل، فأضاف سيرا وجوابات جمعها من مختلف المصادر والمراجع المتاحة له.

٣- كتب السير والجوابات من المصادر التاريخية التي تبرز جانبا مهما لكل حقبة من حقبة التاريخ؛ كما تمثل رصيذا معرفيا هاما ينبغي الاهتمام به لاستقراء واستقصاء عدة مسائل، وحل مشاكل تاريخية مهمة.

٤- توجد عدة نسخ لمخطوط السير والجوابات الذي جمعه الشيخ سليمان بن ناصر في مكتبات السلطنة من المهم جدا تجميعها وتحقيقها تحقيقا علميا يفيد العالم والمتعلم.

٥- الاهتمام بكتب السير والجوابات أمر مهم يربط حاضر الأمة بماضيها ويجعلها تستشرف المستقبل من خلال ما بُثَّ في تلك الكتب من آراء مختلفة ومتنوعة في شتى ميادين الحياة على مستوى الفرد والجماعة.

٦- إن إثبات سير الإباضية لهو خير قدوة للمقتدين وللقدوة أثرها الجلي الواضح في الحياة العلمية والعملية، وبهذا نضمن جيلا قوي الدعائم، متين الأركان، ذا مسلك واضح وفكر متزن.

٧- الاهتمام بسير وجوابات المدرسة الإباضية أمر مهم من خلاله يتم التعرف على مراحل نشأة هذا الفكر بل وهذه المدرسة التي برهنت ولا تزال للعالم الإسلامي وللإنسانية مدى صلاحيتها لمعيشة هذا الواقع؛ ذلك أن فكرها مستمد من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فقها وعقيدا وسلوكا.

٨- تحقيق كتب السير والجوابات الإباضية والاهتمام بها ونشرها بين الأفراد والمجتمعات؛ لسبيل مهم في الدعوة إلى الالتزام بمبادئ الإسلام وأحكامه، كما يقوي الجانب الروحي والأخلاقي ويحث على التمسك بالقيم الإسلامية التي سار عليها السلف الصالح من لدن النبي صلى الله عليه وسلم؛ منها الاخلاص والتفاني والتوجه إلى الله تعالى قلبا وقالبا.

٩- اهتمام المفكرين المعتدلين من جميع المدارس الإسلامية بكتب السير والجوابات وإخراجها للعيان من بين الوسائل الناجعة فيما يبدو للتقريب بين الفرق الإسلامية؛ ذلك أن الاطلاع على التاريخ المشرق لأي مدرسة مهما كانت مع النقد العلمي المحترم لقمين بهذا التقارب الذي يسعى إليه أفراد الأمة الإسلامية والعلماء المحققون بالدجة الأولى.

١٠- النظرة العلمية الجادة لكتب السير والجوابات تحقيقاً علمياً أكاديمياً، ونقداً علمياً سامياً، بعيداً عن التزلف والتنتطع وإجحاف الحقوق لهدف سام - فيما يبدو لي - وغاية جلييلة تثمرها هذه المحافل والملتقيات الدولية وغيرها.

١١- مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي - رحمه الله - بسلطنة عمان من المكتبات النادرة والمهمة التي تحوي مخطوطات قيمة في جوانب عديدة؛ منها جانب السير والجوابات على الخصوص والتاريخ العام على العموم.

هذه بعض النتائج والتوصيات التي بدت لي والله تعالى أسأل أن يوفقنا لكل خير، ويعلمنا ما نفعنا وينفعنا بما علمنا ويزيدنا علماً، سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، بارك الله تعالى في القائمين على أعمال هذا الملتقى الدولي كل بمستواه العلمي ودرجته الثقافية والاجتماعية، سائلاً المولى تبارك وتعالى أن يسبغ عليكم نعمه، ويسر بكم بتياب العافية والتوفيق والعناية، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم بن محمد

طلّاي، ط ٢، دت ن، دم ن.

٣- سيف بن حمود البطاشي، إتحاف الأعيان، مكتبة السيد محمد، دت ن، مسقط.

٤- الفارسي، نزوى عبر الأيام.

٥- فهد بن علي بن هاشل السعدي، معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية، قسم المشرق، مكتبة الجيل الواعد، سلطنة عمان، ط ١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

٦- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، اعتنى به: محمود خاطر، مراجعة: لجنة من مركز تحقيق التراث، دار الكتب المصرية، دط، دت ن .

٧- محمد بن مكرم، ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله عل الكبير وآخرون، دار المعارف، دط، دت ن، دم ن.

٨- محمّد صالح ناصر، سلطان الشيباني، معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، تر: ٨٣٣، ص: ٢٨٥.

٩- مخطوط السير، رقم: (٢٠٢٣)، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيد، ص ٦٦٨ و ص ٦٧٢.

١٠- وزارة التراث القومي والثقافة، السير و الجوابات لعلماء وأئمة عمان، تحقيق: سيدة إسماعيل كاشف، سلطنة عمان، دط، ١٩٨٦، ١٤٠٦هـ.

مدخل نظري إلى الأنثروبولوجيا التأويلية وطرائق استثمارها في فهم الأدبيات الإباضية^(١) (إباضية وادي ميزاب أنموذجا)

أسامة أبو فريخة

أستاذ مبرز جامعة سوسة وباحث في الإسلاميات والأنثروبولوجيا /تونس

bouffrikaoussama@yahoo.fr

مقدمة

ملأت الأنثروبولوجيا الدنيا وشغلت الناس وراح شيعتها يستثمرونها في مقارنة موضوعات مختلفة في العصر الحديث. فإذا الأنثروبولوجيا أنثروبولوجيات تفيض على الوقائع بحثا في محاضنها الأولى وتأسيسا لسلطان الإنسان عليها وتقليبا لممكنات وجوده، معاشا ومعادا، ضمنها. والحق أن الكتلة الإسلامية التاريخية لا تخرج عن هذا المسار بل نزع أنها أنموذج دال على ما قبلنا البحتية خاصة أن الحراك الذي يغشى الفضاء الإسلامي تعبير عن الانتماء إلى الفضاء الإنساني. قد يكون هذا الحراك متوهجا أو عنيفا باعتباره تجسيدا لطبقات مترابطة من تاريخ معقد ومُنْهَم إلا أنه لا يزال يطلب البحث والحفر والتنقيب في مخزونه الثقافي. من أجل ذلك نرى أن استثمار الأنثروبولوجيا في فهم التاريخ الإسلامي (تاريخ الماضي ومستقبل التاريخ [Le futur du passé] حاجة ملحة على المستوى الإبستيمي وآلة بناء على المستوى العملي كفيلة بإعادة تمثيل الصراع الفرقي وصور توليده للمعاني. فبأي معنى يكون الصراع مؤندا للمعنى؟ وكيف يمكن للأنثروبولوجيا أن تقدم لنا فهما لهذا الصراع الاحتجاجي؟

(١) أسامة بوفريخة، أستاذ مبرز في الآداب العربية وحضارتها، باحث في الإسلاميات والأنثروبولوجيا. هذا المقال في الأصل تقرير لإعداد أطروحة دكتوراه في اختصاص الحضارة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة. قد عملنا على تطويره والاشتغال على محاوره الكبرى والتوسع فيها.

١. في الاحتجاج مقولة أنتروبولوجية

قامت المدونة الأكاديمية العربية على البحث في مقالات الإسلاميين تشكلاً وتطوراً وسيادة. وقد قلب أصحابها النظر في المسائل الحاقّة بهذه العقائد من زوايا مختلفة ساهمت في الكشف عن حدثاتها والتصورات المحايثة لتشكّلها. وقد اختلفت هذه البحوث في المنهج من حيث انتلفت في موضوعاتها بل إن اختلافها المنهجي قد أدّى إلى تشكيل «تمثّلات مدرسيّة» شقّت طريقها داخل الأصوات التي تزخر بها الساحة الفكرية العربية.

والحق أن ما اصطّلحنا عليه بالتمثّلات المدرسيّة لا يعني الطرائق المنهجية في تناول مسألة الفرق وخطاباتها والعقائد ومصوراتها فحسب بل أظهر ما يعنيه ذلك دوران هذه الأعمال على خلفيات منهجية شكّلت مدوّنتها مدارس في استقصاء الحدث الإسلامي وفيضانه على حدّي الزمان والمكان. وكلّ إلى غاية يصبو، منهجية كانت أو فكرية.

وإذا رمنا تقليب بصرنا في هذه المدونات، فإننا سنجدّها قد دارت على مجموعة من الثنائيات القاعدية التي ارتقت بحكم تداول استعمالها في الدراسات الفكرية إلى مقولات علمية تُستثمر في سياقات مختلفة لسبر أغوار العقائد والمذاهب والظواهر الدينية في فضاء الثقافة العربية الإسلامية نحو «التراث والحداثة» و«الأغلبية والأقلية» و«الآخر»... وقد جرت كلّها إلى استقراء الوقائع واستنباط لحظاتها التأسيسية وأنظمتها الترتيبية وأحكامها المقاصدية.

يطول الكلام على كلام أصحاب هذه المدونات ومشاريعهم الفكرية المدرسية، وما يعيننا منها الوقوف على ثنائية هي الأسّ في بحثنا وعماده، وإن كنّا سنعدل عنها لاحقاً، ونقصد على وجه التحديد ثنائية الإسلام المعياري والإسلام التاريخي التي ساهمت في تقديم مجموعة من الأبحاث العلمية وقد انتظمت في إطار هذه الثنائية مختبرة إمكاناتها النظرية ومستخلصاتها الإجرائية. فكان الإسلام السنّي وإسلام الفلاسفة والإسلام الخارجي... الخ.

تبدو هذه النّظيمة التّمييزيّة-التّعريفية طريفة من حيث منهجيّتها ومراميها، «الحضارية» لكننا نزعّم أنّها ليست سوى لبنات لدراسة هذه الإسلامات وتعميق النظر في أولياتها وآلياتها والدفع بالحفر في ميكانيزماتها إلى أقاص معرفية بلّه منهجية في تمثّل النّزعة إلى أسلمة الظواهر الاجتماعية

والثقافية والاقتصادية عند المجموعات الإسلامية.

إنّ الإسلام الخارجي^(١) - وهو عمدة بحثنا وغايته- توصيف كثيف لإسلام الخوارج ورحلة في تشكّل خطاباته وأنساقها المقاليّة ورحلة في فضاءات التّواريخ والأمصار. فوجدناه احتجاجاً على إسلام تاريخيٍّ سياسيٍّ بإسلام يتعدّاه إلى الالتفات إلى إسلام جماعة محليّة محتجّة «خارجة» عن مألوف المقال و «خارجة» على أصحابه وشيعته أو هو إسلام، بما هو إمكان من بين الإمكانيات الأنثروبولوجيّة المتعدّدة لتجلّي الرّسالة في التّاريخ، يحافظ على خصوصيّة تبعده عن العلاقة المعياريّة مع أيّ من هذه الإمكانيات الأخرى^(٢).

لم تقصر هذه المقولة المنهجية (الإسلام التّاريخي-الخارجي) عن فقه الظّاهرة - الحدث الخارجي خاصّة إذا أضفنا إليها ما وصلنا من بحوث في إسلام الخوارج ومقالاتهم على اختلافها. وهي مدوّنة قد انشّدت إلى خلفيّات معرفيّة تلبّست في أحايين كثيرة بمقاصد إيديولوجية أو إنها الايديولوجيا عيّنّها وقد انفتحت على المعرفي وراودته عن نفسه على سبيل الاستتباع أو الاستبدال كما هو الحال بالنّسبة إلى المحور الجدولي- الاستبدالي من العمليّة اللّسانيّة.

وإنّ دارت هذه المدوّنة على ثلاثة محدّدات:

❖ المحدّد التّاريخي^(٣)

❖ المحدّد الإيديولوجي التّمجيدي/المحدّد الإيديولوجي التّكفيرّي نحو استعارة خطاب مدوّنات الفرق والملل والتّحل عند الجماعة السنيّة^(٤).

❖ المحدّد المعرفي^(٥)

(١) ناجية الوريثي بوعجيلة، الإسلام الخارجي، دار الطليعة، الطّبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٦.

(٢) نفسه، ص، ٢٤٨.

(٣) راجع على سبيل المثال لطيفة البكاي، حركة الخوارج: نشأتها وتطوّرها إلى نهاية العهد الأموي، دار الطليعة، الطّبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠١.

(٤) راجع على سبيل المثال أحمد محمّد أحمد الجلي، دراسة عن الفرق في تاريخ الإسلام: الخوارج والشّيعه، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، ١٩٨٦.

(٥) مبروك المنصوري، عقائد الإسلاميين في بلاد المغرب إلى نهاية القرن السادس الهجري، الثّاني عشر الميلادي، أثرها في المذاهب الفقهيّة (أطروحة دكتوراه بإشراف الأستاذ المنصف بن عبد الجليل)، بحث مرقون بكلية الآداب، سّنة ٢٠٠٤.

ولئن كان تمييز هذه المستويات بعضها من بعض أمرا منهجياً، فإنه لا يخفي حضور إشكالات صنفية عديدة، إذ تتواشج هذه المستويات وتتداخل إلى درجة لا نكاد نؤمن النفوس من هذا التصنيف الذي تلحم عناصره في خطوط متشابكة.

رغم ذلك كله فإن تلبس هذه المستويات ببعضها البعض قد أضاف من المعارف إضافات كمية وأخرى نوعية أنتجت مجتمعة كشوفات العارفين بالحدث الإسلامي وأسراره وتشكلاته المتميزة.

لتجدن المستوى الثالث لهذه الصناعة الأهم بالنسبة إلينا وهو علة التأليف عندنا، فإذا كنا ننتصر لهذه المباحث ولنتائجها المعرفية العلمية، فإننا لا نلجم ذاتنا على الكلام فيها أو الاحتجاج عليها احتجاجاً يروم الدفع بمنطقها إلى أقصاه وتحري مقاتلها والوقوف على طريف ما يرشح من مضائها.

لا مريّة أن ظاهر كلامنا يقوم على عرض مقارنة تحليلية – نقدية لما استقر في هذه المدونة واستمر في أبحاث حادثة لا قبل لنا بعرضها كلها في هذا السياق، لكن لهذا الظاهر باطن حامل لدواعي البحث في هذا المجال. فكلما ولّينا وجهنا شطر هذه المدونات، إلّا ووجدنا أن الخيط الناظم لتشكّل الاسلامات إنما هو الاحتجاج والحجاج والصراع في معنييه الوقائعي العيني أو الذهني المجرد. هو المحدّد والجلي في أن فلا برزخ بين المقال العقدي الفرقي والمقام الاجتماعي السياسي الحركي. وقد وجدنا فيما وجدنا في أبحاث أصحابنا وكشوفاتهم، حراكاً لهذه الاسلامات التاريخية ووجدناها احتجاجاً على الاحتجاج التاريخي. فإذا الإسلام التاريخي هو احتجاج على الإسلام المعياري (أو الذي أريد له أن يكون كذلك) وكذلك هو احتجاج على إسلام تاريخي يشابهه فيساجله.

يظهر ذلك، على سبيل المثال، في الإسلام الخارجي – التاريخي، نجده وقد استحال إسلامات تاريخية نحو الإسلام الصُفري وإسلام الأزارقة وإسلام النجدات، وهي إسلامات تُشتق من جنسها فكأنها النتائج المشتقة من جنس مقدّمة صغرى (الإسلام الخارجي) قد اشتقت نفسها من مقدّمة كبرى (الإسلام التاريخي).

والحقيقة أن مدونات البحث هذه لم تخل من الإشارة إلى ذلك إشارات «لمعية» استئناساً بمدونات

التاريخ أو مقالات الإسلاميين وملهم ونحلهم.

لقد أشارت هذه المدونات إلى سيادة الإباضية، الفرقة الناجية من سلطان الفناء الذي حكم صوامره في رقاب أصحابه ومقالاتهم بسبب من معطيات ذاتية ترتبط بخلو مقالات الخوارج وأخرى موضوعية تعلقت أساسا بالصراع الذي خاضته ضدها القوى السياسية الحاكمة شرقا وانشقاق عبد الله بن إباح عنها. فوجدنا دراسات تهتم بـ «الإسلام الإباضي»^(١). وقد توزعت مسالك الباحثين بين عرض عقائد الإباضية^(٢) وأعلامها^(٣) وخصائص «مدرستها الفقهية»^(٤) وأنظمتها الدينية الاجتماعية^(٥).

ما يلفت النظر في هذه المباحث أن جمهور أصحابها كانوا من الإباضية أنفسهم ومن المستشرقين، فدارت على مقاصد تعريفية تمجيدية. لا ننكر أثر هذه الدراسات في فتح مسالك البحث أو هي مفاتيح لعلوم الإباضية، ولا ننكر على أصحابها كذلك رغبتهم المحمومة في التعريف بفرقتهم والدود عن إسلامهم، معتقداتهم ومشاريعهم الدعوية والسياسية، بل نؤكد أن هذه البحوث قد ساهمت في الإحالة على فضاءات بحث تنتظر معاول الباحثين ومسالك السالكين وفي الإحالة كذلك على تطور هذه الفرقة في العصر الحديث وفي أمصار غلبت عليها معالم الأرثوذكسية السنية المالكية. تتوزع هذه الفرقة، جغرافيًا، على عدة مناطق في العالم العربي : سلطنة عُمان (وهي دولة إباضية) وجبل نفوسة (ليبيا) وجزيرة جربة (تونس) ووادي ميزاب (ستمانة كلم جنوب الجزائر العاصمة).

من أجل ذلك وجدنا أن أغلب الدراسات التي اهتمت بهذه الفرقة قد استعارت المكان مجالاً للبحث،

(١) لا نجد دراسة دقيقة حول الإسلام الإباضي وخصائصه بقدر ما نجد دراسات تتمحور حول عقائد الفرقة في مراحل تشكلها أو فقها أو أعلامها.

(٢) راجع مثلاً عمرو خليفة النامي، دراسات عن الإباضية، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠١.

(٣) راجع مثلاً علي يحيى، الإباضية دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم، دت ودون دار نشر.

(٤) فرحات الجعبري، دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الإسلامية، دار الجويني للنشر، تونس، ١٩٨٨.

(٥) فرحات الجعبري، نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة، تونس، المطبعة العصرية، ١٩٧٥.

فكان المؤشّر التعريفيّ لها ولعقائد أنصارها^(١)، والأمر نفسه ينطبق على دراسات المستشرقين التي خضعت لغايات توجيهية قوامها التعريف بعقائد الإباضية وأصولها^(٢). لكنّ مزيّتهم تكمن في تحقيق مصادر الإباضية رغم توزّعها على دول عديدة.

قلنا إنّنا لا ننكر على باحثي الإباضية وشيوخها هاجسهم التعريفيّ الدّعوي، ولكنّا ننكر عليهم ذلك التّماهي الواقع بين الإيمان والمعرفيّ وننكر على باحثينا عدم ولوج تلك الفضاءات لقلة الحيلة أو الخضوع لمنطق أرثوذكسي يرى في هذا الفريق أهل الحقّ وما دونه أهل الباطل أو هم الباطل عينه.

ننكر على هذه الدّراسات كذلك قصورها عن إدراك مسار هذه الفرقة وتطوّراتها وأحوال اجتماعها وتنظيماتها، قليلة هي الدّراسات التي ارتبطت بالبحث في تطوّرات هذه الفرقة «أنيا»^(٣)، ونقص بالآني تعيين الزّمن الحديث وتنزيل الإباضية في منزله دون تنكّر للسيرورة العقديّة، الزّمانية» لهذه الفرقة.

ليس همنا استعارة القراءة التّاريخيّة رؤية ومنهجاً وتصوّراً والاستعاضة عن دراسة التّاريخ القديم بأخر حديث أو معاصر فنبقى في دائرة درس التّاريخ ونفتق أبنيتهم ومساراتهم، بل همنا أن نبحت في السيرورة التّاريخيّة للإباضية استقصاء لتطوّر مقالاتها خاصّة أنّها تحوّلت، أثناء تشكّلها، من وضعيّة الهامش فوضعيّة السّيادة والظهور (الدّولة الرّسميّة) إلى وضعيّة الأقلّيّة المحليّة الهامشيّة مجدداً.

ننتهي مرحلياً إلى الزّعم أنّ دراسات الإباضية ظلّت حبسية البعد التّاريخي الاستقرائي أو التعريفي التّمجدي، وقد نجد لذلك تبريراً معرفياً يتمثّل في ضعف إقبال الباحثين من غير الإباضية على

(1) G. Dangel. Aperçu sur l'histoire religieuse de Mzab en Algérie (le Sirat alhalqa d'Abu'Abd Allah Muhammad ben bakr al-Nufusi dans la version d'el Barredi) thèse, 3 e Cycle Paris, 1976.
T.Lewicki, La répartition géographique des groupements ibadites de l'Afrique du Nord au Moyen Age, RO, 21, 1957.

(2) J. Schacht. Bibliothèques et manuscrits abadites, dans revue Africaine, Alger, 19
J. Van Ess, Untersuchungen zu einigen ibaditischen Handschriften, dans Zeitschrift der Deutschen Morgenlaendischen Gesellschaft, 1976, à partir de la page 126.

(3) محمّد المريمي، إباضية جزيرة جربة خلال العصر الحديث، دار للجنوب للنشر وكنية الآداب والفنون والإنسانيّات بمؤبّة، تونس، ٢٠٠٥.

دراسة هذه الفرقة دراسة علمية موضوعية بما يمكن أن يمثل إضافة نوعية إلى المكتبة العربية والإنسانية.

كنا قد أشرنا إلى عنصر الاحتجاج سابقا وقد اعتبرناه القاعدة المتصورية التي عنها تتأسس مقالات الفرق الإسلامية وإليها تجري عقائدهم وتتحدد طرائق عيشتهم وتكيفهم للفضاء.

والحق أن لا جديد في قولنا هذا، فهذا المتصور تكشف عنه أغلب الدراسات، درجات، أما الجديد فيما نزع فاستقصاء لهذا المفهوم وإجراءاته في حقل الجماعة الفرقية أو الدينية، وهو أمر قد تناوله البعض وفق تصور مخصوص. نرمي من وراء ذلك كله إلى الإعلان عن مجال بحثنا بعد أن استعرضنا، على عجل، توجهات البحث في الظاهرة الخارجية وتمييزها من الحدث الإباضي.

وقد لاحظنا أثناء تتبعنا لهذه الفرقة (من خلال مصادرها أو المراجع التي تناولتها بالدرس أو كذلك من خلال التواصل مع شيوخها المتأخرين ومريديها في عُمان وتونس والجزائر وبعض الذين انشغلوا بالبحث فيها) أنها تنتزل في المخيال الشعبي، سراً وعلانية، في منزلة فرق أهل الباطل الذين يتخذون أماكن في أدنى الأرض (شبه جزيرة في الخليج، جبل نفوسة في ليبيا، جزيرة جربة في تونس، واد غير ذي زرع في الجزائر) فيحتجون فضائياً (Spatialement) لأنفسهم بقدر احتجاج الآخرين عليهم (أهل الحق- الفرقة الناجية من النار؟).

الاحتجاج في الفضاء وعليه قطب الرّحى في تصورنا هذا وعليه التّعويل في فقه الحدث الإباضي. ونرى أن تقديم بحوث تعريفية بأصول العقيدة أو الفقه لن يكون سوى إضافة كمية رغم أن باب التحقيق والحفر لازال مفتوحا على مشرعيه. من باب أولى، إذن، اعتماد مداخل أخرى في تطوير الفهوم المرتبطة بالفرقة الإباضية باعتبارها عتبة أولى قبل التعمق في استخراج تراثها. ولن يتضح ذلك إلا متى عرفنا أن المجتمعات الإباضية تقوم على آلات عيش مختلفة ارتكازا على عقائدها وما تفرضه من ممارسات دينية على جماعتها الموزعة شرقا وغربا.

نهدف من وراء الإنشاد إلى قطبي «الاحتجاج في» و«الاحتجاج على» إلى جعلهما بمثابة المقولات المساعدة على تقديم مقاربة طريفة استثناسا بمنهج مخصوص سنعلن عنه في أجل مسمى في هذا المقال.

هو احتجاج يخرج عن المعنى الحاف إلى معان ثوان تكسب فعل الاحتجاج أبعادا ثقافية يمكن تأولها على نهج. ويتعدى ذلك الاقتصار على دراسة العقائد والمقالات وما به تتميز الفرقة إلى دراسة الأنساق الرمزية الثقافية التأوية في اللاوعي الجمعي عند جماعات الإباضية المحلية. وإذن سنضرب في البحث على نهج الأنثروبولوجيا التأويلية وهي سدرة المشتى بالنسبة إلينا من وجوه:

✓ أما الوجه الأول فمرتبط بمحاولة تقديم مقارنة تستهدف الطرافة/الحداثة في تمثل الفرقة الإباضية وتواصل وجودها في فضاء الثقافة العربية الإسلامية.

✓ وأما الوجه الثاني فيركن إلى الأنثروبولوجيا، مستدع لأدواتها لوضعها على محك الظاهرة، اختبارا لممكاتها المنهجية وبحثا عن أسباب التكيف في إجرائها لفهم ما انطمس بسبب الما قبلات التي تقدم نفسها على أنها حقائق أنطولوجية ثابتة ولمحاولة الانخراط في الدرجة الصفر من كتابة الحضارة الإنسانية التي فهمت الإنسان بالإنسان بعد أن أشكل عليه معرفة الإنسان مثلما يقول التوحيد.

إذا كانت الغاية الأولى غاية معرفية تروم استثمار منجزات الحداثة، فإن الغاية الثانية تتلبس تلبسا مندقا اندقا في واقع مازوم سيطر عليه هاجس التكفير وأنكر على الآخر حقه في التفكير فانتفت كل نزعة أنسنة وما ترتب عن ذلك من فشل في تحديث الظواهر وفشل في تنبئي مقولات الحداثة ومسارات التحديث وتم الحفاظ على أبنية عتيقة دمرت مناخات هذه المجتمعات السيمانية وأنظمة تصوورها للعالم. وقد ساهم ذلك كله في انفجار المقدس والاعتصام بحبل هويات ضيقة طفوسية أرثوذكسية. هذه بعض المقاصد المحورية التي تتأشك علينا فنكتب على أنفسنا إثارة ما أشكل منها.

لا ريب أن هذا المنهج الأنثروبولوجي يطرح إشكالات عديدة في علاقتها بمستوى التمثل – التصور أولا وبمستوى الإجراء ثانيا خاصة أن السياقات المعرفية لحقلي الأنثروبولوجيا والإباضية تبدو متباعدة فخلل إلينا تقاربهما فإذا هي أضغاث أحلام. وليكن ذلك كذلك.. ففي البدء كانت الكلمة. الرؤيا.

٢. في الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا التأويلية

كنّا قد أسلفنا الذكر أنّ رهاننا يتمثّل في اختبار أدوات الأنثروبولوجيا بحثًا عن إمكاناتها الإجرائية في تمثّل معالم الاحتجاج الثقافي عند المجموعة الدينية الإباضية. وبهنا في هذا السياق التعرف الى المتصورات الرئيسة التي يدور في فلكها بحثنا المنشود، وننبّه الى أنّ ذلك لا يعني استغراق المنوال المفاهيمي أو الجهاز المتصوّر للأنثروبولوجيا، بقدر ما هو إعلان عن منهجنا ومحاولة لحلّ مشكلاته واستثمار ما أمكن من آلياته، ما استطعنا الى ذلك سبيلا في هذه المرحلة.

من أجل ذلك استعملنا سابقة حرفيّة «في» دلالة منّا على التبويض، وهو تبويض يعمل على تمثّل المتصورات ومساءلتها قصد استثمارها على النحو المرجو.

نهتمّ في بحثنا بقطاع من قطاعات الأنثروبولوجيا وهي الأنثروبولوجيا الثقافية التي تبحث، فيما تبحث، عن «الطريقة التي تطوّرت فيها اللغات على مرّ الزمان والتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية»^(١). وغاية ذلك كلّ «شرح تعقيدات العالم»^(٢) وشرح الممارسات الثقافية عند النوع البشري وتأولها على نحو يشي بمنزلة الإنسان في العالم وفي الفضاء الذي يعمره.

كلّ ظاهرة ثقافية هي مجموعة من الممارسات التي ينجزها الإنسان بألة الترميز. فيغدو كلّ تفكير في هذه الظواهر تفكيراً في الإنسان ذاته، وإليه تُردّ الجواهر والأعراض وعبره تتشكّل هويته تشكّلاً متحوّلاً في ثباته أو هو المتحوّل يخالّه الرائي ثابتاً وما هو بكنّك. فالممارسات تتطوّر بحكم تطوّر العوامل الثقافية وتصور الإنسان لها داخل عوالمه، فاللغة والشعائر والقراية والمنازل وغيرها من تجليات الصناعة الثقافية تتحدّد انجازاً عبر الإنسان وتحديدًا عبر ما يكسبه الإنسان لهذه الممارسات الدالة من معانٍ دالة على فعل الأنسنة المرتبط برغبة الإنسان أبد الدهر في إضفاء معنى على وجوده. فُتبنى الهوية، إذّاك، بناءً حركيًا من خلال استراتيجيات سياسية ثقافية (سياسة الثقافة) ترجع صدى الذات في وعيها بتمايزها المستمرّ عن الآخر. وعبر مقولة الصراع تتحوّل التمثّلات الى منجزات رامزة لها موضوعاتها وصفاتها عند مجموعة بشرية في فضاءها.

(١) مارك أوجيه وجان بول كولان، الأنثروبولوجيا ترجمة د. جورج كتوره، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٨، ص ٧.

(٢) نفسه ص ١٦.

وهنا يقيم الأنثروبولوجي موضوعاته على مجموع التّوليفات الاجتماعيّة العينيّة، فالقراءة والنّسب والتّبادلات الاقتصاديّة والاجتماعيّة نحو الزّواج والجنائز تتحدّد بالتّأويل الرّمزي للعالم وبمقتضيات التّكيف مع المجال المحليّ، إنتاجا للسيادة الشّرعية (شرعية الوجود وحجّيته).

وإذن نقف على الدّاخل بين الاجتماعي العينيّ والتمثّل المجرّد الذهني. ويكمن رهان الأنثروبولوجي في اتّخاذ منزلة بين منزلتي المنجز والتمثّل وسياسات إنتاج ذلك ومأسسته على مستوى الخطاب وإبدالاته والذّيني وتطبيقاته في رحلة أخذ وردّ بين هذا وذاك ترحل فيهما ممارسات المعاني الى الحركات والإيماءات ووضعيات الجسد وتعبيراته إضافة الى الأعياد الذّينيّة والأصاحي والمهرجانات والصّور وفضاءاتها والمساكن وتقنيّات بنائها واللّغة ومجازاتها. أنّه كون مشهدي يقتضي الدّراسة، ثريّ برموزه، إنّها أنثروبولوجيا المشهد. وإنّ الهادي الى ذلك كلّ الصّراع، في مختلف أوجهه، المعلن عنها والمسكوت عنها. والصّمت أبلغ لأنّ الاحتجاج الصّامت مولّد لمجازات المعاني، محمّلا إيّاها ببلاغات لا قبل لها بالمعنى الحافّ بل بمعنى المعنى. إنّها بلاغة المحتجّين.

تتنزّل في هذا الإطار الأنثروبولوجيا التّأويليّة، وقد عمدنا الى إمطة اللّثام عن رهاناتها التي لا تخرج عن رهانات الأنثروبولوجيا العامّة، وهي قطاع يُعنى بدراسة الرّموز الثّقافيّة وصور تمثّلها في المجتمع أو بتأويل شبكة المعاني في حقل الاجتماع وفي دوائر العمران حيث تتشكّل الثّقافة في نظام المعاني بألة الإنسان. يُعتبر كلّ من غيرتز وشنايدر وتورنر وكوهين مُبرّزين في هذا المجال، فذهبوا في كلّ مصنّفاتهم، تنظيرا وتحليلا، الى أنّ الثّقافة إنّما هي سلسلة من الرّموز التي تشكّل نظاما، وهو نظام لا يتحقّق إلّا في مدارج السّالكين لسلوكات محمّلة بالمعاني، فلا معنى للقيم والعقائد والتصوّرات وأساليب التّفكير في الدّوات والموجودات في ذاتها بل في تحقّقها نصيا

واجتماعيًا بألة الرّمز^(١).

يعتبر صاحبنا غيرتزن أن «الثقافة تُقرأ كما يُقرأ النصّ وهي نصّ يتألف من مجموعة من النصوص- الرّموز التي هي نواقل المعنى^(٢)».

نلاحظ أن الأنثروبولوجيا التأويلية (وتسمى الرّمزية كذلك) تستعير من الأدب مناهجه ومتصوراته، بعضها، لدراسة نوازع الأنسنة في تحقّقها العيني، وهي لا تقتصر على الوصف الكثيف (Thick description) ^(٣) بل تشمل بالإضافة الى ذلك- الوصف التأويلي لهذه الوقائع ومحدّداتها الثقافية بإدراجها ضمن نسق نصّي على الأنثروبولوجي كشف مساراته الدالة ودلالاتها وأبنيتها المجازية واسترسال أنظمتها بما يجعل الحديث عن «إنشائية الثقافة» أو «إنشائية المخيال الثقافي» أمرا ممكنا، ف«الأشياء الثقافية» حسب قول أحدهم «هي عناصر رمزية للتراث الثقافي أو الأفكار أو المعتقدات أو الرّموز التعبيرية أو نماذج القيم».

يقتضي ذلك الحديث عن أنساق ترميزية تتجسّد في التصميم الفضائي والمؤسّساتي فننتج الرّموز وفق تلك الأنساق وتحددها بمحدّداتها. وهي أنساق إستعارية تستعير من تصوّرها لذاتها وللآخر نظمة بها تجترح معانيها و«تذوّت» صراعا وتشظّيها.

هذه المناويل المتصورة قد أجراها أصحابها الأنثروبولوجيون التأويليون على الظاهرة الدينية

(1) Clifford Geertz:

- The Interpretation of Cultures, Basic Books, New York, 1973.

- Savoir local, savoir global. Les lieux du savoir, PUF, 1986, 2012.

David Schneider:

- American Kinship. A Cultural Account, Chicago, University of Chicago Press, 1980, 2e édition.

Victor Witter Turner :

- The Forest of Symbols: Aspects of Ndembu Ritual (1967).

- Schism and Continuity in an African Society (1968).

- Dramas, Fields, and Metaphors: Symbolic Action in Human Society (1974).

Anthony Cohen :

- The Symbolic Construction of Community, 1985, Routledge.

- Whalsay: Symbol, Segment and Boundary in a Shetland Island Community, 1987, Manchester University Press.

(٢) كليفورد غيرتز ، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦، ص ٢٢٤-٢٢٥ .

(3) GEERTZ Clifford, « La description dense. Vers une théorie interprétative de la culture », Enquête, n° 6, 1998, pp. 73-105 ; id. in Daniel Cefaï, L'enquête de terrain, Paris, La Découverte / MAUSS, 2003, pp. 208-233.

أساساً، فراحوا ينظرون الى الذين على أنه مجموعة من الرموز الثقافية التي تضيف تماسكا على نظام المجموعة وبنية سلطانهم. فتعتبر العقيدة صحيحة بالقدر الذي تنهض فيه بوظيفة اجتماعية وكذلك بالقدر الذي تضارع فيه وسائل إضفاء الشرعية على الطبقات المسيطرة أو وسائط التظلم بالنسبة الى الطبقات المسيطر عليها.

ضمن هذا الرهان الوظيفي يندرج الذين باعتباره ثقافة أو بنية ثقافية تنشئ رموزها ومعقوليّتها الخاصة بها بحثا عن منزلة لهذا الإنسان في الكون ولطرائق بنائه لعوالمه المتخيلة والواقعية.

نفهم في هذا السياق ديناميّة المجموعات الدينية وتطوّراتها عبر لاوعيتها وقد تتشكّل في مظاهر تبدو واعية عند مريديها. ليست الجنائز سوى نموذج دالّ على ذلك فهي «تؤسّس أحيانا لوضعية أجداد، وتعتبر بمثابة طقوس عبور نهائي (...) إنها نهائية الجسد الفردي، في حين أنّ الجماعة هي التي ستستمرّ جسما اجتماعيا يستحقّ أن يُعطى له المعنى»⁽¹⁾. وهي مهمّة أخرى موكولة الى الانثروبولوجي الذي كُتب عليه أن يجعل هذه الممارسات نصوصا تُقرأ وتُفسّر فتتأوّل. يقول غيرتز في هذا السياق: «إنّ أيّ دراما طقسية يمكن التّعامل معها كنصّ أي تدوين للفعل»⁽²⁾.

يبقى السؤال الأهم بعد ذلك عن علاقة هذه المقاربة بمجال الإسلام ومتعلقاته، من الظواهر والنصوص، وهو سؤال اشكاليّ يفتح على مشاريع جوابات.

٣. في أنثروبولوجيا الإسلام

من جميل الصّدق أنّه عندما عدنا الى غيرتز وبعض الذين اشتغلوا بالأنثروبولوجيا التّأويلية قد وجدنا الإسلام حاضرا في قلب هذه المقاربة، فغيرتز قد انشغل بالظاهرة الإسلامية في مُحكم أعماله، إذ قام سنة ١٩٥١ بأبحاث ميدانية في أندونيسيا قدّم فيها مقاربة حول الدين في جزيرة جاوه وكانت نتيجة أبحاثه كتاب «الدين في جاوه»⁽³⁾.

ولم يقتصر على ذلك إذ سافر الى المغرب وقام بأبحاث ميدانية بين ١٩٦٣ و ١٩٧١ أثمرت بحثين

(1) مارك أوجيه وجان بول كولان، الأنثروبولوجيا بنفسه، ص ٥٣.

(2) The Interpretation of Cultures. Selected Essays, New York, Basic Books, 1973, p 72.

(3) The religion of Java, University Of Chicago Press 1976.

على قدر من الأهمية وسَمَّ الأول بـ«ملاحظة الإسلام: التطورات الدينية في المغرب واندونيسيا» وعُنون الثاني بـ«المعنى والنظام في المجتمع المغربي: ثلاث محاولات في التحليل الثقافي»^(١) وهو بحث قام على منهج مقارن لرؤية الإسلام عند الاندونيسيين والمغاربة.

والحق أنَّ مقارنة الإسلام هذه لا تتفصل بحال عن التمشي التأويلي عند غيرتز باعتبار أنَّ الدين هو نسق من الرموز «يعمل على تأسيس طبائع ودوافع ذات سلطة وانتشار واستمرار دائمين لدى الناس، وذلك عبر تشكيل تصورات حول النظام العام للوجود، مع إضفاء طابع الواقعية على هذه التصورات بحيث تبدو هذه الطبائع والدوافع واقعية بشكل متفرد»^(٢).

ويقصد غيرتز من وراء ذلك أنَّ الدين يربط الصورة الجوهرية للحقيقة بمجموعة من الأفكار المتناسكة حول الطريقة التي ينبغي على الإنسان العيش وفقها، موفِّقا بذلك بين الأنشطة البشرية وصورة النظام الكوني.

من أجل ذلك اعتبر أنَّ التاريخ المغربي هو «تاريخ ديني بالأساس»، حيث بدت الشخصية المساهمة في نحت هذا التاريخ شخصية دينية ولا تزال. ومن أجل ذلك أيضا اعتبر أنَّ الحضارة الإسلامية بالمغرب قد شكَّلت أساسا عن طريق القبائل المتحركة التي كانت تمثِّل مركز الثقل الثقافي.

لقد شملت مقارنته تاريخ المغرب الحديث كذلك، فرأى أنَّ الإسلام نهض بدور رئيس في الحفاظ على الذات المغربية وملاحم شخصيتها الوطنية أثناء الاستعمار، وأنَّ الظَّهير البربري هو الذي دعم الحركة الوطنية وأنَّ المؤسسة الملكية في عهد محمَّد الخامس قد ساهمت في الحفاظ على الوحدة الروحية للمغاربة حيث أعاد الملك تشكيل صورة الولي الصالح فجمع، أثناء حكمه، بين صورتَي الولي الصالح والسياسي المقتدر.

(1) Islam Observed, Religious Development in Morocco and Indonesia (1968), University Of Chicago Press, 1971.

-GEERTZ Clifford, GEERTZ Hildred & ROSEN Lawrence, Meaning and Order in Moroccan Society. Three Essays in Cultural Analysis, Cambridge, Cambridge University Press, 1979

(2) Clifford Geertz, The Interpretation of Cultures: Selected Essays, New York, Basic Books, 1973 p. 90.

هذه النتائج الكبرى التي توصل إليها في أبحاثه الفريدة قد ارتكزت على رصد التغيرات الدينية وعلى المعطيات الميدانية والتاريخية التي جمعها حول الموضوع، مستندا في ذلك الى التصور «الغيري» الذي جعل المؤسسة الدينية مؤسسة اجتماعية والعبادة نشاطا اجتماعيا والاعتقاد قوة اجتماعية. فتأول بذلك أنساق الدلالة التي يخرط في صلبها الفرد^(١).

بلغت نتائج غيرتز أقصاها في كتابه «تأويل الثقافات» حيث اعتمد منهجه التأويلي في فهم الأحداث وأبعادها الرمزية والأسواق (سوق سفرو) وأبعادها الاجتماعية التعريفية^(٢) مركزا في ذلك على مفهوم «البازار» وكيفيات تحديده لمنطق التبادلات الاقتصادية التي تستغرق العلاقات الاجتماعية وتحدد مجالات الائتلاف والاختلاف بين الفاعلين في هذه المبادلات التي تخرج عن حيزها الاقتصادي الى دوائر رمزية. ويحصل ذلك في فضاء مخصوص (مدينة سفرو المغربية)، وهي مدينة تقع بين الجبل والسهل وعلى الحد الفاصل بين القبائل الناطقة بالعربية والقبائل المتأصلة في لسانها الأمازيغي، إضافة الى اختزالها لعمليات تفاعلية رمزية ترتبط بالتعدد الديني في هذه المدينة (مسلمون ويهود) وهي كلها محدّدات تخطّ استراتيجيات احتجاجية حاجية^(٣).

تشابه منطقة وادي ميزاب مدينة سفرو في تعددها اللساني والفرقي والديني، إذ يتقاسم الفضاء الميزابي العرب المالكية والأمازيغ الإباضية.

يقع وادي ميزاب في جنوب الجزائر شمال الصحراء الكبرى في ناحية تسمى الشبكة وهي منطقة تتخللها أودية. وتبعد ميزاب عن مدينة الجزائر بثلاثمائة وعشرين ميلا ونصف الميل (٦٠٠ كيلومتر)، ويتكون وادي ميزاب من سبع مدن، خمسة منها متجاورة: وهي العطف، بنورة، مليكة، بني يزقن، وغرداية، واثنان تبعدان عن المجموعة قليلا هي مدينة بريان التي تبعد عنها بأربعة وعشرين ميلا (٥٠ كيلومتر) وهي في شمالها الشرقي، ومدينة القرارة البعيد عن المدن

(١) حلّ غيرتز صورة الولي اليوسي الذي يجسّد في نظره «صورة الزوجانية الحقيقية» عند المغاربة بغضّ النظر عما كان عليه هذا الرجل في الواقع. وقد كشف غيرتز من خلال تحليله لهذه الصورة وطرائق تمثّلها في المخيال الشعبي المغربي عن كنه معنى البركة الذي لا يمثل مفهوما دينيا فقط بل هو محرّك للتاريخ الثقافي المغربي. راجع في هذا السياق: Clifford Geertz, Islam Observed, op. cit., pp. 112- 126.

(2) GEERTZ Clifford, Le Souk de Sefrou. Sur l'économie du bazar, trad. Daniel Cefai, Paris, Bouchène, 2003.

(3) راجع كذلك تحليله للصراع بين الشبكة الذي يعفده أهالي بالي. وقد اعتمد فيه غيرتز ما أسماه الوصف الكثيف ثم ألحقه بمقالاته في كتابه «تأويل الثقافات»، مرجع مذكور، ص ٧٩ - ١٣٠.

الأخرى بأربعين ميلا ونصف الميل (١٠٠ كيلومتر) وهي في شرقها.

قد أفلح عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦٠ هـ، في تأسيس أول دولة إسلامية، واتخذ تاهرت عاصمة لها، وهو يعد تلميذا من تلاميذ أبي عبيدة وأحد حملة العلم عنه.

تذهب أغلب المصادر إلى أن هذه الدولة قد شهدت تطورا فكريا عقديا عبر تشجيعها لحركة التأليف وانفتاحها على كل المذاهب والفرق فاستغل الخصوم انشغال الساسة بالتأليف واعتزال الصراعات السياسية الحربية لتقويض حكم الرستميين فسقطت الدولة الإباضية سنة ٢٩٦ هـ إضافة إلى عوامل أخرى تمثلت في الصراعات السياسية من أجل الزعامة بين الأئمة المتأخرين.

هاجر الإباضية بعد هذه النكسة إلى سدراتة ووارجلان وبعدها إلى ميزاب، فأسسوا أول مدينة لهم وهي العطف، وذلك سنة ٤٠٢ هـ.

يبدو أن تجربة وادي ميزاب قد تعرضت لتعتيم مستمر، لأنها تواصل للتجربة الخارجية في المخيال الإسلامي الجمعي بشكل أو بآخر أو لأنها تشكل إدانة لسواد المقالة السنّة. ولذلك يجري استبعادها وإغفالها بحجة أن الإباضية مذهب من مذاهب الخوارج.

يمكن تلخيص الفلسفة الميزابية في بناء «المجتمع الفاضل» حسب تصوّرهم بأنها قائمة على المساواة والعدل والإخاء من جهة، والرشد والاعتدال من جهة أخرى، وجعلها واقعا صلبا يؤثر في حياة جميع أفراد المجتمع من جهة ثالثة. تتجلى مفردات هذه الفلسفة في جميع جوانب الحياة في مدن وادي ميزاب. ويسهر على تطبيق هذه الفلسفة مجلسان منتخبان أحدهما للرجال والآخر للنساء، يضم كل مجلس اثني عشر عضوا من الرجال والنساء ويسمى كل من المجلسين بمجلس العزابة.

العزابة أعلى الهيئات الدينية والسياسية بميزاب وهو نظام معقد والمكونون لهذا المجلس يعرفون في أوساط العامة من الميزابيين باسم «إعزّابن» والواحد منهم يسمى «أعزّاب»، وهم يمثلون العلماء والأئمة وأهل الرأي والشورى.

يقوم المجلس بالإشراف الكامل على شؤون المجتمع الإباضي الدينية والتعليمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. تظهر هذه الفلسفة في تخطيط المدينة الميزابية نفسها التي يحتل

المسجد مركزها. وأول ما يشدّ انتباه الملاحظ للمدن الميزابية وقوعها في روابٍ (هضاب) ، و يرجع ذلك إلى الظُروف الأمنيّة الصّعبة التي عاشها الميزابيون في ذلك الوقت ، إذ كانت بلادهم تقع في منطقة جيرانها يعتمدون النهب و السّلب. في أعلى تلك الربوة ، يقع المسجد وسط المدينة، واختيار الميزابيين لهذا الموقع لإقامة المسجد دليل على أهمية وظائفه المتعددة ، فهو بجانب وظيفته الدّينيّة ، ينهض بدور قاعة الاجتماعات الهامة و المركز العلمي للمدينة و مخزن المؤن ، والمركز الدّفاعي للمدينة ، إذ نجده في المدن الميزابية مُحصّنا. يراعى في مساجد ميزاب البساطة و التقشف و الابتعاد عن كلّ ما قد يشغل المصلّي عن الخشوع في عبادته ، حتّى المحراب فإنّه خال من أيّ زخرفة حتّى في المساجد المبنية حديثا. تتدرج المساكن متلاصقة متلاحمة لا يعلو واحد على آخر على امتداد الربوة، حتّى تنتهي بمجموعة أبراج دفاعية وسور مُحصّن يحيط بكامل المدينة. السّوق هو المكان العمومي الوحيد بعد المسجد الذي يمكن لأهل البلدة أن يجتمعوا فيه و يتبادلوا الأخبار و يتفقّدوا أحوالهم يوميا ويستريحوا من تعب العمل ، بالإضافة إلى ممارستهم البيع و الشراء. ويُراعى في موقع السّوق أن يكون خارج المساحات السكنية، وكلّما اتّسعت المدينة فإنّه ينقل إلى مكان أبعد. ويشرف العرّابة على السّوق إشرافا صارما لا هوادة فيه، ويحدّدون الأرباح ومن ثمّ أسعار كلّ سلعة و يحدّدون ما يجوز تداوله وبيعه. لا تقام الأعراس عائليا في مدن الوادي بل هي أعراس جماعيّة يحدّد مجلس العرّابة مواعيدها وينظّم الإنفاق عليها، و يحدّد المهور والهدايا المقدّمة لكلّ عروس عند زواجها، بل يمنع الرّجل حديث الزواج من تقديم أيّة هديّة لزوجته عدا هدايا العرس وذلك لمدّة عامين. والحكمة من ذلك أنّ اليتيمات يتزوّجن أيضا في الأعراس الجماعيّة، ولا يريد المجلس لأيّ منهن أن يشعرن أنّ ما قدم إليهن عند الزواج أو بعده أقلّ ممّا قدّم للأخريات.

(صورة لمدينة غرداية، عاصمة وادي ميزاب)



جَمَعْنَا معلوماتنا هذه حول هذه المنطقة وإباضيّتها من خلال شبكة الأنترنت^(١) وكذلك عبر معارفنا من الأصدقاء الجزائريين الإباضيّة منهم وغير الإباضيّة^(٢) وشيعة الإباضيّة وشيوخها، أمّا المعلومات الأهمّ فقد حصلناها ممّا أَطَّلَعْنَا عَلَيْهِ من مراجع الإباضيّة الّتي كُنَّا قد أَطَّلَعْنَا عَلَيْهَا. يبدو أنّ هذه المنطقة بمنهجها مخالفة للسّائد من المدن وهي على صورتها منذ تأسيسها بعد أن فرّ إباضيّة تاهرت من التّغّيّل الّذي تعرّضوا إليه من قبل الدّولة الفاطميّة بعيد سقوط الدّولة

(1) www.mzab-online.com (12-05-2011)-17:34

(2) www.facebook.com/MzabMedia (12-05-2011)- 19:06

نلاحظ كذلك أنّ هذه المنطقة ترتدّ إلى لحظة تأسيسيّة جينيّة هي لحظة الاحتجاج للذّات في مواجهة الآخر عبر التحصّن ايكولوجيًا في منطقة نائية تمنع الجماعة من الاندحار.

وإذن :

❖ نعتبر أنّ الاسلامات التّاريخيّة قد قامت على الاحتجاج والظّاهر أنّ وادي ميزاب هو الأنسب لإبراز معالم هذا الاحتجاج في الفضاء التّقافي نظرا إلى محافظته على «نقائه العقدي»، فنظام العزّابة (وهو النظام الذي يعتمد الإباضيّة في فترة الكتمان أو الدّفاع) لا زال قائما في وادي ميزاب بالجزائر وهو الذي يسوس العباد كما حدّده مؤسّسه (أبو عبد الله محمّد بن بكر) حيث يمكن فهم المجتمع الإباضي في ميزاب مدخلا لفهم الاحتجاج وأبنيته وطرائق تأوّله.

❖ حافظ «التحصّن الايكولوجي» جنوبا على معالم المجتمع الإباضي «النّمودجي» وإنّ مسّه التحوّل والتطوّر سنّة ولن تجد لسنة التطوّر البشري تبديلا.

❖ تتداخل المعطيات الإثنيّة والدينيّة والسّياسيّة في رسم ملامح الاحتجاج.

عمدنا الى التوسّع في التعريف بالأنثروبولوجيا التّأويليّة وربطها بفضاء وادي ميزاب بعلّة الكشف عن بعض من ملامحها المنهجية ونتائجها الفكرية، واحتجاجا منا لهذا المنهج وإضفاء لـ «شرعيّة استعارته» من سياق الغيرتزي الى سياق نرمي الى تشكيله والذهاب به مذهباً شططا، أو هكذا نزع.

نصل في هذه المرحلة الى النتائج التّالية:

❖ ترتبط الأنثروبولوجيا بالممارسات التّقافيّة عند المجموعات البشريّة ولا تقتصر على توصيفها وتجريدها بل تصبو الى تأوّل ديناميّاتها وأنماط اشتغالها.

❖ لا يردنّ علينا أحد قولنا إنّ القائل بارتباط الأنثروبولوجيا التّقافيّة، التّأويليّة منها على وجه الخصوص، بسياق غير الذي نروم تقليب نظرنا فيه إنّما هو موقف مردود عليه وهو ادّعاء لا سند له، بل هو سراب الفيافي يحسبه الضمّان ماء وما هو ببالغه.

❖ لقد انفتح علم الإناسة التأويلي على الإسلام تشكلاً وممارسات وأنساقاً ترميزية. ونسعى الى توسيع دوائره الإجرانية «الحقلية» على سبيل اختبار سعة هذا المنهج ومداه في تقصي الظواهر في وادي ميزاب والنزول الى قيعان أبنيتها الرمزية وما يمكن أن نقدّمه من بدائل في تلك اللحظات التي يقصر فيها هذا المنهج عن إدراك شيء من المدرجات.

❖ النظام الأنثروبولوجي التأويلي نظام تحاكي ينطلق منه ويستند إليه ويعود إليه ويتمثل دور الأنثروبولوجي الحقّ في كُفر حقيقته والكشف عن مناهج الملة فيه (ملة بني ميزاب).

❖ قد تكون دراسة أنماط الاحتجاج الفرقي في مختلف هياته توسعاً في إثبات الأبعاد الثقافية للتمايز الفرقي وإبرازاً لوجوه الطرافة في فهمه والوقوف على مردوديته الرمزية في فضاء الثقافة العربية الإسلامي الذي غدا فضاء إقصاء وتهميش بسبب من هيمنة الأرثوذكسية الدينية والعرقية عليه.

لا تتأتى المشروعات العلمية المرجعية لاستثمار الأنثروبولوجيا من أعمال غيرتز فحسب بل من المفكرين العرب من نذر حياته في محاولة استدعاء هذه المقاربة ومنهجها لفهم السياق الحضاري للثقافة العربية الإسلامية وتجاوز مآزقها. فانثروبولوجيا الإسلام امتدت الى فضاء الحضارة الإسلامية واهتمت بالبحث في التعبيرات العقدية المغايرة للنسق الإعتقادي السني- الأرثوذكسي بحثاً عن الأنماط التداولية للإسلام المعياري في فضاءات محلية، مفردة في محليتها، محملة بخصائص أنثروبولوجية لا تفي مقولة الإسلام التاريخي في شموليتها بتقديم مقاربة عميقة لها.

وهو أمر يقتضي استحداث تقاليد نقدية جديدة تتجاوز المواضع المعرفية السائدة وتفتح على مكتسبات العلوم الإنسانية ومناهج النقد الفلسفية والأدبية واللسانية. ولن يتأتى ذلك إلا بكشف السياقات الأنثروبولوجية لتشكل أنظمة اللاهوت وتكيفها مع معطيات الواقع المحلي وتحولها المستمر. يقول محمد أركون في هذا السياق «لهذا السبب فإنني أدعو الى مراجعة شاملة لمسألة الفكر العربي والثقافة العربية في المغرب الكبير من أجل خلق الشروط الثقافية والعلمية لتأسيس فكر مغربي نقدي قادر على توسيع منطقة المفكر فيه لكي تشمل كل المجالات المحروسة حتى الآن، إمّا من

قبل الأرثوذكسية الدينية وإما من قبل الأرثوذكسية السياسية، وإما من قبل تحالف الإثنين معا»^(١). دعا أركون في مدوّنته الفكرية الى اعتماد الأنثروبولوجيا والإسلاميات المطبقة لتجاوز «الاستراتيجيا الاستيعابية النذوبية» للمغرب التاريخية التي تختلف تصوّرا وممارسات مع إسلامات المشرق وإن كانت هذه الإسلامات نفسها منتمية الى الدائرة العقدية ذاتها في المشرق الإسلامي. فإباضيات المغرب تختلف عن إباضية المشرق.

لقد قامت مناويل فكرية كثيرة بإلحاق «المغرب الإسلامي» بالمشرق نظرا الى إيديولوجيا التفرد والفرادة التي أكسبها الدعاة الإيديولوجيون لفضاء المشرق وقد صلّوا في هياكله وقدسوا أقداسه الحضارية فصار عت حقائق الوجود ثباتا. لقد استأصلوا المغرب من سياقاتها التاريخية وخصائص فضاءاتها الأنثروبولوجية بمنطق التكيف القصري والإلحاق التراتبي والدود عن منطق المفصليات التاريخية^(٢).

ساهمت هذه الاستراتيجيات النذوبية في احتجاج الشعوب المدمجة عليها من خلال أبنيتها التصورية ولا شعورها الجمعي فانبرت تحتج في فضاءاتها على الفضاء الثقافي المغاير الذي ألحقت به إلحاقا ثقافيا منعت رصيدها الإناسي من التوهج والإشراق.

قامت ممارسات هذه المجموعات السوسيوثقافية على مرتكزات قاعدية مختلفة في إنتاج الدلالة الاجتماعية-الثقافية والتصوّرات المفارقة المتعالية ف«تاريخ الأتاريخ يفصل الأمكنة عن أزمنتها، والثقافات عن موادها التكوينية وعن دينامياتها التوليدية وعن مجالاتها الحيوية، ليلحقها بتاريخ معياري، شكلاني، ثمة ميتا-تاريخ هو التتويج المطلق لكل الترسيمات التاريخية ولكل أشكال اشتغال البشر على شرطهم الإنساني لصياغة تواريخ مختلفة وعابقة بالمعنى»^(٣).

(١) محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٠، ص ٤٢.

(٢) يُعتبر الجابري من الذين أدلجوا أنواتهم المعرفية دفاعا عن منطق الأفضلية العربية وقد توسّل في ذلك بمقاربة عروبية طمست معالم الذاتية المغاربية الثقافية بمبضع نقدي إيديو-سياسي، راجع مقالنا الموسوم بـ [في نقد «نقد العقل السياسي العربي» عند الجابري: تسلطة السلف ورهانات الخلف]. وقد شاركنا به في ندوة قسم العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة ندوة السلف والخلف أيام ١٥ و ١٦ و ١٧ أبريل ٢٠١٣.

(٣) محمد أركون - رهانات المثاقفة بالمغرب الكبير بعد الاستقلال - مقاربة أنثروبولوجية - ترجمة : عبد الكريم شوطا - مراجعة : محمد عابد الجابري - فكر ونقد - العدد - ٢٠ - يونيو ١٩٩٩ - ص ٣٢.

إنّ الفضاء المغاربي الكبير محمّل بمخزون ثقافيّ تفاعلت مكوناته وعناصره عبر مسار تاريخيّ متشابكة توليفاته العرقية (الأمازيغيّة) والدينيّة (اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام) والأسطوريّة (التقاليد الثقافيّة الإغريقيّة والرومانيّة). إنّ تناقض إنسانيّ كان عابرا للزمان، محدّدا لملامح الشخصية المغاربيّة وتعبيراتها الثقافيّة والسياسيّة وصياغاتها الفضائيّة البيئيّة الثقافيّة وأنظمتها الاجتماعيّة والإقتصاديّة في مسار ثابت رغم محاولات تنميطها، قديما وحديثا، عبر استراتيجيات عديدة. فكانت شخصية عصيّة على التّمنيط والنّمذجة.

هنا يظهر الاحتجاج في أكثر أشكاله توهجا وفي شبكة من العلاقات معقّدة تصدرتها الذات المغاربيّة من خلال مقاومتها لكلّ أشكال الاستيعاب عروبيّة كانت أو استعماريّة. وهي في الحقيقة ليست سوى فضاءات باحثة عن فضاءات مجالات حيويّة تقتضي في البدء استيعاب كليّات التاريخ في صور جوهرانيّة ممأسسة.

قد اختلّت المبادلات الرّمزيّة في «سوق السّلع الرّمزيّة» وفي توزيع الفئ الرّمزي، فاحتكر الرّأسمال الرّمزي في مجالات عديدة: لسانيّة (مركزيّة لسان العرب) وفريقيّة (مركزيّة الأرثوذكسيّة السنيّة المالكيّة في المغرب) وعريقيّة (أفضليّة العرب على الأمازيغ) ودينيّة (مركزيّة الاسلامات وهامشيّة الديانات الأخرى خاصّة اليهوديّة الموزّعة على مجال المغرب).

تقتضي هذه المركزيّة محاولة تفكيكها لا على سبيل التّفكير في تشكّل الغرب الإسلامي ومقالاته، فهذه مجالات قد تطرّق إليها بخاتّة كثر نحو هشام جعيط^(١) والمبروك المنصوري^(٢)، وإنّما على سبيل فقه ظواهر الاحتجاج وتاصيلها في سياقاتها التاريخيّة والثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والنصيّة وردها خاصّة إلى أدواتها الرّمزيّة التي تضيف على نظام التّحاج أبعادا أنثروبو-ثقافيّة. ويتمّ ذلك عبر دراسة تشكّلها أنثروبولوجيا وايكولوجيا وسيميائيا، جلبا لمنافع التعرّف الى الفرادات الثقافيّة والصّياغات الإبداعيّة للمحتجّين ودفعاً، في المقابل، لمضارّ الوقوع في التّفليق عوض التّوفيق، والإتباع عوض الاستكشاف، والتّوصيف الشكليّ عوض التّأويل الرّمزي.

(١) هشام جعيط، تأسيس الغرب الإسلامي، بيروت: دار الطليعة، ط١، ٢٠٠٤.

(٢) مبروك المنصوري، عقائد الإسلاميين في بلاد المغرب الى نهاية القرن السادس الهجري، الثّاني عشر الميلادي، بآثرها في المذاهب الفقهيّة (أطروحة دكتوراه بإشراف الأستاذ المنصف بن عبد الجليل) بحث مرقون بكلية الآداب، مئونة ٢٠٠٤.

لا ريب أن الأنثروبولوجيا الثقافية يمكن أن تساعدنا على كشف نظام المعرفة وتلبسه بالأنظمة الثقافية تلبسًا تشي به أنظمة الاحتجاج والديناميات الروحية وما تنتجه من معان عند الجماعة المدروسة.

نصل من ذلك كله الى القول إن اعتماد الأنثروبولوجيا في مجال المغارب الإسلامية يستند الى مرجعيات معرفية تطبيقية شغلت الباحثين وهي عتبة للعبور الى أبحاث متجددة ما تجددت أنظمة المعرفة الأنثروبولوجية وراجعت مقولاتها ومتصوراتها.

ولا يخفى مع ذلك أن الحديث عن أنثروبولوجيا الإسلام أو أسلمة المعرفة يبقى إشكاليًا لا يمكن فصل المقال فيه إلا بتدبر نجاعتها الإجرائية موظفة في حقل الاسلامات وتحديد مدى تماسكها النظري. وهو رهان يبقى قائما حول النجاح في ربط مجال الأنثروبولوجيا التأويلية بمجال الإسلام الإباضي في وادي ميزاب. وما يمكن أن يوقره ذلك من مشاريع بحثية مستقبلية نقوم بها نحن أو غيرنا من الباحثين.

نخلص الى نتيجتين هامتين:

❖ تعتبر أنظمة الاحتجاج القاعدة المتصورة التي عنها صدرت المقاربات التي ذكرناها في طيات مقالنا. لكننا نذهب باحتراز الى القول إن هذه القاعدة المتصورة قد غُبر عنها تعبيراً يتمشى والأدوات المتاحة من تاريخ وحصر للمسألة في ثنائيات معينة.

❖ تحتاج النزعة التجريبية التي تم توكيد حيويته واجرائيتها الى تعميق النظر في عينات محلية ودراستها دراسة مستفيضة. فالإسلام المغاربي إسلامات تتصل بوجه وتتفصل ثقافياً من وجوه. فلئن سادت المقالة الخارجية الاحتجاجية في الجزائر، فإن المغرب الأقصى قد برزت فيه مقالة التصوف والإشراق، وهذا أمر يحتاج الى دراسة تقوم على مقارنة الأصول الإشتقاقية لهاتين المقاليتين في فضائيهما الأنثروبولوجيين.

إن تتبّع متصوراتنا والإيغال فيها يساهمان في مساعدتنا على تحويل هذه المعطيات الإشكالية الى خطة عمل دقيقة لذلك نرى أن بحثنا يتأسس على جهاز مصطلحي يجعل الاحتجاج القاعدة الأصلية التي تنشد إليها باقي المصطلحات والمفاهيم. ونهدف الى إصابة غرضين اثنين ينفتحان

على كوى تستتبع الإشكالات إذ تحاصر بعضها وتعدّد الأغراض:

١- غرض الظواهر مبثوثة في النصوص – المصادر (أي التصورات والتمثلات ونزعات التأسيس والتشكيل في كتب الطبقات والسير والفقہ والحديث والسير).

٢- غرض النصوص المتسرّبة الى الظواهر (الممارسات الثقافية المنجزة في فضاء عيني أي منطقة وادي ميزاب). هذه الأغراض – المحمولات تتفرّع الى محمولات نوى مثل مسائل الصلاة والوضوء والتحوّط والجناز والعقائد وإبدالاتها الرمزية، وإنّ منها لما يشقّق فيخرج منها الرّمز في علاقته بنزعة الإحتجاج في فضاء وادي ميزاب تجاه الآخرين (المالكية ومخايلهم).

ولا نقصد بالفضاء الفضاء «الفيزيقي» الهندسي فحسب، وأنما نضيف إليه الفضاء في معانيه الذهنية وقد أثّرت عبر دوال الإحتجاج.

فالفضاء هو مشروع استثمار رمزي يرتكز على مجموعة من المحمولات – النواقل لثقافة الجماعة المحتجة المدروسة وقد ملئت معنى.

إنّها رحلة المعاني في الفضاءات عبر استراتيجيات ترميزية تُشتقّ من فضاء النص وتأتلق في نصّ الفضاء المنجز بجامع هو الإحتجاج. فنحوّز الحديث عندها عن فضاء احتجاج (contestation Espace de) وما يعنيه ذلك من احتكار رمزيّ له يضيف على المجموعة وجودا عينيّا – ذهنيّا تكشفه الممارسات السيمائية والتمثلات الرمزية في الفضاء حول الفضاء (ميثاق-فضاء ربّما...). هو احتجاج «بمشهد» ذاته بذاته ويتخذ لبوسا دينيّا شعائريّا وسياسيّا طقوسيا تخليدا لفعل المقاومة من أجل الوجود.

لا معنى لبحث في الإحتجاج دون إضفاء معنى على الفضاء الذي يعبر عن نسق تأسيسيّ إحتجاجيّ يضيف على الممارسات الثقافية الإحتجاجيّة بعدا مكانيّا أو ربّما يحتكم هذا المكان نفسه إلى «مخيال مكانيّ» يطلب استعاراته ومجازاته وهي بلاغات مكانيّة منبهمّة تحتاج الى من يفكّ انبهاهما ليصرفها في مسالك تداوليّة تتجاوز المحلي الى الإقليمي والإقليمي الى الكون الإنساني.

وهذه أشكال/فضاءات كلّما خلتها اكتملت إلّا وبدت منها أشكال أخرى وحده التوليف والجمع والتنسيق والمدورة والتقليب والقياس والمقارنة والاستنباط والاستقراء المحقّقة للمنشود، الكاشفة

عن الموجود.

لا ضرر إذن في عرض محاور الإستغلال الكبرى أو المحمولات التي نرغب في معاينتها، وهي لا تخرج بحال عن إمكانية التقويض أو التعديل أو الإضافة وفق ما يقتضيه حقل البحث وما ستقدمه لنا المصادر والمراجع من معطيات:

المدينة وتنظيمها/ المساجد وأبنيتها/ الأسواق ومبازلاتها/ المقابر وهيئاتها/ وهي محمولات تنشأ في فضاء النص لتتحول بدورها الى نصوص تُقرأ فتأول.

الخاتمة

وإذن نهدف الى عقد علاقات «بين- نصية» بين الفضاءات (فضاء النص ونص الفضاء) والكشف عن أنسجتها الرمزية اعتمادا على مقارنة يتنافذ فيها الأنثروبولوجي والسيميولوجي في حقل معرفي مشترك، نتحدث عن «الفضاء النصي الأنثروبولوجي» وحركة علاماته ورموزه في حلقها وترحالها وما يلحقها من تطورات يملئها الاستعمال ويثريها الاحتجاج.

لا نرمي الى كشف «النسق العلائقي» القائم بين هذه الممارسات الرمزية فحسب، بل نتعداه الى ربط هذا النسق بالتمثلات العقدية عند إباضية وادي ميزاب وسياقاتها التأسيسية، وبذلك نخرج من صمت السكون الى صخب الحركة في إطار حركة «أنثروبو- ثقافية» تصبو الى كشف أعيان المعاني وطبقاتها دونما سهو عن خطاب السلطة: سلطة الفرقة وسلطة الجماعة وسلطة الدولة. يتطلب ذلك حفرا في جينالوجيا الخطاب واقتفاء أثرها في الفضاءات وتنقيها عن طاقاتها الحجاجية الإحتجاجية. وهي مقارنة كفيفة بالإجابة عن حرقه الأسئلة، أسئلة الماضي والحاضر، دونما تنكّر لسؤال حارق طارئ: هل يمكن الحديث عن «أنثروبولوجيا إسلامية» أو «أسلمة للأنثروبولوجيا»؟

المصادر والمراجع

أ- الكتب والدراسات

• المصادر والمراجع العربية:

١. أركون، محمد، قضايا في نقد العقل الذيني كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٠.
٢. (البكّاي) لطيفة، حركة الخوارج نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠١.
٣. (الجعبري) فرحات،
٤. نظام العزّابة عند الاباضية الوهبيّة في جربة، تونس، المطبعة العصريّة، ١٩٧٥.
٥. دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الإسلامية، دار الجويني للنشر، تونس، ١٩٨٨.
٦. (جعيط) هشام، تأسيس الغرب الإسلامي، بيروت، دار الطليعة، ط١، ٢٠٠٤.
٧. (جليّ) أحمد محمد أحمد، دراسة عن الفرق في تاريخ الإسلام الخوارج والشيعة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٦.
٨. (بوعجيلة) الوريحي ناجية، الإسلام الخارجي، بيروت - لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر ورابطة العقلايين العرب، ط١، سبتمبر ٢٠٠٦.
٩. (المريمي) محمد، اباضية جزيرة جربة خلال العصر الحديث، دار الجنوب للنشر - كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، تونس، ٢٠٠٥.
١٠. (معمر) علي يحيى، الاباضية دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم، د.ت ودون دار نشر.
١١. (المنصوري) مبروك، عقائد الإسلاميين في بلاد المغرب إلى نهاية القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وأثرها في المذاهب الفقهية (أطروحة دكتوراه بإشراف الأستاذ المنصف بن عبد الجليل)، بحث مرقون بكلية الآداب، منوبة ٢٠٠٤.
١٢. (النامي) عمرو خليفة، دراسات عن الاباضية، بيروت، دار الغرب الاسلامي، ٢٠٠١.

• المعرّية:

١. (أوجييه) مارك وجون بول كولايين، ترجمة د. جورج كتوره، الانثروبولوجيا، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٨.

٢. (غيرتز) كليفورد ، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦.

• المصادر والمراجع الأجنبية:

(Cohen) Anthony:

1. The Symbolic Construction of Community, 1985, Routledge.
2. Whalsay: Symbol, Segment and Boundary in a Shetland Island Community, 1987, Manchester University Press.
3. (Dangel).G,L'imamat ibadite de Tahert(761-909),contribution a l'histoire de l'Afrique du nord durant le haut Moyen Age, Thèse 3 cycle Strasbourg 1977.
4. (GEERTZ)Clifford:
5. Islam Observed, Religious Development in Morocco and Indonesia (1968), University Of Chicago Press, 1971.
6. The Interpretation of Cultures, Basic Books, New York, 1973.
7. The religion of Java, University Of Chicago Press 1976.
8. GEERTZ Clifford, GEERTZ Hildred & ROSEN Lawrence, Meaning and Order in Moroccan Society. Three Essays in Cultural Analysis, Cambridge, Cambridge University Press, 1979.
9. Savoir local, savoir global. Les lieux du savoir, PUF, 1986, 2012.
10. Le Souk de Sefrou. Sur l'économie du bazar, trad. Daniel Cefai, Paris, Bouchène, 2003.
11. (Lewicki)T,La répartition géographique des groupements ibadites de l'Afrique du Nord au Moyen Age, RO,21 ,1957.
12. (Schacht) J,Bibliothèques et manuscrits ibadites,dans revue Africaine, Alger,1956.
13. (Sachau) E,Uber die religioesen Anschauungen der ibaditischen Muhammedener in Oman und Ostafrika, Berlin, Abteilung, 1899.
14. (Schneider) David, American Kinship. A Cultural Account, Chicago, University of Chicago

Press, 1980, 2e édition.

15. (Turner) Victor Witter :
16. The Forest of Symbols: Aspects of Ndembu Ritual (1967).
17. Schism and Continuity in an African Society (1968).
18. Dramas, Fields, and Metaphors: Symbolic Action in Human Society (1974).
19. (Van Ess) J, Untersuchungen zu einigen ibaditischen Handschriften, dans Zeitschrift der Deutschen Morgenlaendischen Gesellschaft, 126, 1976.

• المقالات:

١. المعزية

- ١- محمد أركون – رهانات الثقافة بالمغرب الكبير بعد الاستقلال – مقارنة أنثروبولوجية - ترجمة: عبد الكريم شوطا – مراجعة: محمد عابد الجابري - فكر ونقد – العدد – ٢٠ - يونيو ١٩٩٩ .

٢. الأجنبية

- 1- GEERTZ Clifford, « La description dense. Vers une théorie interprétative de la culture », Enquête, n° 6, 1998, pp. 73-105 ; id. in Daniel Cefaï, L'enquête de terrain, Paris, La Découverte / MAUSS, 2003.

• المواقع الإلكترونية:

1. www.mzab-online.com
2. www.facebook.com/MzabMedia

أضواء على بعض السّير المغاربية الإباضية

سير الوسياني والبغطوري نموذجاً

د. عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة
أستاذ محاضر بجامعة نزوى وباحث في علم المخطوط/ سلطنة عُمان

Omarlokmane42@yahoo.fr

التمهيد

تعدُّ كتب السّير الإباضية من أهمِّ المصادر التي تحوي التّاريخ والفقه والتّراجم، وبالأخصّ التعريف بالعلماء والطلبة، وكذا شتّى صنوف المعرفة التي قد يحتاج المسلمون إليها.

وقد نحا الإباضية في إبراز تاريخهم هذا المنحى، متأسّين بمن سبقهم من المؤرخين لكتابة سيرة رسول الله .

وهذا المنحى السّيري، يترك في قلوب الناشئة أثراً طيباً؛ فيواسطته يتأسّى الخلف بالسّلف في أخلاقهم وطلبهم للعلم، ويطلّعون على ما عاناه أجدادهم من أجل المحافظة على هويتهم الدينية، وأوطانهم التي استماتوا من أجل الدّفاع عنها. وإنّني بتتبّعي أماكن وجود المخطوطات الإباضية في بعض بلاد العالم، وجدت الاهتمام من الأوروبيين بالغاء، وغفلة المسلمين أبلغ.

وساقتني المشيئة الإلهية إلى أن أحظى بتحقيق بعضها، وتتمثل في: سير الوسياني، وسير البغطوري (نهاية التحقيق) وجواهر البرادي (بداية التحقيق)، فوجدت أنّ من أراد التّحقيق الأمثل، فعليه أن يسعى لجمع النّسخ العديدة، وأن تكون له رغبة جارفة لخدمة المشايخ، والتعريف بالعلماء الذين طوت الأيام أسماءهم بطي النسيان.

ولهذا فقد اخترت أن يكون عملي في هذا الملتقى - بإذن الله - ضمن بند التحقيق، واخترت أن أتناول - بإذن الله تعالى - الآتي:

المقدمة

من الملفت للنظر أنَّ كُتَّاب السِّير في التَّاريخ الإسلامي لم يكتبوا تاريخهم على غرار من كتب التاريخ العالمي في ركاب الحُكَّام المستبِدِّين تمجيدًا لانتصاراتهم، وعدًّا لحافل جيوشهم، وإحصاءً وتمجيدًا لغنائمهم وأسراهم وسباياهم، وإظهارًا لمظاهر أبهتهم وترفهم، وفرحا ورقصا على الأشلاء وخراب الديار وبتُّ الرُّعب والدمار.

بل اعتمد مؤرخو الإسلام كما أسلفنا منهج السِّير، فلا تجد في مؤلفاتهم السِّيرية إلَّا حديثًا عن العلماء واجتهاداتهم في نشر العلم، ودعاتهم كيف ينشرون الإسلام بسمتهم وإخلاصهم، وزهادهم وعبَّادهم كيف كانوا يحيون الليالي عبادةً، وخضوعًا لله تبارك وتعالى، ومن جهة أخرى كيف كانوا يشيعون السَّلام والحبِّ والاطمئنان في كلِّ شبر حلُّوا به. هذا ديدن المسلمين المخلصين لله تبارك وتعالى.

كما أظهروا طلبه العلم، وكيف كانوا يجتهدون في التحصيل، وكيف ينقطعون لذلك في نظام قلِّ نظيره، وأظهروا الشيوخ في تفانيهم لإيصال العلوم الشرعية خاصة، وكيف كانوا يجمعون بين العلم والعبادة، وأوردوا كراماتهم التي يقف الناقد أمامها بين مصدِّق لما قد يوهب للأصفياء، وغير مصدِّق لما لم يأنفه الآن من انقطاع ذلك المنهج السِّيري الذي كان سائدا من قبل، ليس عند الإباضية فقط بل نجده سائدا عند غيرهم أيضا، وقد تتشابه هذه الكرامات وقد تتطابق.

إن هذا المنهج الذي كان سائدا في ذلك العصر عند غير الإباضية أيضا يتمثَّل واضحا عند أبي زيد عبد الرحمن بن محمَّد الأنصاري الأسدي الدُّبَّاع الذي عاش بين سنتي (٦٠٥ و ٦٩٦ هـ) والكرامات التي أوردها في كتابه: «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان».

إنَّ لذكر الكرامات أثرها النَّفسي على الإنسان حتَّى لأنها تجعله يحترم ذلك العالم المحظوظ برضا الله، وقد يبقى بين التصديق، والوقوف. وللحكم للكرامات أو عليها، ينبغي أخذ رأي علماء الشريعة فيها.

حينما يطالع القارئ كتب السِّير يجدها مليئة بذكر الكرامات التي تعطي مهابة للوليِّ الصَّالح، وتترك انطبعا حسنا وأثرا في النفس يدعو إلى الاقتداء والتَّأسِّي بأخلاق هؤلاء الأولياء الصَّالحين.

إنَّ الكتب السَّيرية الإباضية عادة ما تبدأ بذكر رجال المذهب الأوائل الذين كانوا أقرب إلى المنبع الصافي، صحابة كانوا أم تابعين، كالصَّحابي مازن بن غضوبة السَّعدي، والتَّابعي الجليل جابر بن زيد الأزدي الجوفي الفرقي العماني، حتَّى يثبتوا لغيرهم من أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى، صفاء منبع مذهبهم - مذهب أهل الحق والاستقامة - وقد يوردون ذكر حياة علمائهم منفردين، وقد يوردونهم في مجموعات يضمُّهم نصف قرن من الزمن، يطلق على المجموعة كلُّها: مصطلح «طبقة».

وقبل الحديث عن سير الوسياني والبغطوري نورد بعضاً من السير ألُفَّت قبلها وتأثَّرت بها وأخرى ألُفَّت بعدها وأثَّرت فيها:

١ - المصادر السَّيرية السابقة لسير الوسياني والبغطوري

من أبرز المخطوطات السابقة التي ذُكر فيها حال الإباضية الأوائل:

أ . كتاب «بدء الإسلام وشرائع الدِّين» لابن سلام اللُّواتي

هذا المؤلَّف يرجع إلى القرن الثالث الهجري، وقد ظهر هذا الكتاب في هذا العهد بعد الجهود المضنية التي بذلها الشيخ سالم بن يعقوب الجربي (المتوفى سنة ١٩٩١ هـ) - رحمه الله - في البحث عن المخطوطات. وطُبِع تحت عنوان: «كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدين، لابن سلام الإباضي (ت: بعد ٢٧٣ هـ / ٨٨٧ م)^(١)».

يعدُّ هذا الكتاب من أهمِّ المصادر، بل إنَّ المخطوطات المصدرية بعده تعدُّ عاليةً عليه، فهو الأصحُّ منها. ولناخذ منه مثلاً واحداً فقط: فِقْصَةُ وفاة الشيخ عاصم السُّدراي التي أورد ذكرها أبو زكرياء الوارجلاني (ت: ٤٧٤ هـ) في كتابه «السيرة وأخبار الأئمة»، على أنَّه استشهد في معركة مع الإمام أبي الخطاب عبد الأعلى بن السَّمح المَعافري اليماني سنة ١٤١ هـ بقتْلاء مسمومة، نجد ابن سلام يذكر أنَّه قد استشهد في معركة مع إمام الدفاع أبي حاتم المِلزوزي سنة ١٥٥ هـ، ويؤيد الشماخي فيما بعدُ ما ذهب إليه ابن سلام، علماً بأنَّ ابن سلام قريب عهد من الأحداث عن أبي زكرياء. حيث يقول: «كان عاصم السُّدراي من أشدَّ النَّاس على الأعداء مع أبي حاتم وسمَّوه في

(١) طبعة بيروت: دار صادر، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م، تحقيق: فيرنر شفارتز، وسالم بن يعقوب.

قُتِلَ، ونادوا من فوق السور: "أين عاصم السدراتي؟ قتلناه". فخادعهم أبو حاتم حين كمن لهم في وادي رقادة.

وتقدّم ما حكاه أبو زكريا أن قصته وموته مع أبي الخطاب، والأقرب ما رواه ابن سلام لأنه قال: رويته عن سليمان بن زرقون، وفي كتب المخالفين ما يدل على أنه كان حيًّا بعد أبي الخطاب، والله أعلم^(١).

• قوة المصدريّة

لا تكمن الأهميّة في قَدَم المصدر فقط، بل حتّى في الاهتمام بذكر السند. فكثيرًا ما يروي ابن سلام رواياته مشافهة بإسنادها إلى من سبق، ووُثِّق ذلك بقوله: «فرويت هذا الحديث من ولاية أبي حاتم إلى آخره، عن سليمان بن زرقون^(٢)»^(٣). وبهذا نجد أن تاريخ وفاة عاصم السدراتي يتغيّر إلى أبعد ممّا ذكر في سير أبي زكرياء، فقد كان حسب أبي زكرياء بعد: ١٤١هـ/٧٥٨م. وصار حسب ابن سلام: في سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م. وعلى هذا الأساس يستحسن أن يراجع كلّ ما ورد في سيرة أبي زكرياء، ويقارن ويصحّح بما ورد عند ابن سلام.

كما تكمن أهمية المصدر في ذكر جملة من الأفاضال الذين ذكرهم ابن سلام، وقد طوَاهم النسيان، أو الجهل، ودُكِّرَ منازلُهم وأحياءهم بتدقيق محكم، نذكر منهم الآتي:

- إسحاق بن معاذ: من فقهاء المدينة، ولم نقف على اسمه حسب اطلاعنا في المصادر التاريخية المتوفرة.

- أبو المهاجر: فقيه أهل الكوفة من علماء المذهب.

(١) أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي، طبعة حجرية، المطبعة البارونية، القاهرة، مصر، ١٣٠١هـ، ص ١٣٥.

(٢) أبو الزبيع سليمان بن زرقون النفوسي (ق ٤هـ)، من أعيان الطبقة السابعة (من ٣٠٠هـ إلى ٣٥٠هـ)، وُلِدَ بقرية تنبوت بجبل تيرشون جنوب تونس، تعلّم أولاً على شيخ مؤدّب من قسطنطينية، ثمّ درس على الشيخ ابن الجمعي في قرية توزر، وكان رفيقه في التعلّم أبو يزيد مخلّد بن كيداد صاحب الثورة الكبرى على الفاطميين قبل أن يعتنق المذهب النكاري. ينظر: قواعد الإسلام لأبي طاهر إسماعيل بن موسى الجبّالي (ت: ٧٥٠هـ/١٣٥٠م)، تحقيق: بشير بن موسى الحاج موسى، الطبعة الأولى، (د. نا)، تاريخ نشر الجزء الأول: ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ٢٥٨.

(٣) ابن سلام: كتاب فيه بدء الإسلام.

- حاجب الطائي: فقيه أهل البصرة.

- هاشم بن عبد الله: فقيه، من أوزع الناس، خراساني.

- أبو إبراهيم موفق: فقيه ومفتٍ بمصر. له علاقة بوالد ابن سلام: سلام بن عمرو. ومن خلال مراسلة مع والده تعرّف على داره، فوصف مكانها بدقة.

كما وصف مضارب العمانيين بمنى، خلف جمرة العقبة، غربي منى، وبعض علاقاتهم مع العلماء.

ثم خصّص فصلاً لعلماء الأصحاب بالقيروان وما حولها، تحت عنوان: «تسمية فقهاء أصحابنا وعلمائهم ومشايخهم وذرائعهم بمدينة القيروان وحواليها»^(١)، وذكر منازلهم، سواء أكانوا عرباً أم بربراً، ونذكر منهم:

- سليمان بن جاس، عربيّ: منزله بـ«قلوط» شرقي القيروان، فقيه وعالم من الأصحاب.

- سعيد الحدّاي، وأبو سعيد: عربيّ، بالسّاحل في قبلة المرح، وله حوانيت عدّة بالقيروان. وهذه الشخصيات المهمة غير مذكورة في كتب السير الإباضية ولا في غيرها.

ومن الصّعوبة جدّاً أن نجد تفاصيل حياة من ذُكر باسمه في كتاب بدء الإسلام لابن سلام، إن لم نؤفّق إلى وجود كتب مرّة أخرى للسير غير ما هو متوفّر، مطبوعاً أم مخطوطاً، وقد استقصينا تفاصيل جميع هذه التراجم المذكورة، في ما هو متاح لدينا، فلم نجد لها ذكراً إلّا عند ابن سلام.

ووجود أسماء غريبة عنا في كتاب ابن سلام الأقدم، يفتح لنا باب الأمل لمزيد من البحث والتنقيب عنها وعن غيرها؛ وهو ما نتوق إليه، ونحث عليه في مثل هذه الملتقيات والندوات، كما ندعو مالكي المخطوطات إلى التصريح بما عندهم حتى يسهموا في توضيح الرؤية القائمة. علماً بأنّ وسائل الحفظ الآن متوفّرة تجعل مالك المخطوطة يزول عنه هاجس الضياع والسرقة، بل يحوز على نسخ متعددة منها.

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

ب . أبو زكرياء الوارجلاني وكتابه: «السيرة وأخبار الأئمة»

مؤلف كتاب السيرة وأخبار الأئمة: هو أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني المتوفى بعد سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م. ويرى تاديوتش ليفتسكي أن أبا زكرياء لا يزال حيا في سنة ٥٠٤هـ^(١)، وهذا خطأ منه، وإن ما ذكر بأن أبا العباس أحمد بن أبي عبد الله مات في منزل أبي زكرياء يحيى بن جعفر الوسلاتي، ورد في الجزء الأول من سير الوسياني^(٢) وليس في الكتاب المنسوب إلى أبي زكرياء^(٣).

أخذ أبو زكرياء صاحب كتاب «السيرة» جلّ معلوماته عن شيخه أبي الربيع سليمان بن خلف المزاتي المتوفى سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م بوادي أريغ.

يعدّ كتابه هذا من أهم المصادر لدراسة التاريخ الإباضي بالمغرب الإسلامي، من لدن انتشار المذهب فيه، دارسا قيام الدولة الخطّابية بطرابلس سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م، إلى سقوطها على يد محمّد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤هـ/٧٦١م، ودارسا قيام الدولة الرستميّة بتاهرت من سنة ١٦٠هـ/٧٧٧م إلى سقوطها على أيدي العبيديّين الشيعة سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م.

كما درس أحوال الإباضية في الحزام الأوسط للمغرب الأوسط والأدنى: أريغ ودُمر وأسوف ووارجلان وبادية بني مصعب، وكذا أحوال الإباضية بجربة وجبل نفوسة.

ويعدّ كذلك المصدر الأساس لإبراز نظام العزّابة الذي ظهر سنة ٤٠٩هـ، على يد أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني النفوسي، لقربه منه زمانا ومكانا^(٤).

وقد أولى الأوروبيون هذا الكتاب أهميّة بالغة، فهُرّبوه إلى أوروبا وترجموه. وذلك حينما أراد الاستعمار الفرنسي التّعريف على هويّة الإباضية الميزابييين، وبالتّبع الشعب الجزائريّ، شمالا

(١) ينظر تاديوتش: المؤرخون الإباضيون، ترجمة جزار، ص ١٣٤.

(٢) ينظر سير الوسياني، تحقيق: عمر لقمان، ج ١، الفقرة س/٤/٨، ص ٤٢٠.

(٣) من المؤكّد أنّ الكتاب المنسوب إلى أبي زكرياء، والمنشور على أنه الجزء الثاني من سير أبي زكرياء، وعلى أنه جزء من سير الوسياني، قد برهنّا في دراستنا لسير الوسياني على أنّه ليس لأبي زكرياء ولا للوسياني. ينظر: ج ١، ص ١٤١-١٤٧.

(٤) وجدّ هذا الكتاب مخطوطاً في الهيئة العامّة للكتاب بمصر، تحت رقم ٩٠٣٠ ح في جزمين.

وجنوبا، فهرَّب المخطوطات العديدة، حتَّى يتعرَّف على خصائص المجتمع وقبائله وهويته ومواضع اتَّفاقه واختلافه مع غيره.

استطاع إميل ماسكراي (Masqueray.E) في شهر جوان ١٨٧٨م أن يضع يده على كتاب: «السيرة وأخبار الأنمة» لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني، حتَّى يتعرَّف على النَّاحية الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية للصحراء، ولمنطقة ميزاب خاصة، كما أسلفنا. وذلك ما يسر حدوث الهجمة الشرسة على المجتمع الإباضي الميزابي المسلم الموصوف بـ«الخطير»^(١) عنده.

بعد أربع سنوات، حسب ما تشهد به الوثائق في ذلك الوقت، نجم عن ذلك إسقاط المدن الصحراوية الجزائرية تباعا، بدءا من غرداية بوابة الصحراء سنة ١٨٨٢م، إلى الجنوب الأقصى في غزو مدمر وحشي مستعين بأدلاء من البادية (أصحاب المهاري) الذين باعوا ضميرهم فيسروا له كل المسالك الصعبة.

اهتمَّ (جون أوغست بوسترو Jean-August Bossoutrot)^(٢) بالمخطوطات، ومن بينها نسخة أبي زكرياء، وذلك إبان مشاركته الهجومية ضمن الجيش الفرنسي على ميزاب وتونس، فنقل النسخة إلى باريس، حيث وجدها المحقِّق التونسي عبد الرحمن أيوب في صندوق مع مخطوطات أخرى، فحقَّق كتاب «السيرة وأخبار الأنمة»، في مجال بحثه الأكاديمي.

كما أنَّ المستشرق البولوني تاديوش ليفتسكي كان قد حاز على نسخة من أستاذه زيغمونت سموجورزفسكي التي نقلها هذا الأخير من ميزاب سنة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م^(٣). إلى لفوف البولونية آنذاك قبل الغزو الروسي عليها وضمها إلى أراضيها بعد الحرب العالمية الثانية.

بهذا يعدُّ المخطوط - محقَّقا ولو من نسخ قليلة - من المصادر المهمة في تاريخ الدولة الرُّستمية في تاهرت ونفوسة ووارجلان، كما يعدُّ المصدر الوحيد في الثورات التي قادها المشايخ ضد أعدائهم من العبيديين أو من غيرهم ممَّن أغار عليهم، والمصدر الأوَّل في التعريف بنظام الإمامة

(١) لا شك أن وصف الاستعمار الفرنسي لمناوئيه المدافعين عن حريتهم، بأنهم خطر على فرنسا، مما يشرفهم.

(٢) جان أوغست بوسترو: ولد في الجزائر العاصمة سنة ١٨٥٢م، شارك في المعارك الهجومية الاحتلالية لمزاب سنة ١٨٨١م، واشترك في احتلال تونس أيضا، ومات سنة ١٩٣٧م.

(٣) ترجع هذه النسخة الخطية هذه إلى سنة ١٣٠٢هـ / فيفري ١٨٨٥م، نسخها إبراهيم بن سليمان الشماخي.

الصغرى (أي نظام العزّابية) كما أسلفنا، وكيف انتشر المذهب الإباضي حتى بلغ جنوب غرب إفريقيا بفضل دعوتهم وتجارتهم وحسن سلوكهم.

كما أن الكتاب يعدّ من المصادر التي نوّهت بالتراث الإباضي الأصيل^(١)، إذ ذكر ديوان جابر بن زيد مثلاً، الذي يعدّ مفخرة وجوهرة في تاج الإباضية، وأقواله ماثورة في كتبهم. وباهتمام أبي زكرياء بتاريخ المغرب الأوسط والأدنى في هذه المرحلة المبكرة، يعدّ مصدراً أساسياً لمن أتى بعده من مؤرخي السير وكتاب التاريخ ودارسي المجتمعات.

ج - كتاب المعلقات لمجهول

«كتاب المعلقات في أخبار وروايات أهل الدعوة، لمؤرخ مجهول»، مخطوط حقّقه الطالب سليمان بن إبراهيم بابيز (بحث التخرج في قسم الشريعة، بمعهد الحياة القرارة) كتاب في السير الإباضية، يشبه في منهجه وأسلوبه سير الوسياني إلى حدّ بعيد، فهما يرويان عن مشايخ عدّة من نفس العصر، كأبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي، غير أنّ صاحب المعلقات - وهو مجهول - يروي عن مشايخ من وارجلان، كأبي يعقوب الوارجلاني، دليل على أنه من وارجلان أو درس فيها، كما يحتمل أن يكون أصغر من الوسياني لكونه أيضاً أخذ عن مشايخ عاشوا بعده، وبهذا من الممكن أن يكون قد التقى بالوسياني.

ومن خلال هذا يمكن أن نقول: إنّ أصحاب هذه المصادر المتزامنة قد أخذوا من مصادر مشتركة شفوية كانوا يتلقون منها الروايات، أو راجت أقوالهم ورواياتهم بينهم، أو كانت لهم مصادر مكتوبة تناقلها النساخ على شكل ألواح، أو كتب غير معزّوة إلى أحد، والله أعلم.

٢ - المصادر السيرية اللاحقة للوسياني والبغطوري

أ - الدرجيني وكتابه «طبقات المشايخ بالمغرب»

لقد ألّف أبو العبّاس أحمد بن سعيد الدرجيني (المتوفّى بعد سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م) كتاب طبقات المشايخ في جزئين، وذلك سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥١م.

(١) أبو زكرياء: السيرة، تحقيق: عبد الرحمن أيوب، ص ١٢٦.

نال كتابه اهتماما بالغاً من المثقفين، لكونه يضيف تعريفاً دقيقاً لتراجم كانت مغمورة وغير معروفة لديهم ولدى المؤرخين، خاصة قبل طبعه بمطبعة البعث بقسنطينة سنة ١٩٧٤م.

يرجع الفضل في إخراجهِ إلى النور، إلى الشيخ إبراهيم بن محمد طلّايّ اليزجني، فقد قام بطبعه بعد أن وضع للفقرات عناوين جانبية، وأضاف بعض الإشارات الهامشية، ولكن كل هذا العمل المشكور لا يرقى إلى التحقيق الأكاديمي المطلوب، إذ لم يخرج شيئاً، ولم يقارن بين النسخ إلاّ لمأماً. وقد أعاد الشيخ طبعه مشكوراً في سنة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م^(١)، مع ضبط وتدقيق أكثر للنص، بمساعدة جملة من الباحثين. ولا شك أنّ نشره بشكل أوسع سيستفيد منه الباحثون أكثر من طبعته الأولى.

• محتوى المؤلف

يحتوي المؤلف على جزئين.

الجزء الأول منه لا يعدو أن يكون - بعد استعراض كامل فقراته - نسخة طبق الأصل لكتاب أبي زكرياء «السيرة وأخبار الأئمة»، لولا تحسيناته البديعة في الأساليب والعبارات، وكذا بعض الإضافات. ولذا فمن المستحسن أن نوّكد بأنّ الجزء الأول لأبي زكرياء نقله الدرجيني بتصرّف. وإنّ الجزء الثاني للدرجيني نفسه، وقد أبدع فيه حقاً، وهو مصدر هامّ، خاصّة للمشايخ المذكورين لأوّل مرّة، وهم الذين عاشوا ما بين تاريخ وفاة أبي زكرياء بعد ٤٧٤هـ/١٠٨١م إلى ٦٥٠هـ/١٢٥١م، تاريخ تأليف الدرجيني لكتابهِ.

وقد ترك ذكر الطبقة الأولى من الصحابة والأخيار، لاشتغالها بين الناس، وليس ذلك استنقاصاً ولا جحوداً، بل لشهرتها، كما علّل في بداية كلامهِ. وبدأ بالطبقة الثانية (من ٥٠ إلى ١٠٠هـ/٦٧٠-٧١٩م) إلى (الثانية عشرة ٥٥٠-٦٠٠هـ/١١٥٥-١٢٠٣م). وحسب قوله: إنّ كتاب الطبقات، وهو ما ينطبق على الجزء الثاني فقط، نقله عن أبي عمار عبد الكافي رضي الله عنه، ولسنا ندري كيف كان هذا النقل، فبدل أن تكون رواية العزابة «واحدًا عن واحد، وأكابر عن أكابر، وثقة عن

(١) لم يذكر تاريخ النشر في غلاف الطبعة الثانية، ولا نشرها، وإنما استقينا هذا التاريخ من هامش الجزء الأول، صفحة "س".

ثقة، رأى من حسن نظره أن يكون ذلك جملة عن جملة»^(١).

• اختلاف في التواريخ والأسماء

في سير أبي زكرياء: نجد تحت عنوان أخبار أبي حاتم وولايته: «وحدث غير واحد من أصحابنا أن أبا حاتم يعقوب بن ليبيد الملزوزي ولي طرابلس في رجب سنة خمس وأربعين ومائة [١٤٥هـ/٧٦٢م]»^(٢).

بينما في كتاب طبقات الدرجيني: نجد تحت عنوان: ولاية أبي حاتم يعقوب بن ليبيد الملزوزي: «حدث غير واحد من أصحابنا أن أبا حاتم ولي مدينة طرابلس في رجب سنة أربع وخمسين ومائة [١٥٤هـ/ ٧٧١م]»^(٣). وحدد أيضا بتاريخ ٢٧ ربيع الأول سنة ١٥٥هـ/ ٧ مارس ٧٧٢م^(٤).

نلاحظ بين الفقرتين اختلافًا بين الأسماء والتواريخ:

- بين ليبيد، وليبيد.

- بين ١٤٥هـ/٧٦٢م، و١٥٤هـ/ ٧٧١م.

علما بأن هذا الاختلاف لاحظناه فيما ذهب إليه ابن سلام في كتابه «بدء الإسلام» عن تاريخ وفاة عاصم السدراتي في أنه توفي في جيش أبي حاتم الملزوزي إمام الدفاع وليس في جيش الإمام أبي الخطاب، مناقضا لأبي زكرياء الذي ذكر أنه توفي في عهد أبي الخطاب السابق عهده. وهنا يتوافق الدرجيني مع ما ذهب إليه ابن سلام، ويستقي منهما الشماخي، وهذا يعني أن الدرجيني له مصادر أخرى غير سير أبي زكرياء قبله.

وما يوجد في كتب السير من سقط، وانتقال نظر، وأخطاء في الأسماء والتواريخ... يدعونا إلى مراجعة كل النسخ السيرية اللاحقة خاصة، من تدقيق في المسائل والأحداث، لأن الباحثين لا ينظرون إلى المصادر على أن بها هذه النقائص - إن صح التعبير - لأنها في عداد المصادر، خاصة

(١) الدرجيني: طبقات، ٦/١.

(٢) سير أبي زكرياء، فقرة ٨: ١.

(٣) الدرجيني: طبقات، ٣٦/١.

(٤) مجهول: مشاهد جبل نفوسة، ص ٢٠.

ما مرّت عليه أيادي المحققين، فقد كنّا نعتقد ذلك في سيرة أبي زكرياء المحققة من د. عبد الرحمن أيوب، وقد قارن بين ثلاث نسخ، ولكن بعد مقارنة له بأربع نسخ (في الجزء المندرج في مجموعة الوسياني)، وجدنا - كما أسلفنا - الكثير من الأخطاء، إضافة إلى ملاحظات أخرى لا يسع المقام لذكرها الآن.

ب - الشماخي وكتاب «السير» وتأثره بالوسياني:

١ - نبذة عن المؤلف وكتابه

مؤلف الكتاب هو: «أبو العباس أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد بن سعيد بن أبي الفضل قاسم بن محمد بن عمر بن يحيى بن إبراهيم بن موسى بن عامر الشماخي». كان شاباً حينما توفي أبوه سعيد سنة ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م. وتوفي هو سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م، وحدّد الشيخ الخليلي مولده بالأربعينيات.

يلتقي مع مؤلف الإيضاح الشيخ أبي ساكن عامر بن علي بن عامر الشماخي في جدهما عامر الشماخي.

ويبدو حسب تاديوش ليفتسكي^(١) أنّ عائلة الشماخي عاشت في تيغرمين في أقصى شرقي جبل نفوسة، ثمّ انتقلت إلى يفرن سنة ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م.

أخذ أبو العباس العلم عن أبي عفيف صالح بن نوح^(٢).

لقد مكّنته زيارته لمشاهد الجبل من الكتابة عنها في مؤلفه. كما زار طرابلس وتونس، وكان التقاؤه بالشيخ الحاج محمد بن عبد الله العماني السمانلي عندما زار مريضا، سببا في التعرف على إياضية عمان^(٣). وله مؤلفات عدّة من أهمّها: «كتاب السير».

طبع كتابه طبعة حجرية^(٤) سنة ١٣٠١هـ. أمّا النسخة المخطوطة التي أطلعت عليها في دار الكتب

(١) لقد اعتمد تاديوش على نسخة الحاج سليمان بن مسعود النفوسي المطبوعة بالقاهرة ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م.

(٢) تاديوش: المؤرخون، ترجمة جزار، ص ٤٦.

(٣) أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي: السير، طبعة حجرية، المطبعة البارونية، القاهرة، مصر، ١٣٠١هـ، ص ٥٦٥.

(٤) توجد نسخة منه في مكتبة الوالد «لقمان حمو» رحمه الله.

المصريّة فهي تحمل تاريخ رقم (١) ٧٦٩.

وقد استفاد الشّمّاخي من سبّقه من كُتّاب السير مثل ابن سلام وأبي زكرياء، والدرجيني، والوسيانى وأبي الربيع سليمان بن يَخلف المزاتي (ت: ٤٧١هـ/١٠٧٨م)، وأبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي (ق: ٦٢هـ/١٢م)، ومقرين بن محمد البغطوري، الذي أتمّ تأليف سيرته سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م.

٢ - استفادته من الوسياني

يبدو أنّ المصادر المتكاثرة عليه قد أخذ منها بكثرة وبدون أيّة إحالة عليها، والتشابه بين بعض النصوص بكاملها يؤكّد ذلك.

فقد نقل عن الوسياني فقرات بكاملها؛ فالى جانب اهتمامه بذكر مناقب المشايخ، نراه يستفيد ممن سبقه في إيراد الأحداث التي جرت، ويذكر المصادر المهمّة، منها ذكره لتفسير هود بن محكم الهواري.

فإذا كان يمتاز بإحاطته بأغلب المصادر الإباضية وباستفادته من غير الإباضية، فإنّ جل الدارسين يقصدونه لذلك، فإنه لا يرقى إلى أسلوب الدرجيني، ولا إلى منهجيّته المحكمة، حسب تصوّرنا.

ومما تجدر الإشارة إليه اهتمامه بإيراده لـ«نسب الدين»، حتى يبرهن على أن الإباضية لهم اتصال وثيق بواسطة سلسلة ذهبية بسيد الخلق عليه السلام وأنهم أقرب المذاهب إلى المنبع الصافي.

ولا يسع المجال لذكر سائر كتب السير مثل الجواهر للبرادي أو كتاب ابن الصغير الذي أرخ للدولة الرستمية دون أن يهتم اهتماما كبيرا بسير المشايخ إلا عرضاً، كذكر مناقب الإمام أبي اليقظان الرستمي.

(١) تبدأ النسخة بسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وباقي الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ومن وجد في عصر هؤلاء من الإباضية وأشرفهم من نشر مذهبهم، من بدء أمرهم على عهده في طرابلس الغرب. النسخة ناقصة الأول، وأوّل ما ذكر دولة معاوية، وآخر ما ذكر من علماء الإباضية أبو عثمان سعيد السديكشي. وملحق بالنسخة مجموع من مشاهد جبل نفوسة وذكر مساجدها وقصائد أدبيّة. انتهى ناسخها محمد بن زكرياء بن موسى الباروني سنة ٩٦٥هـ، في ٢٤٢ ورقة، ومسطرتها ٢٢ سطراً.

٣- سير الوسياني وسير البغطوري:

أ. الجهود المبذولة في جمع النسخ، سير الوسياني نموذجاً

قد يطول الحديث بذكر الجهود المبذولة في جمع النسخ الخطية من شتى بقاع العالم، وقد يكون من فضول الكلام حشر هذا الموضوع هنا، ولكن بعد إلحاح كثير من الأفاضل، رأيت أن أورد طرفاً من الحديث، تلبية لرغبتهم، مما قد يكون دافعاً للباحثين على مواصلة المشوار، فيؤدي ذلك إلى اكتشافات جديدة، نحمد به مغبة هذا الخروج عن الموضوع.

كيف كانت البداية؟

لم أكن أعلم قيمة كتاب سير الوسياني، ولا مكانه المرخل إليه، لولا تلك الرحلة الليبية التي ضربنا أكباد الإبل إليها مع مجموعة من أكابر مشايخ قرى ميزاب، لأداء واجب التعزية، إثر وفاة شيخنا علي يحيى معمر رحمه الله سنة ١٩٨٠م، فكان اللقاء في مأدبة غداء للمعزّين مع الدكتور عمرو خليفة النامي، ولست أدري السبب الذي جعله يتوسّم في تحمّل هذه المسؤولية الصعبة، طالبا مني الذهاب إلى «كراكوفيا» في بولونيا، لتحقيق سير الوسياني. في وقت يعزّ عليّ فيه الذهاب إلى أقرب من ذلك. وتحقّق الأمل بعد رحلة شاقّة إليها بسيارة ضعيفة (Renault) مع صديقين عزيزين، هما: مختار الحاج الناصر، ومحمد بن أيوب الحاج سعيد.

كانت فاتحة عهد للبحث عن نسخ خطية أخرى لسير الوسياني، في مصر وميزاب وعمان وتونس وجربة وليبيا، بلغت إحدى عشرة نسخة، نالني من جمعها كلّ النّصب والإرهاق فضلاً عن تحقيقها.

كما أخذ استقصاء أخطاء المحققين مني كلّ الجهد؛ حتى أردّ الحق إلى نصابه، وذلك بأسفار طويلة مرهقة، وبمقارنات بين النسخ متعبة.

ومما كاد أن ينالني منه الإحباط، غلق المكتبات المالكة للمخطوط، ومغالاتها في ثمن التصوير، وادعاؤها وجود نسخة منها في مكان آخر كان في الحقيقة {كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا}.

فكانت الأيَّام التي مرت بي، والأموال التي صرفتها لا تسوى شيئا أمام الإحباط الذي مَّلا قلبي
أسى وكمدا.

ومن بين أهم ما أوصلني إلى نتائج مرضية، استقصاء أعمال البولونيين المهجَّرين للمخطوطات
الإباضية من ميزاب، وعلى رأسهم زيقمونت سموغورزفسكي، وسفري إلى تاديوتش ليفيتسكي
بكراكوفيا أفادني بمعلومات جمة، بلقاء مفيد معه، وبنسخة حقَّقت فُراسة العزيز المغفور له: د
عمرو خليفة النامي.

ب - التعريف بهما وبمؤلفيهما:

١ - سير الوسياني:

ألفه أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان بن عبد الله الوسياني.

عاش في قسطلالية، ويحتمل أنَّه ولد بها. يعدُّه الدرجيني من الطبقة الثانية عشرة (٥٥٠-٦٠٠هـ/
١١٥٥-١٢٠٣م). ولد بالتقريب بعد سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م، ينتسب إلى قبيلة بني واسين البربرية،
وهي تنتهي إلى الجد الأعلى «جانا»، أو «زاناتن». أُلِّف كتابه حوالي سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١-
١١٦٢م.

ذكر ابن خلدون وجود بني واسين في قصور بني مصاب قائلا: «ومن بني واسين هؤلاء بقصور
بني مصاب على خمسة مراحل من تطري في القبلية بما دون الرمال، وعلى ثلاثة مراحل من
قصور بني ريغة في الغرب...»^(١).

عاش الوسياني فترة صباه في قسطلالية، ثمَّ انتقل إلى آجلو بوادي أريغ، قرب بلدة اعمر، قرب
تقرت، حيث تتلمذ على شيخه أبي محمَّد عبد الله بن محمَّد اللواتي، المعروف بالعاصمي، المتوفَّى
سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م. كما تتلمذ على شخص ذُكر باسم أبي زكرياء، ويرجح تاديوش ليفيتسكي أنَّه
أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني^(٢).

(١) ابن خلدون: تاريخ، مج ٧/ ص ١٢٣.

(2) LEWICKI Tadeuz: Les Historiens bibliographes et traditionnistes Ibadites-Wahbites de l'Afrique du Nord
du VIII^{ème} au XVI^{ème} siècle, Folia Orientalia, tome III, (1961) Krakow, 1962, p68.

وصفه الدرجيني قائلا: هو «أحد شيوخ الحلقة الكبار، الحافظ للسير والآثار، المروي عنه التواريخ والأخبار، لم تفته سيرة لأهل الدعوة في كل الأعصار، وجملة أوصافه باختصار: أنك مهمما وجدت في هذا الكتاب أو غيره رواية قديمة عن أبي الربيع فهو راويها عن شيوخه الكبار»^(١).

لقد ألف الوسياني سيره ولسنا ندري من جمع ثلاثة كتب أول مرة، وكتب على الغلاف «سير الوسياني»، ولم ينتبه الدارسون للدمج هذا، علما بأن النسخ الخطية الموجودة في أغلب المكتبات المختلفة تضم نفس المجموعة، والنسخ الموالون الذين نسخوها كتبوها مجلدة كذلك، وكاد أن يقع الإجماع على أنها للوسياني.

فتداول أيدي النساخ عبر العصور عليها كتابة، وانكباب أعين العلماء عليها قراءة، وعدم الإشارة إلى أنها ليست كلها للوسياني، كل هذا جعل الناس يرتاحون ولا يكلفون أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها.

وفي تحقيقي لها سابقا، قادني التأمل إلى الشك، فعمدت إلى النقد الداخلي والخارجي، وذلك باستقراء الأحداث والروايات والتواريخ المذكورة، وهذا ما أوصلني إلى نتائج جديدة قلبت الموازين رأسا على عقب، فتغيرت عناوين طالما تداولتها أقلام الكتاب والنساخ أزمانا سحيقة.

خلصت إلى نتيجة أدعو الله أن أكون موفقا فيها وهي أن:

- الكتاب الأول: للوسياني؛ إذ قال في المقدمة:

«فإني نظرت إلى الآثار قد أمحت، وإلى أخبار أهل دعوتنا قد انطمست، فأخبيت أن أولف لكم منها كتابا مما بلغني وصح عندي ولم تخالجنى فيه الشكوك... (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)».

وأردف مبينا مصدر كلامه:

«مما قبلته ورويته عن شيعي أبي محمد عبد الله بن محمد العاصمي ثم اللواتي، عن شيعه أبي محمد ماكسن بن الخير الجرامي ثم الوسياني».

(١) الدرجيني: طبقات، ٥١٣/٢.

- الكتاب الثاني: كتبه شخص يحتمل أن يكون تلميذه، يكتفى أبوه بأبي صالح، وأبوه روى الروايات وأتقن حفظها، وما يؤيد أن لا يكون الكتاب الثاني للوسيانى أدلةً ذكرتها، منها فقرة يوجد فيها الترخم على الوسيانى نفسه. وما أجرته من أدلة في الدراسة تكفي للاستدلال على ذلك، ويستحسن الرجوع إليها لكثرتها.

الكتاب الثالث: بعد الاستقصاء والبحث توصلنا إلى أنه ليس للوسيانى، وذلك لكون الأحداث المذكورة سبقت الوسيانى بزمان سحيق.

وبهذا يستحسن إعادة ترتيب الكتب حسب الآتي:

- الكتاب الأول من المجموعة لمؤلفها الوسيانى.

- الكتاب الثاني من المجموعة لأحد طلبه الوسيانى عاش بعده، ونسب إلى الوسيانى.

- الكتاب الثالث من المجموعة لشخص عاش بعد أبي زكرياء وأبي الربيع سليمان بن خلف المراتي، وقبل الوسيانى، وعاش في قنطرار.

هذه خلاصة ما توصلت إليه بعد طول عناء، ولم أشأ تركه يمر دون الرجوع إليه وإفادة غيري من الباحثين به.

يتميز كتاب الوسيانى بكونه اهتم بجهات مختلفة عرفت بعلمائها الأجلاء وأنه انفراد بذكر فترة بعد أبي زكرياء وقبل الدرجيني، استفاد منها الدرجيني إذ قال: «متى وجدت في هذا الكتاب أو غيره رواية قديمة عن أبي الربيع فهو راويها عن شيوخه الأخيار»^(١).

٢- محمد البغطوري:

ألفه الشيخ مقرين بن محمد البغطوري، والبغطوري نسبة إلى مدينة بغطورة بجبل نفوسة غير بعيدة عن شروس قرب وادي بقالا في الحراية.

قال عنه الشماخي: «ومنهم الشيخ مقرين بن محمد البغطوري أحد الأشياخ الذين تمسكوا بالعلم وأتموا العمل به، واتبعوا الطريق، وهو ممن حفظ المذهب، وحافظ على السير، وهو أحد

(١) الدرجيني: طبقات، ٥١٣/٢. ونقل الشماخي نفس الرواية، في كتابه السير، ص ٤٥٤.

المؤلفين سير من قبله من أشياخ جبل نفوسة، وألف في الفقه ما تيسر. أخذ العلم من أبي يحيى توفيق الجناوني وأظنه أيضا من أبي محمد عبد الله بن محمد [بن مطكود المجدولي] لأنه كثيرا ما يروي عنه السير والأخبار»^(١).

لقد ألف البغطوري كتاب السير وأتمه في أواخر شهر ربيع الآخر عام ٥٩٩هـ/١٢٠٣م في إجناون.

يختص البغطوري بذكر مناقب مشايخ جبل نفوسة دون غيرهم، فهو بهذا التخصص يظهر تراجم جديدة لم تذكر عند غيره من المصادر والمراجع؛ وذلك لعوامل منها:

- كونه أتى بعد أبي زكرياء وغطى الفترة مابين ٤٧٤هـ و٥٩٩هـ.

- كونه اهتم بأهل الجبل دون غيرهم، كما أسلفنا.

- كونه من أبناء جبل نفوسة، وكما يقال: «أهل مكة أدرى بشعابها».

فهو كما رأينا عاش في بقطورة أو بقطورة بجبل نفوسة حيث نال القسط الوافر من العلم، والتقى بالعلماء الذين اهتموا برواية السير؛ من هنا يكتسي سير البغطوري أهميته العظمى.

فتنوع المنهجين عند الوسياني الذي غطى أماكن متعددة، والبغطوري الذي اهتم بالجبل فقط أعطى للدارسين بعدهم فسحة واسعة للاستفادة والمعرفة.

وإذا قارنا الوسياني بالبغطوري نجداهما بالآتي:

«بنفوسة، وجربة، وأهل القصور، وأسوف، وأريغ، ووارجلان.

وبهذا التنوع يتميز الوسياني عن البغطوري.

كما أننا إذا افترضنا فروضا من حيث الاستفادة من بعضهما أو من مشايخ استقوا منهما ندعمها بالآتي:

- الفترة الزمنية قريبة بينهما (٥٩٩هـ) و(٥٥٧هـ).

(١) الشماخي: سير، ص ٥٤٨.

- المكان قريب، فالبغطوري عاش في جبل نفوسة، والوسيانى عاش وانتقل بين الجريد وأريغ وقسطاليا.

- الروايات بينهما متشابهة.

وللاستدلال عن المشابهة بينهما نورد الأمثلة الآتية:

• مختصر لنماذج من الروايات المتشابهة بين البغطوري والوسيانى:

- من البغطوري (مخ، ص ٤٨) والوسيانى (ن ١/١): عن عمرو بن فتح النفوسى: كان قاضيا عند إلياس فأتى إليه رجلان ليقضى بينهما (الخ القصة...).

- من البغطوري (مخ، ص ٤٨) والوسيانى فقرة (ن ٢/١): عن القافلة التى وقع عليها القطاع فأخذوها (الخ القصة...).

- من البغطوري (مخ، ص ٧٣) والوسيانى فقرة (ن ٦/١): ما أورده عن عمرو بن مجلس أبى عبد الله محمد بن محبوب رحمهم الله (الخ القصة...).

- من البغطوري (مخ، ص ٥٨) والوسيانى فقرة (ن ٩/٢): عن رجل رمى طائرا بحجر فقتل شخصا، فى عهد أبى معروف. (الخ القصة...).

- من البغطوري (مخ، ص ٦٩) والوسيانى فقرة (ن ٨/٣): عن أبان بن وسيم وتحوله إلى العزم بعد مرضه. (الخ القصة...).

- من البغطوري (مخ، ص ٦٩) والوسيانى فقرة (ن ٩/٣): إجازة أبى خليل لأبى ذر أبان بن وسيم للإفتاء..

- من البغطوري (مخ، ص ٧٠) والوسيانى فقرة (ن ١٠/٣): غضب أبى ذر أبان بن وسيم على المفرط فى الصوم وفتواه. (الخ القصة...).

- من البغطوري (مخ، ص ١٠٠) والوسيانى فقرة (ن ٧/١): الأم التى أوصت بأن ينفذ ابنها وصيتها، وهو لا يزال فى المهد صبيا، القصة واحدة والأم مختلفة: أم عمرو بن وسيم عند الوسياني، وأم ميمون عند البغطوري.

وهذه النماذج من التشابه الحرفي في بعض الأحيان، والتقارب الزماني والمكاني يجعلنا نبحث عن دليل أقوى لتلاقيهما، ولم نهتد بعد إلى ورود اسم شيخ اشتركا في الاتصال به ولو لم يلتقيا أمامه. غير أننا كما أسلفنا لا نستبعد شيوع هذه الروايات بين طلبة العلم في ذلك الحين لأهميتها، والباب مفتوح أمام الدارسين للاستدلال على لقائهما من عدمه، والله أعلم.

• كلام تحسيسي موجه إلى المشاركين

إن العرض الذي قدمناه بحثا عن المخطوطات، وتقييما لها، وتنافسَ المؤرخين - مسلمين وغير مسلمين - لاقتنائها ودراستها يجعلنا نعيد النظر في كثير من الأشياء منها:

- في غفلتنا معاصر المسلمين وانتباه غيرنا.

- في أوضاعنا الاجتماعية ونظرة مجتمعاتنا إلى الموروث الحضاري.

- في البقية الباقية من المخطوطات الآيلة إلى الزوال.

- في تراثنا الوقفي الذي كتب عليه: «وقف لمسجد كذا، لا يخرج منه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها»، وهو الآن حبيس الخزانات الموصدة خارج أوطان الإسلام.

- في نسبة البحوث التحقيقية للمخطوطات بالجامعات أمام البحوث الأخرى التي نالت حصّة الأسد.

وهذا ما يجعلنا نستغل مثل هذا الملتقيات لإعادة النظر في مصير أوضاع تراثنا، وكيف نستردّه بأية طريقة ممكنة، والهدف الأسمى: وضعه في متناول الباحثين من أبناء الأمة الإسلامية.

المصادر والمراجع

أ- المصادر المخطوطة:

١- البغطوري مقرين بن محمد النفوسي (حيّ في: ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م): سيرة أهل نفوسة، (مخ) بمكتبة الباحث، مصورات مختلفة.

ب- المصادر والمراجع المطبوعة:

١- ابن سلام اللواتي (حي في ٢٧٣هـ/ ٨٨٧م): كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدين، تحقيق: فيرنر شفارتز والشيخ سالم بن يعقوب، سلسلة النشرات الإسلامية، عدد: ٣٣، نشر: فرانز شفارتزينر، بيفيسبادن، ألمانيا، طبع: دار صادر، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٢- أبو زكرياء، يحيى بن أبي بكر الوارجلاني (ت: بعد ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م): كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق: عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٣- امعمر، علي يحيى (ت: ١٩٨٠م): الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية: الإباضية في ليبيا، مكتبة وهبة، مصر، مطبعة الاستقلال الكبرى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٤- البرادي، أبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم (ت: أوائل القرن التاسع الهجري): الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطبقات، طبعة حجرية، القاهرة، ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م.

٥- الجيطالي، أبو طاهر إسماعيل بن موسى (ت: ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م) قواعد الإسلام، تحقيق: بشير بن موسى الحاج موسى، الطبعة الأولى، دنا، الجزء الأول: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٦- الدبّاغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التتوخي (ت: ٨٩٣هـ)، تحقيق: الشيخ محمد المجذوب ود. عبد العزيز المجذوب، وتصحيح: إبراهيم شيوخ، طبع ونشر المكتبة العتيقة، تونس، ٢، ١٩٩٣م.

٧- الدرجيني، أبو العبّاس أحمد بن سعيد (ت: حوالي ٦٧٠هـ): كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلائي، مطبعة البعث، قسنطينة الجزائر، د. تا.

٨- الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد: السير، طبعة حجرية، المطبعة البارونية، القاهرة، مصر، ١٣٠١هـ.

٩- الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد: السير، تحقيق: أحمد بن سعود السيّابي، تقديم: أحمد بن حمد الخليلي، الجزء الأول، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

١٠- ليفيتسكي، تاديوتش: الْمُؤَرَّخُونَ الْإِبَاضِيُّونَ فِي إِفْرِيقِيَا الشَّمَالِيَّةِ، ترجمة: ماهر جرّار، وريما جرّار، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

11. LEWICKI Tadeuz: Les Historiens bibliographes et traditionnistes Ibadites-Wahbites de l'Afrique du Nord du VIII^{em} au XVI^{em} siècle, Folia Orientalia, tome III, (1961) Krakow, 1962.

المرأة في السير الاباضية

أحمد الأسود

أستاذ مساعد بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بجندوبة/تونس

Ahmed_cso300@hotmail.com

تختلط في سير الاباضية ثنائيات متضاربة، فالشيوخ رموز، آباء وجدود، علماء، يصارعون الشر والظلم ويحرصون على الخير والتقاء، وإن أعوزتهم الحيلة، فهناك يد الله الخفية التي تظهر سرًا ببركة الشيخ، فتضرب بحسم أصحاب السوء، وتعيق حركتهم، وقد يثير هذا الصراع العام، ثنائيات ثانوية تجمع بين الشهوة والورع، وبين الطمع والزهد،... حيث يمتزج الواقع بالعائبي، والحقيقة بالأسطورة، فتحدث معجزات وخوارق وكرامات، ويظهر الشيخ في منزلة وسطى بين البشر والإله،... تحصل لدى المتأمل في هذه السير صور عن رجال شبه أسطوريين، يواجهون الشر بالدعاء المستجاب وباللعنة النافذة، ولئن كانت هذه «الملاحم» مديحا لشيوخ خارقين، فإن المرأة كانت حاضرة في هذا الجو الخوارقي- الميثولوجي، بروح وهاجة وبقدرات غامضة، ذلك ما نعمل على إبرازه في هذا العمل، برصد مختلف صور المرأة في هذه السير، من نافذتي الروح والجسد معا...

١. المرأة والتدين

لا تبدو المرأة فاعلة في كتب سير الاباضية، فالمتحركون على ساحة الأحداث هم شيوخ وعلماء يعملون ويفقهون ويفتون ويتصدون للأعداء ويموتون دفاعا عن القبيلة والمذهب والجهة، وهكذا، تبرز المرأة حين لا يكون للشيخ تدخل، وفي المناطق المظلمة التي لا يلج إليها «العلم»، حيث يستوطن الماضي الوثني والمسيحي الماقلي، وقد تنوعت وتعددت صورة المرأة الاباضية في علاقتها بالتدين:

٢. المرأة وطلب العلم

كانت المرأة الاباضية تسعى إلى العلم، فتصبر على مشاقه وإن لم يرض وليها، ولدينا في ذلك مثال «أم ماطوس»، فقد كانت بكرا وأرادت العلم كما يقول الشماخي، فكانت إذا جئها الليل، ونام الناس أخذت مزارقا في يدها، وذهبت في هيئة الرجل إلى أبي محمد التميمي، فتحضر المجلس، فإذا افترق رجعت، وتجعل مزارقها في زيتونة، فسمع أخوها، فأراد منعها، ولكنها كانت تتركه حتى ينام، فتفج وتغلق خلفها،....^(١)

ثم كانت عائشة بنت معاذ بن أبي علي وهي من أسرة علم، أخذت العلم عن الشيخ تبغورين بن عيسى، كان إذا قعد بالمجلس جازت بحصير، وكانت تدوره على نفسها، تستتر به، وتقع في المجلس، وكانت تقول: «لولا الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله، لمت بالجهل»، فكان يقال عنها: «خير نساء أجلو، عائشة بنت معاذ».^(٢)

كانت المرأة في صورة أم ماطوس، متحذية للذكر ومتجاوزة لأنوثتها، فقد فضلت أن تكون بكرا مجاهدة في طلب العلم، تخرج ليلا برمحها، بينما كان أخوها الرجل، يغط في النوم.

أما المرأة في صورة عائشة بنت معاذ، فهي تختلط بالرجال، دون أن تكشف جسدها، فكان حضورها بعقلها وبعقلها فقط، وفي كلا الحالتين، هناك انقسام في المرأة، بين عقلها وجسدها، فإن كانت مساوية للرجل في قدراتها الذهنية، فجسدها عكس الرجل، عورة يجب ستره.

من جانب آخر كانت المرأة حاضنة للعلم ساهرة على العناية بالتلامذة^(٣)، كما كانت تقوم بتعليم النساء^(٤). وإن كان ليس للمرأة الاباضية الحق، في الإمامة والقضاء والإفتاء كما في الإسلام عامة، فإنها كَانِيَتْ عالمة، وإذا بلغت درجة عليا في العلم، كانت تسمى عجوزا. وقد ارتفعت أعداد

(١) الشماخي، (أحمد بن أبي عثمان)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٩، ج ٢، ص ٤٨٥.
- البغطوري، (مقرين بن محمد)، سيرة أهل نفوسة، نسخة لمخطوط في مكتبة محمود بن سالم بن محمد بن يعقوب الجري، نسخ في أوت ١٩٧٤، ص ٥٧.

(٢) كتاب السير، ج ٢، ص ٦١٥.

(٣) أبو زكرياء، (يحيى بن أبي بكر)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص ٢٧٤.

(٤) سيرة أهل نفوسة، ص ٢٥. مثال أم يحيى.
الدرجيني (أحمد بن سعيد)، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، ج ٢، ص ٣٧٨.

العجائز، توازيا مع انتشار المذهب، فقد ذُكر عن أبي يعقوب بن يوسف الغفولي، من عش يفرن، أنه قال: «أدركت في الساحل ثلاثمائة عجوز يدعين الإسلام». (١) فمن هي المرأة العجوز؟

٣. المرأة العجوز: امرأة عالمة سالحة

إنَّ المرأة العجوز هي امرأة سالحة عالمة، فزورغ الإرجانية هي عجوز سالحة (٢)، وكانت أصيلة امرأة سالحة، وكذلك كانت أم يحيى (٣)، وكانت أخت عمرو بن فتح المساكني (ت ٢٨٣ هـ) عالمة فقيهة، وقد أفتت للنساء اللواتي وقعن في الأسر في معركة مانو، بأن تستخلف كل واحدة منهن عن نفسها من يزوجهن لمن أرادها بسوء. (٤)، وكانت أم البخت ابنة خال أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، تدعى المسائل وقراءة الكتب. (٥)

إلا أن ما يُميّز العجوز عن المرأة السالحة العالمة، هو أمران:

- للعجوز مُصلّى: كانت العجوز تضاهي الشيخ في المنزلة الدينية وتفوقه أحيانا، فقد كانت هناك عجوز بقرية خاملة في الجبل، «ذات علم يجتمع إليها أهل تلك القرية يستفتونها، وكان بيت العجوز مُصلّى» (٦)، وأخرى «يجتمع الناس إليها يسألونها عن دينهم، ولها مُصلّى تصلي فيه». (٧) وقد ظلت الكثير من هذه المعالم متواجدة في جبل نفوسة، فقد عدّد الشماخي بعضها، مثل مُصلّى أم يحيى في جليمت، ومُصلّى غزالة، ومُصلّى زوغ (زورغ)، ومُصلّى أم زيد، ومُصلّى أم جلدین... (٨)

(١) الوسياني (أبو الربيع سليمان بن عبد السلام)، سير الوسياني، تحقيق عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة، مسقط، ٢٠٠٩، ج ١، ص ٣٢٤.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣٨-٦٣٩.

(٤) كتاب الأئمة، ص ١٥٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

(٦) طبقات المشائخ بالمغرب، ج ٢، ص ٣٧٧-٣٧٩.

- كتاب سير الأئمة، ص ٢٧٤.

(٧) كتاب السير، ج ٢، ص ٥٧١.

(٨) الشماخي، كتاب السير، طبعة حجرية، قسنطينة، ١٨٨٤، ص ٤٩٨-٦٠٠.

إنَّ العجوز، هي مصدر البركة وهي مقدّسة في ذاتها وبما له علاقة بمكانتها تلك، فأَمَّ يحيى، أدركها الله بالرحمة في عرس... فمضت حتى وصلت إلى صخرة واتّكأت على الصخرة، فبنوا عليها مصلىً»^(١)، كانت العجوز بحق عالمة، فيقال أن زورغ، كان «معها ثلث علم الجبل»^(٢)، ولكن أيّ علم؟ فليس بالعلم استحقّت العجوز مكانتها في جبل نفوسة، وإنما بما كان لها من بركة، لا تستمدّها فقط من الإسلام، وإنما من منهل الماضي السحيق. فقد ذكر عن عجوز بنفوسة، وهي زورغ، كان لها شجرة عظيمة استظلّ تحتها جيش المعز بن باديس، ولمّا فرغ من فساد غابتهم أمر بقطعها، فجرت منها ساقية لبن، في حين قطعهم لها.^(٣)

إنَّ خرافة العجوز والوثن، في هذا السياق، لا علاقة لها حصرياً بالفكر الاباضي وإنما بالموروث الحضاري الأمازيغي القديم. فتلّك الشجرة والعجوز، هما رمز للأصل وللهوية، إذ أنّ اللّبن المُراق هو إحياء للجذر المشترك، فكانت العجوز، «جدة الشيوخ»، كما كان يُقال عن تبركانت السدراتية^(٤)، ولأجل تلك البركة التي كانت للعجوز، والتي لم تأت بها فحسب، بعلمها الاباضي، كان لها مصلى، لقد كانت العجائز في نفوسة المرجع والأصل، فعن هنّ يأخذ الناس العلم والبركة، وهنّ بعد ملاذ عند الشدة، فكُنّ كهفا للإسلام، وماوى للأخيار، «وهنّ خيم الإسلام»^(٥)، ولذلك قيل إن: «الفقه هو علم العجائز»^(٦).

- العجوز حكيمة:

كان أهل الجبل يستشيرون عجائزهم في الأمور المستعصية، فكانت آرائهنّ ملزمة، فقد أرادوا استنقضاء رجل عليهم فاحتاروا، فقالت عجوز، ابعثوه لي، فبعثوه إليها، فاخترته بطريقته، فتبيّن لها أنّه معجاز مهين، ثمّ أرادوا آخر، فأرسلوه إليها، فجزّيته العجوز، بما جرّبت به الأوّل، فتأكّد

(١) سير الوسياني، ج ٢، ص ٦٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٤٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٧٢.

(٤) كتاب السير، ج ٢، ص ٤٦٦.

(٥) سيرة أهل نفوسة، ص ٢٥ و ص ١٩٠.

(٦) كتاب السير، ج ٢، ص ٤٣٦.

لها فضله.^(١)

وقد كان أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني يرفض أن يتولّى أمر نفوسة، فذهب يستشير عجوزاً، «معروفة بالعلم والأدب والورع»، فنصحتَه بذلك، بعد أن سألتَه، إن كان هناك من هو أفضل منه...^(٢)، ثم كان يلتجئ إلى العجوز بحكم البركة والحصانة التي تتمتع بها، كل من وقع في مازق، فتأتيها المرأة التي حملت غصبا^(٣)، وتلجأ إليها البنت البصيرة التي رُني بها، فتلد عندها^(٤)، كما يأتيها الفقير المسكين يطلب خرقه، أو ماء...^(٥). في المقابل، لم تكن العجوز عامة، أحادية الصورة، فهناك العجوز السيئة، التي لها علاقة بالسحر والضرر.^(٦)

٤. المرأة المتنبتة أو الكاهنة:

إن علاقة المرأة «الأمازيغية» بالتنبئ والغيب شيء معروف، فقد وصف المؤرخ بروكبيوس القيصري، هذه الموهبة لدى النساء، فقال: «عند هذه الشعوب (البربر) ليس للرجال الحق في التكهن، إنهنّ النساء على العكس، من يقمن بذلك، فبعض الطقوس الدينية تثير فيهنّ غشياناً، يمكنهنّ، مثلما كان يفعل كهنة المعابد، من قراءة المستقبل»^(٧) وقد قيل ما يشبه ذلك عن الكاهنة^(٨). كثير من نساء الجبل، ومن عجائزه، كنّ يتواصلن مع جنّي أو شيطان. وكان للكثير من نساء نفوسة، صاحب أو هاتف، فأصيل السالفة الذكر، كانت امرأة صالحة تُكَلِّم، يكلمها صاحبها^(٩)،

(١) سير الوسياني، ج ١، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) سير الأئمة، ص ١٢٤-١٢٥.

(٣) كتاب السير، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٥٨.

(٥) سير الأئمة، ص ١٩٦.

(٦) سيرة أهل نفوسة، ص ١٣٨. أبقار يرفضن حضور العجائز في مجلسهنّ مع زورغ.

- سير الوسياني، ج ٢، ص ٥٣٣-٥٣٤. شيخ اباضي كان يقول: «لأن أجد في بيتي سبعين سارقاً أحب إلى من (أن) أجد عجوزاً واحدة».

(7) Procope de Césarée, La guerre contre les vandales, par Denis Roques, Les Belles Lettres, Paris, 1990, p. 140.

(٨) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٥، ص ٨٢-٨٣.

(٩) سير الوسياني، ج ٢، ص ٦٣٩.

وكان لسارة اللواتية منبه ينبهها ويأمرها بالخير، وقد يكون يسمي ميمونا^(١)، ثم كان لأم خليفة، خاتم طوسة امرأة أبي عبد الله محمد بن تامر التناوتي النفزاوي، رفيق ينبهها ويحفظها^(٢). إن هذه العلاقة بين المرأة والجني في شكل هاتف أو صاحب أو منبه، قد خولت للمرأة القدرة على التكهّن وعلى الإيذاء، أو على المعجزة والخرقة، كذلك.

فقد اجتمع أفلح بن عبد الوهاب وأخته، فقال لها: «هلمّ نحسب ما يذبح في السوق غدا أولاً إن شاء الله، فحسب، فقال أفلح: إن أول ما يذبح في السوق بقرة صفراء في بطنها عجل، ذو غرة في جبهته، فقالت له: صدقت، هي البقرة الصفراء وفي بطنها عجل، غير أن الذي رأيته هو طرف ذنبه، ابيض، تعممه على جبهته، فخلته أبيض الجبهة ذا غرة، وإنما ذلك طرف ذنبه»^(٣)، لقد كان أفلح قد بلغ في حساب الغبار والنجامة مبلغاً عظيماً ولكن علمه مهما بلغ من سعة، فإنه كان قليلاً أمام وضوح رؤية أخته للغيب. أما المعجزات والخوارق فذلك كثير، وقد ذكر عن سارة اللواتية، التي جعل الله لها منبهاً ينبهها، أنها أرادت مرة زيارة المشايخ، من الرمال إلى سوف، فتحيّرت من الحرّ والبعد، فنبهها، بأن قال: «إذا استقبلت موضعاً وقصدت الله، أعانك ورفعك، كما رفع الله السماء، فارتفعت، فإذا هي في سوف بقدره الله»^(٤). و «روى عن أم زيد أنها رفعت من بيتها ليلاً، وهي على فراش واحد، قالت، فانفرج سقف البيت فرفعت إلى نحو السماء، حتى وصل بها فوق موضع مصلاها المعروف...»^(٥) أما أم جليدين، فقد تزوّجت شيخاً من أشياخ العلم له بنات، وبقيت بغير ولد،... فرغبت في الولد وترجّت الله، فأجيب دعاؤها، فسمعت هاتفاً يبشرها...، فولدت أربعة أولاد^(٦). لقد بدا التداخل جلياً في هذه الحكايات بين الإسلامي والأسطوري القديم، وهو شيء

(١) كتاب السير، ج ٢، ص ٦٣٩-٦٤٠.

المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٣٨.

(٢) سير الوسياني، ج ١، ص ٥٧٥.

كتاب السير، ج ٢، ص ٦٧٩.

(٣) كتاب سير الأئمة، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٤) كتاب السير، ج ٢، ص ٧٣٨.

(٥) سير أهل نفوسة، ص ١٨٥.

(٦) كتاب السير، ج ٢، ص ٤١١-٤١٢.

٥. المرأة المتبته: الصبر على الإيذاء طلباً للرحمة

«ذكر الشيوخ عن ثلاث نسوة في جبل نفوسة اجتمعن، فقالت إحداهن: «(لو) أن الله ساقني إلى قوم جهلة، فأعلمهم فيرحمني ربّي بما أعلمهم لفضل العلم والتعليم، وقالت الأخرى: تمنّيت لو وقع عندي ملا من المسلمين، في ليلة، قد ابتل كل شيء فيها بالمطر، فأعالج لهم العيش فيرحمني ربّي بهم، لفضل الصدقة وخدمة المسلمين. وقالت الأخرى: تمنّيت على الله لو يزوّجني رجلاً فاجراً داعراً فيظلمني...(!)، فأصبر له وأطيعه، فأصيب من ذلك رحمة الله تعالى، لفضل حسن التبعل والصبر على الأذى، ففضى الله أمنيتهن وأجاب دعاءهن.»^(٢)

كان هناك، سعي لدى هؤلاء النسوة إلى تمثّل «الضحية»، بطلب خدمة الآخر والصبر على الأذى، طلباً لرحمة الله، دون مقابل مادي، وهو ليس شيئا مألوفاً في الثقافة الإسلامية، عامة.

كانت المرأة الثالثة، أكثر هؤلاء النساء إثارة للانتباه، فهي قد تمنّت على الله الزواج من رجل فاجر، كانت هذه المرأة هي منزو بنت أبي عثمان المزاتي^(٣)، فقد أخذها زوجها حيث كانت مع نسوة على الماء، فكان يركب جملاً، وكانت تمشي خلفه حافية حتّى أُميت قدمها، فلما نزلوا في موضع، وسدّته طرف ردائها^(٤)، فكان يسيء إليها وتحسن إليه، ثم تزوّج عليها، وقد كان بنى لها خيمة منفصلة، وكان أن جاءها والدها، فقال: «خير عندي لو (وجدت) جنازتك من أن أجذك»، ثم استتابها فتأبّت، وبقيت على حالها، حتّى مات زوجها. قتله حنش في بئر، ف قيل: «سمعنا قضضة عظامه»^(٥)، وكان ذلك زمن الشيخ أبي زكريا يحيى بن يونس السدراتي.

لقد امتزج في هذه الرواية، حبّ التضحية والصبر على القسوة، وإن كان في ما قامت به منزو بعض الخطيئة، فقد طلب منها أبوها التوبة. إنّ الصبر على الأذى، وتحمل الألم، ليس أمراً مألوفاً في الثقافة الإسلامية عامة، بناء على القاعدة الشرعية: «لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة»، ولكن

(١) حسن (محمد)، كتاب السير، ج ١، ص ٧٩-٨١.

(٢) سير الوسياني، ج ٢، ص ٥٣١.

(٣) كتاب السير، ج ٢، ص ٣٤٣.

(٤) سير الوسياني، ج ٢، ص ٥٣١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٣٣.

نساء نفوسة كنَّ يرتجبن الإساءة طلباً للرحمة. فأمَّ جلدن، كانت تصبر على إساءة بنات زوجها، ولم تكن تخبر زوجها، حتى توفاهن الله»^(١)، وكان الصبر على إساءة الزوج بالنسبة إلى الزوجة، أو العكس، من علامات الصلاح، فقد اجتمع أهل طرابلس في ثورة أبي حاتم يعقوب حول امرأة، كان زوجها رجل سوء، ساءت سيرته^(٢). وكان الصبر على مصائب القدر من علامات الإيمان، فقد مات ابن للغاية زوجة أبي القاسم يزيد بن مخلد، في غانة، فلما بلغها الخبر، اغتسلت وصلَّت ركعتين، ثم قالت للنسوة: «انظرن إلى وجهي، هل امتنع من صنمة الرزية...»^(٣)

وقد تضطرَّ المرأة إلى التَّوحش في الغاب والعزلة، فقد خرجت امرأة صالحة إلى الغابة، «متوحشة عند زهو الثمار»^(٤)، طلباً للمغفرة عن ذنب مقترف، إنَّ هذا السعي إلى الزَّهد وطلب الأذى في شكل رهبنة، قد يكون ناتجاً عن تأثر بالمسيحية، التي لم تكن غريبة في جبل نفوسة، فقد ظَلَّت أم الخطاب مسيحية، إلى زواجها من أبي يحيى الإزدالي^(٥)، وكان الشيخ أبو يحيى تكسنيث، من أم نصرانية^(٦)، وقد أحصى الشماخي سبع كنائس، بقيت كمزارات ومشاهد في الجبل.^(٧)

ويبدو أنَّ بعض الروايات، يتداخل فيها الإسلامي بالمسيحي، مثل تلك المرأة من أهل تدينيت، كانت صالحة في أيام النصرانية، قبل الإسلام حملت قفَّة من تين، فنزل إليها حارس التين، واسمه بيززرز، فراودها عن نفسها، فأبت عليه وامتنعت منه، فعجن لها تينها، ومضى وتركها، وطلع إلى مظلته... فدعت عليه... فنزلت عليه نار من السماء، بل من الهواء فأحرقته، وبنى في موضع مظلته مصلى، وهو معروف إلى يومنا هذا...^(٨) ثم أنَّ بعض النساء قد تزهدن بعد توبة، مثل أم

(١) كتاب السير، ج ٢، ص ٤١١.

(٢) كتاب سير الأئمة، ص ٧٣.

(٣) سير الوسياني، ج ١، ص ٣٤١.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٨.

(٥) كتاب السير، ج ٢، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٣.

(٧) الشماخي، السير، طبعة حجرية، ص ٤٩٨-٦٠٠.

(٨) كتاب السير، ج ٢، ص ٤١٠.

- سيرة أهل نفوسة، ص ١٨٦-١٨٧.

جلدين التي كان يستهويها ضرب الدّف، وأمّ يحيى التي كانت تحضر الولائم والأعراس^(١)

٦- المرأة في المجتمع:

(١) المرأة والثورة

لم يكن وجود المرأة غائبا في التاريخ البربري القديم، فالكاهنة قد تزعمت أكبر ثورة ضدّ العرب المسلمين، أمّا في التاريخ «الخارجي» فالمرأة كانت حاضرة في تحرّكات الخوارج في المشرق الإسلامي. وقد شهدت تحرّكات الاباضية، في المواقع المشهورة، مثل موقعة مانو (٢٨٣هـ/٨٩٦م) حضور المرأة، التي وإن لم تكن لها مساهمة فعلية في الحرب، فإنّها كانت تدعم الرّجال، وقد وقعت بعض نساء نفوسة في الأسر، بعد أن خرجن مع الرّجال^(٢). ولكن قبل ذلك في (١٥٤هـ/٧٧١م)، اجتمع البعض ممّن يريد الخروج على العباسيين، «على امرأة مسلمة فاضطروا الاجتماع لشأنها، وهم يريدون الخروج على جند طرابلس وعامل أبي جعفر»^(٣). كانت هذه المرأة صالحة وكان زوجها رجل سوء، فهي أولى نساء الاباضية نوات البركة، وكان الاجتماع في بيتها لتظليل عيون العباسيين، أمّا التأكيد على أنّها مسلمة، فذلك لتمييزها عن النساء المسيحيات، وأن الثورة قد انطلقت من بيت مسلم. لم يكن ممكنا للمرأة أن تقود ثورة في حركة متمسكة بأصول الإسلام، فكانت الحظن الذي نشأت فيه ثورة أبي حاتم الملزوزي. وقد تكون زورغ الأرجانية قامت بنفس الدور في مواجهة جيش الزيريين في القرن ٤هـ، فقد أقدم الزيريون على قطع شجرتها، وهذا ما يؤكّد على أنّها كانت حاضنة للمقاومة، كما كانت الكاهنة من قبل، حاضنة للمقاومة ضدّ المسلمين^(٤)، وقد ظلّت وظيفة المرأة الحاضنة للثورة في المجتمعات المغربية إلى العصور

(١) المصدر نفسه، ص ٢٢ و ص ١٨٨.

(٢) كتاب سير الأئمة، ص ١٥٧.

- كتاب السير، ج ٢، ص ٣٧١.

(٣) كتاب سير الأئمة، ص ٧٣-٧٤.

- كتاب السير، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٤) المالكي، رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤، ج ١، ص ٥٠، «فإن قتلتها يسّ الروم والبربر أن يكون نهم ملجأ».

الحديث^(١).

وبعد، كان البعض ممن يثور على الظلم، يضطرّ إلى إتمام نصاب الخروج وهو أربعين رجلا بامرأة، كما كان يقع في المشرق ولم ينكر ذلك علماء الاباضية^(٢).

٢) المرأة والزواج

كان الزواج، يتمّ عبر الخاطب الذي يتصل بولي البنت^(٣)، الذي يطلب رأيها في الأمر، فكان التواصل المباشر مفقودا بين الرجل والمرأة إلا في حالات نادرة كزواج أبي نرّ أبان بن وسيم الويغوي من امرأة صالحة فقيهة، كان له مجلس في بيتها، وهي بهلولة^(٤).

وقد تختار المرأة في حالات خاطبها على خطيبها وهو ما وقع لأبي مسور سيجا بن يوجين البهراسني^(٥)، ويمكن لامرأة أن تكون راضية بقلبها ناكرة بلسانها، فيبطل الزواج، ولكنها تتدارك أمرها في الزواج الثاني، حيث تعلم زوجها ليلة الزفاف بكونها كانت راضية بزوجها الأول^(٦)، وهو ما يشير ضمناً إلى وجود علاقات خفية^(٧).

كان الزواج التعدي معمولاً به، ولكن لم يكن مرغوباً فيه، فالقاعدة هي الزواج الأحادي، فقد قال أبو زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني: «عليك بقرينتك لا تشراب بعنقك إلى ما فوقك، ولا تطأطي برأسك إلى ما دونك»^(٨).

قد يُفضي وجود الضرة، إلى موت الزوجة الأولى كمداً، كما حدث لزوجة حمو بن لؤلؤ

(1) Rinn (Lieutenant Colonel), « La femme berbère dans l'ethnologie et l'histoire de l'Algérie », in société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, 1905, p. 461-500.

(2) كتاب السير، ج ٢، ص ٤٧٨. ترجمة أبي القاسم الفرستاني..

(3) بن رستم، (عبد الوهاب بن عبد الرحمان)، كتاب مسائل نفوسة، تحقيق إبراهيم محمد طلاي، غرداية، ١٩٩١، ص ١٠٤.

(4) كتاب السير، ج ٢، ص ٣٥٥.

(5) كتاب سير الأئمة، ص ٢٥٢.

(6) سير الوسياني، ج ١، ص ٢٧١-٢٧٢.

(7) المصدر نفسه، ص ٢٧١-٢٧٢.

(8) كتاب السير، ج ٢، ص ٦٢٢. القرينة هي المرأة المكافئة للرجل سواء في العلم أو في الغنى أو في المنزلة الاجتماعية.

من ورجلان، بعد زواجه من ابنة يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب^(١)، وقد عرف بعض الشيوخ بزواجهم الأحادي من قرينات لهم، مثلما تزوج أبان يالوت وأبو مرّ تزوج زرزورت، وأبو مهاصر، تلّولي، وأبو ميمون أم يحيى...^(٢). وكان الزوج يجبر على الإنفاق على زوجته، فيضرب، وإن عجز يطلق^(٣)، ولم تكن المرأة عامة، على مذهب زوجها، فقد تكون نكارية والزوج وهبي، فكان الشيخ يخلّفن بن أيوب النفوسي من أب نفاتي وأم وهبية، فإذا جاءت عزابة نفاتية أضافهم الأب، وإذا جاءت عزابة وهبية أضافهم الأم^(٤).

ولم يكن للرجل أن يطلق زوجته إن رفضت أو امره لها بخدمته، فقد طلب زوج وهبي من زوجته النكارية، أن تُهيأ غذاء العزابة الذين حلّوا بمنزله، فأبت، فطلقها ثلاثاً، إلا أن المشايخ تدخلوا ورتّوا الزوجة إلى الزوج ف: «هي لم تعمل شيئاً، لأنّه ليس له عليها الخدمة، المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، والناس في حجور علمائهم، كالصبيان في حجور آبائهم»^(٥)، إن هذا الموقف الاباضي، قد لا نجد له شبيهاً، في المذاهب السنية.

كانت المرأة الاباضية تعنف زوجها أحياناً، ولم يكن ذلك يثير سخط الشيوخ، فقد اشتكى رجل إلى الشيخ أبو يوسف يعقوب الطرقي، قائلاً عن زوجته: «ضربتني البارحة بمقلّي، فصيرته طوقاً في عنقي»، فأشار إليه الشيخ بضرورة الصبر^(٦). وهذا يعود، كما قلنا، إلى أن الصبر على إساءة الزوج، بالنسبة إلى المرأة والرجل، هو آية من آيات الإيمان، فقد كان الشيخ أبو إسحاق الأشارني، ممّن ابتلي بزوجة سوء، وكانت تضربه، ويحتمل ذلك لله^(٧).

كانت المرأة الاباضية، كالمرأة المسلمة، حرّة في مالها، وكان بإمكانها أن تثبت حقّها أمام

(١) كتاب سير الأئمة، ص ١٨٩-١٩٠.

(٢) سير الوسياني، ج ١، ص ٥٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٧ وص ٣٢٩.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٨ وص ٧٠٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٨-٣٤٩.

(٦) طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٣٤٥.

- سير الوسياني، ج ١، ص ٣٩٨.

(٧) كتاب السير، ج ٢، ص ٣٩٨.

علماء الاباضية الذين لم يكونوا ضدّ النساء عامّة، فقد ترفع إلى الشيخ إسحاق بن رجا (من علماء ورجلان في القرن ٧هـ)، وكان الزوج قد أكره زوجته على أن تتخلّى له على دين عليه، «فجعلت ثوبها بينها وبين زوجها، فأشارت للشيخ إلى منبجها تعرّفه بأنها مكرهة والزوج لم يعلم بذلك...»^(١). وإن سمح للرجل الفقير أن يأخذ زكاة مال زوجته الثرية، فإنّه ليس يحقّ للمرأة أن تأخذ زكاة بعلمها^(٢)، يعود ذلك، إلى قاعدة النّفقة.

٧- المرأة وجسدها:

أ. جسد مستور

لم يكن جسد المرأة البكر مكشوفاً، فقد رأينا أنّ أم ماطوس كانت تذهب إلى مجالس العلم متنكّرة في هيئة الرجل^(٣)، أمّا عائشة بنت معاذ، فكانت تلفّ جسدها بحصير بحضور الرجال. أما العجوز، فهي جسد ميّت، فاقد للإثارة فلا يهمّ رؤية شعرها، بل أنّ أحد الشيوخ قد طلب من ابنه، خلق رأس أمّه الأشعث^(٤)، فذلك الشعر «الواقف»، قد يكون على علاقة بالتكهّن...^(٥)، في المقابل، يُعجب الشيخ أبو يحيى الأندالي بشابة مسيحية، فيطلب يدها من أبيها، لجمالها، ولكن، يأمرها باعتناق الإسلام^(٦).

لم تكن نظرة المشايخ إلى المرأة إيجابيّة عامّة، فهناك استثناءات، لابدّ من التوقّف عندها، فأبو عبد الله محمد بن سليمان النفوسي كان يقول: «لا أريد أن أرى الفرس والكلب والمرأة، إلّا في بيت العدو: الفرس في رأسه مطحنة وتحتّه مزبلة، والكلب يروّع والمرأة تفشي السرّ»، فلم يتزوّج إلّا عندما أشرف على الموت، حتّى يجد من يرعاه^(٧). وكان ميمون بن تجار، يُفتي: «من جاز على

(١) سير الوسياني، ج ١، ص ٤٥٠.

(٢) طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٣) سيرة أهل نفوسة، ص ٥٧.

(٤) سير الوسياني، ج ١، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٥) رياض النفوس، ج ١، ص ٥٣: خرجت الكاهنة ناشرة شعرها ... وكانت من أعلم أهل زمانها بالكاهنة.

(٦) كتاب السير، ج ٢، ص ٤٠٧.

(٧) كتاب السير، ج ٢، ص ٥٩٧.

الموضع الذي يغتسل فيه النساء أعاد الوضوء»^(١).

كان المبدأ في المجتمع الاباضي أن تستر المرأة جسمها، وأن لا يظهر منه، ما يعتبر تبرج، فقد رأي الشيخ أبو مرداس مهاصر السدراتي عن غير قصد، امرأة مكشوفة الرأس، فصام سنة كفارة لرؤيته»^(٢) أما الشيخ أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي، فإنه كان ذهب مرة إلى قسطنطينية، فرأى نساءها متبرجات مكشوفات، فقال: «ما أكثر خدم هذا البلد، حملهن على أنهن لسن حرائر»^(٣)، وذلك أن الأمة لم تكن ملزمة بالستر كالحرّة. الواقع، أن نساء قسطنطينية لسن كمثّل نساء نفوسة، ولا نساء ورجلان. فقد سألت الغاية زوجة أبي القاسم يزيد بن مخلد بن كيداد، الشيخ أبا عمران المزاتي عن: «امرأة صحبت النساء إلى الوادي، فنزلت في الماء في ثيابها وجعلت على رأسها سترة، فقال لها: أيما امرأة نزلت في الوادي مكشوفة، فإنها ستقوم في سبعة أودية من نار جهنم»^(٤) في المقابل، كان التعري مألوفاً لدى البربر، في علاقة باعتقاداتهم القديمة، فقد روي عن ميمون بن تجار، أنه قال: «من تعري لنار موقودة هلك، وإن كان تعري لجمر عصي، ومن تعري للمسجد عصي، ومن تعري للكعبة عصي...»^(٥).

وقد سعى بعض الشيوخ المحيين للمرأة، إلى الترخيص للنساء، بغاية التوفيق بين تدينهن المفرط، وشؤونهن الأنثوية، فقد أباح الشيخ أبان بن وسيم النفوسي، حاكم الجبل للمرأة التي تكون في أواخر الدورة الشهرية، أن تجعل علماً تتفقده عند الصبح، بدل أن تسهر الليل كله، منتظرة الحيض. كما سمح للمرأة المرضع، التي يمكن لها أن تحفظ فم ولدها وتمسحه في كلّ مرة، بدل أن تتوضأ إثر كل رضعة، ثم أنه بالنسبة إلى المرأة التي تعمل الغزل، فليس عليها إعادة الوضوء في كلّ مرة تمسّ صباغ اليهود، فتكتفي بغسل يديها وكفيها.^(٦)

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٠٥.

(٢) سير الوسياني، ج ١، ص ٣٠٧.

- طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٢٩٢

(٣) كتاب سير الأئمة، ص ١٩٦.

(٤) كتاب السير، ج ٢، ص ٥٩٠.

- طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٤١٠

(٥) كتاب السير، ج ٢، ص ٧٠٥.

(٦) نفس السابق، ص ٢٤٨.

أما الغناء فقد كان منكرا حسب شيوخ الاباضية في الأعراس والولائم، ولكن حتى عند غزل الصوف، فزيدية بنت عبد الله الملوثانية، منعت نساء من الغناء، عند غزل الصوف، أما أصيل فقد أمرها هاتفها بالرجوع إلى بيتها على أن تشارك النسوة عمل الصوف^(١). وكانت النساء يأتين إلى مجالس العلم دون التخلّي عن غزل الصوف، فكان الشيخ أبو حسان الفرسطاني يتشدد في إلزامهنّ بالوقاية في لباسهنّ، ولكنهن لم يمثلن لذلك^(٢). كان يعد الحضور في الأعراس، عند بعض الشيوخ، منقضا للوضوء^(٣).

وإن كان يمكن للبنت أن تسأل أباه في الحيض^(٤)، فإن رؤية الأب لفرج ابنته عن غير قصد، أدى إلى طلاقه من أمها^(٥)، وذلك أنّ الأب لا يحقّ له النظر إلى جسد ابنته بعد السنتين، ذلك ما يمكن فهمه من حكم غسل الطفل عند الوفاة، حيث ليس للرجل، أن يغسل جثة البنت، بعد السنتين من العمر^(٦).

ب. جسد مغضوب

كان الانغلاق يشتدّ في ورجلان ويضعف في نفوسة ويقلّ في قسطينية، وإنّ هناك رأي للشيخ أبي نوح سعيد بن زنگيل المزاتي الإفريقي (٤٠٠ هـ/١٠ م)، في أهل ورجلان، يستحقّ النظر، في شأن نكاح السرّ: «فإذا مرّ أحد برجل وامرأة مجتمعين في موضع التهمة، زجرهما ونهاهما عن الاجتماع في موضع التهمة، قال له: إنّنا قد تناكحنا، فكاد يظهر فيكم الفحشاء، كما يقول.»^(٧)، ذلك يعني أنّ التشدد على المرأة، لا يمنع من الخطيئة. فكانت ظاهرة الاغتصاب والإنجاب الغير شرعي، ملاحظة في سير الاباضية، وقد أشرنا إلى بعضها، فقد ذكر عن الشيخ أبي المهاصر الأقطماني: «أنّه فطن بامرأة حامل لا زوج لها، فرأها يوما أوت إلى خربة، فتتبعها، فقال: «تكون

(١) كتاب السير، ج ٢، ص ٤٨٤-٤٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٠٥.

(٤) كتاب السير، ج ٢، ص ٣٧٣.

(٥) طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٤٤٠. هو الشيخ أبو الربيع سليمان الزلفيني.

(٦) سير الوسياني، ج ١، ص ٣٩٩.

(٧) كتاب سير الأئمة، ص ٢٤٦.

- كتاب السير، ج ٢، ص ٥٤١.

الغلبة ويكون الرقاد فوضعت حملها، وهياً لها، ما يُحتاج إليها مثلها...»^(١)، وقد دخلت على الشيخ عبد الله بن توتسيت، امرأة حامل من الزنى، «مشهورة في الزنى»، مومسة، تطلب دراهم لشراء لحم اشتتهته^(٢). وقد تجبر المرأة على الفاحشة، ومتى فطن بها أهلها قتلوها، ذلك ما حدث للبنت البصيرة التي التجأت إلى تبركانت جدّة الشيوخ، لتلد غلاماً، ولكن أخاها، يتمكّن من قتلها ذبحاً، في غفلة من العجوز^(٣)، أمّا الشيخ أبو مسور، فقد وجد منبواً في مسجده، فقام بتربيته^(٤)، وقطع قاطع على امرأة عفيفة من أرجان، فحملت منه^(٥). كان المجتمع الاباضي معترفاً بهذه الظاهرة، فكان يعمل بطرق مختلفة على حماية هذا النوع من الإنجاب.

يقول مثل أمازيغي قديم: «المرأة متى لم يزرها بعلمها، ابتغت السفاح»^(٦).

إن أكثر ما يميّز الفقه الاباضي، هو الإقرار بنسبة المولود إلى أبيه يولد بعد مضي مدة الحمل الطبيعية. فقد: «ذكر عن امرأة في تين يسلي توفي عنها زوجها، فمكثت بعد ذلك زماناً، وليس لها زوج، فأنت بولد، فاتفقوا على أن يضربوها، فبلغ ذلك الشيخ ماكسن، فتوجّه إليهم، وقال لهم: لم يجز لكم ضربها، لأنّها قد كان لها زوج قبل ذلك، والولد لذلك الزوج، والحدود تدراً بالشبهات...»، وقد نسب الشيخ ماكسن بن الخير الوسياني، مولوداً لزوجته ابن ابنه، بعد أن توفي بسنتين^(٧). وإن اختلف علماء الاباضية في الأمر، فإنّ الاتجاه كان في هذا النحو، فكان هناك، من يقول، إنّ المرأة تلد بعد طلاقها، أو وفاة زوجها حتى بعد أربع سنين، ومنهم من يقول: «يلزمه

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٦. أمران يفسران حسب الشيخ هذا النوع من الولادات، هما: الغلبة أي الإكراه والرقاد وهو أن يمكث الجنين في بطن أمه أكثر من المدة الطبيعية.

(٢) سير الوسياني، ج ١، ص ٣٢٠-٣٢١.

- كتاب السير، ج ٢، ص ٧٣٢.

(٣) سيرة نفوسة، ص ١٥.

- كتاب السير، ج ٢، ص ٤٥٨.

(٤) سيرة نفوسة، ص ١٣٩.

(٥) كتاب السير، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٦) طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٣٥٧.

(٧) سير الوسياني، ج ١، ص ٣٩٠.

ما أتت به ما لم ينقطع فراشه بزوج.»^(١) وقد جاء في رواية عن الشيخ ماطوس بن ماطوس، أن امرأة أحضرته ليلا لتثبت بوجوده، أن زوجها يأتيها ليلا، فيطوؤها، وقد أمرته بإعلام الناس بذلك...، وقد عرف الشيخ ماطوس، بمخالطته نساء السوء^(٢)، وقد تضمن كتاب مسائل نفوسة، نبذة عن حالات الاغتصاب والزنى، والحمل المجهول الفاعل، فأفتي: إن اعتلت المرأة بأنها أوتيت في المنام من حيث لا تدري، فيقبل منها، فقد قيل: «إدروا الحدود بالشبهات.»^(٣)

ج. جسد مسكون

قد رأينا أن بعض نسوة نفوسة، كن يتواصلن مع صوت مجهول مصدره، ووصف أحيانا، بالرفيق والصاحب، هو جنّي بالتأكيد، لا يسكن المرأة، ولكن جسدها، يستجيب له، فجسد المرأة بهذه الصورة، ملتقط فائق لأصوات الروح، راد للصدى، كآلة جوفاء، إن علاقة المرأة بالأرواح والجن أمر مثير في سير الاباضية، فقد رأينا سابقا، أن أحد الشيوخ قارن المرأة بالفرس، والكلب، ورأى أنها، فاشية للسر. وقد روي عن أم داود: «أنها كانت مرة تصلّي، فدخل حنش، وخرج من الكم الآخر، ولم تكسر الصلاة.»^(٤) إن الحنش والقط من صور الجن، فقد أخذ أبو عامر التصراري، بكم أمة الواحد زوجته وقال: «أخرج يا ملعون من حبس طاهر، فخرج من كمها مثل القط، وهو يصيح حتى خرج من باب البيت»^(٥)، وقد رأت أمة الواحد هذه، في يوم واحد، الشيطان مرتين^(٦). كان أبو مرداس مهاضر السدراتي رجلا فقيرا، «فأرسل ذات مرة رجلا يخطب عليه امرأة، فطاف الرجل بالجبل يطلب له، ولم يجد إلا واحدة مجنونة، فأجابته فتزوجها، فمكث معها أبو مرداس دهرا، فكانت بعد ذلك من أفضل نساء نفوسة وأحسنهن وأرفعهن ذكرا.»^(٧) «وقد ذكر غير واحد من الحفاظ: أن صبية صغيرة من بني ينجاسن، أخذها الجنون، فقالوا، اترك

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٣-٤٧٨.

(٢) كتاب السير، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٣) كتاب مسائل نفوسة، ص ١١٠-١١١.

(٤) سيرة أهل نفوسة، ص ٢١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨٤.

(٦) كتاب السير، ج ٢، ص ٣٤٧.

(٧) كتاب سير الأئمة، ص ١٢٦. (الغريب أن جنون المرأة مانع للنكاح: انظر: مسائل نفوسة، ص ١٠٧).

هذه المسكينة الضعيفة، قال: لا تقولون مسكينة ضعيفة، فإنها زوجة ملكة جغراف^(١) *، فتزوجها أبو عبد الله محمد بن بكر (أحد كبار علماء القرن ٩هـ/٩م)، في أجلو.»^(٢)

هناك فرق بين جسدي الرجل والمرأة، فجسد الأنثى، كان آلة جوفاء، كما قلنا، مرجعا للصوت، فكان كهفا يأوي إليه الجنّي، سيما إذا لم يعمر بالإيمان، وهو غير كتوم فاش للأسرار، أما جسد الرجل فهو عكس ذلك فإن كان للمرأة هاتف أو منبّه صاحب أو رفيق فإنّ للرجل تابع يتبعه دون أن يلج جسده، فقد كان لماطوس بن ماطوس عمود من الضوء يمشي أمامه ليلا، هو يقوده إلى المهالك وكانت امرأته زوجة سوء، فكانت تقول: «جنّيك يا ابن ماطوس!»، فكان الشيخ معروفا بمخالطة النساء وكانت زوجته تصبّ على رأسه الرماد إبعادا للجنّي إذا وجدته صحبة امرأة^(٣).

إنّ علاقة جسد المرأة بالجنّي، اعتقاد راسخ لدى «الأمازيغ»، وإنّ هذه العلاقة على صلة بكون جسد الأنثى، هو منبع الخلق والحياة، فهو جسد حامل لحياة ونفس وجنين، ثمّ إنّ علاقة المرأة بالشيطان، تستمدّ أصلها كذلك من الأساطير التوراتيّة عن خطيئة حواء والهبوط إلى الدنيا. إنّ الدّم، ومنه دم الحيض، حامل لثنائيّة المذنس والمقدّس، فإنّ كان نجاسة^(٤)، فهو مصدر الحياة والخلق، وهو نفس كلّ جسد^(٥)، فكان الاغتسال إجباريا لمن تلطّخ بالدم^(٦)، «ومن أعطى ثيابه لامرأة، فلا يصلّي بها حتى تغسل»^(٧) ولكن دم الشهداء، الذي يبقى منات السنين على الرّمل، هو مقدّس^(٨) لقد كان الدم مسكنا للجنّي.

كان تقديس الأسلاف، وعبادة الإنسان L'anthropôlatie اعتقادا «بربريا» قديما، كما

(١) جغراف: هي أجلو من مدن ورجلان، انظر: الشماخي، ج ٢، ص ٦٧٩.

(٢) كتاب السير، ج ٢، ص ٦٧٢.

(٣) سيرة نفوسة، ص ٧٣.

(٤) كتاب السير، ج ٢، ص ٧٧٠.

(٥) فريشاوار (بول)، الجنس في العالم القديم، ترجمة فائق دحدوح، دار الكندي، دمشق، ١٩٨٨، ص ٢٣-٢٤.

(٦) بن رستم، كتاب مسائل نفوسة، ص ٥١.

(٧) كتاب السير، ج ٢، ص ٧٠٥.

(٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٣ و ٧٧٠.

أشار إلى ذلك هيرودوت في شأن بعض قبائل ليبيا القديمة قائلا ما معناه: «في حال أيمانهم، هم يقسمون برجال منهم يعتقدون أنهم كانوا الأكثر استقامة وصلاحا، وذلك بوضع أيديهم على قبورهم»^(١)، وكان هذا الاعتقاد على علاقة بظاهرة الإيمان بـ«الجنون» والأرواح^(٢)، فروح الجدّ حامية للجماعة المنتسبة إليه (un génie protecteur) يحضر عند المخاطر كما يحتمي به الغريب والضعيف، مثلما هو الشأن لدى بعض قبائل إفريقيّا جنوب الصحراء، فكان يطلب رضاه بإراقة الدّم ويُقسم به بوضع اليد^(٣) * الملطّخة بالدم على قبره... لكن ما مكانة المرأة في هذا الاعتقاد؟

إنّ ما يوحى بتقدّيس الجدود والآباء*^(٤) في سير الاباضية، بشكل ملموس، هو قدسية آثار الأقدام على الصخر، فقد كان يُحتفظ أحيانا بأثر قدم الشيخ على الصخر أو على الرمل^(٥)، حتّى يظلّ حاضرا على الدوام. لقد أكّد الشّماخي على سمعة جبل نفوسة، بالإشارة إلى وفرة الآثار على الصخور، فهذه آثار غنم الشيوخ على الصخر، كأنّها ماشية على الطّين، وبقاؤها بقاء الدهر، وأقدام أبي عثمان المزاتي، بدجّي على صفا في مصلاه، ثمّ ما بقي من آثار ناقة عمّي طاهر (بن يوسف) وكلبه ودابته على صخرة تحت جادو... وتلك الدماء التي في الرمل في ككله^(٦)، تخليدا لشيوخ استشهدوا. ولكن، لا وجود لأثر المرأة على الصخور!! إنّ المرأة، هي الجدّة، وهي الأصل الذي تكون منه الفروع، مثل شجرة زورغ، فمنها يكون الآباء والشيوخ.

وإن حاول الزيريون قطع شجرة زورغ، فإنهم لم يفلحوا، بل لاحقتهم اللّعة^(٧)، أمّا ذلك اللبن الذي سال من الشجرة، فهو إحياء لعلاقة الأمومة بين العجوز (الجدّة) وأبنائها، فالحليب

(1) Hérodote, Histoires, par Eugène Talbot, Paris, 1864, p 348.

(2) Froelich (J.C.), Animisme, éditions de l'Orante, Paris, 1964, p 179.

(٣) * لقد تحوّلت اليد أداة القسم إلى شيء مقدّس (قدسيّة العدد خمسة لدى بعض القبائل الليبية، والخمسة التونسية المعروفة)، وأصبح كذلك القسم باليد عهدا يُقسم به، فيقال في تونس مثلا «وعهد سيدي فلان...»

(٤) ** سيرة نفوسة، ص ١١٧. قال الشيخ: «... والناس في حجور علمائهم، كالصبيان في حجور آبائهم»: لا علاقة لعبارات «جدي» و«بابا» بالانتماء النسبي، وإنما كما، قال هيرودوت هي على علاقة بتقدّيس السلف الصالح، فيكون الانتساب عندنا روحيا وليس بيولوجيا.

(٥) سير الوسياني، ج ١، ص ٥٣٢.

(٦) كتاب السير، ج ٢، ص ٤٠٦ و ص ٧٧١.

(٧) سير الوسياني، ج ١، ص ٥٧٢-٥٧٣.

يحمل رمزية البنوة، والانتساب، والحياة كذلك.

إن تناول موضوع المرأة في سير الاباضية إشكالي، إذ هناك تداخل بين ثلاثة أبعاد: دنيوي، وديني، وأسطوري-ميثولوجي، فبعض الروايات التي تبدو واقعية، هي في الأصل على علاقة باعتقادات قديمة، وكثيرا ما يتدخل الديني، لتلطيف ممارسة إعتقادية قديمة، فكان يستحيل فكّ خيوط تلك الروايات، عن نساء يأتين بأفعال عجيبة، فكيف تخرج مثلا، امرأة لم تف بدورها إلى الغابة متوحشة، في زهو الثمار؟ وكيف تشتهر امرأة بالزنا وتأتي شيئا تطلب دراهم؟ وهل مصادفة، أن تكشف امرأة عن جسدها في احتفال الربيع، فيضطرّ الشيخ لصوم سنة كاملة؟ وأن يصرع رجل غريب دخل إلى دار تسمى دار الإباحة يلجها الرجال، فلم يسلم على «أنثى» كانت بعضادة الباب^(١)، في حضنها صبي؟ وأن تجلس امرأة من « أهل تمنكرت تغربل الدقيق ذات ليلة في ضوء القمر فأثاها سائل فجعلت الماء في الدقيق فأخلطته فأعطته، فمدّ يده فرأت خلقا عظيما قد جاوز فوق الباب، فلما أصبحت من الغد أخبرتهم بذلك فقفوا الأثر فلم يجدوا إلا خطوة واحدة في الخطّ، قدام تندور دورت، فبنوا هناك عليه مصلى». ^(٢) أفليس ذلك استحضارا لأرواح الأباء، أليس ذلك سحرا؟^(٣) إن سير الاباضية مفيدة لدارس الاباضية دون شك، ولكن هي مفيدة أكثر للباحث الانتروبولوجي الذي ينبغي عليه قراءة ما وراء الكلمات، فزيادة على تواصل الاعتقادات الأمازيغية القديمة بأشكال مختلفة وبدرجات متفاوتة، فإن الكثير من الروايات تثيرا جوا عشتاريا تموزيا، ولا نستغرب من ذلك فتلك الاعتقادات انتشرت في المتوسط وتواصلت بعدانتشار المسيحية^(٤)، إن المرأة في سير الإباضية هي صورة للماضي، وهي ذاكرة للمستقبل.

(١) طبقات المشايخ بالمغرب، ج ٢، ص ٤٦٠.

- كتاب السير، ج ٢، ص ٦٣٢.

(٢) سيرة أهل نفوسة، ص ١١٧.

(3) Gaudry (Mathéa), La femme chaouia de l'Aures, Chihab-Awal, Batna (Algérie) 1998, p.228-229.

(4) - Vellay (Claude), Le culte et les fêtes d'Adonis-Tammouz dans l'orient antique, Paris, 1904, p 20, 169,-171.

- السواح (فراس)، لغز عشتار الآلهة المونثة واصل الدين والأسطورة، دار المنارة، سوريا، ١٩٩٠، إن رمزية الشجرة، وغيرها من الرموز المشار إليها على علاقة وطيدة بعبادة عشتار... إن المجال لا يسمح بالتفصيل، فنكتفي بالإشارة فقط.

الأبعاد الحضارية لسيرة حلقة العزابة في: القرن ٥هـ

أ: أحمد بن حمو كروم

أستاذ وباحث بمؤسسة عمي سعيد غرداية/ الجزائر

amddfm@gmail.com

أ: عمر بن أحمد بازين

أستاذ وباحث بمؤسسة عمي سعيد غرداية / الجزائر

Bazine66@yahoo.fr

المقدمة

اخترنا لكم عرض السيرة المسورية البكرية في القرن الخامس الهجري والتي تمثل وجهة نظر الإباضية في التربية والتعليم في شمال إفريقيا حتى تكون ذات أثر فعال في حياة الفرد والمجتمع..

وقد وضعنا لهذه المداخلة العنوان التالي: «الأبعاد الحضارية لسيرة حلقة العزابة في القرن: ٥هـ». ولتحليل الموضوع تحليلاً علمياً مفيداً قسمنا المداخلة إلى مبحثين أساسيين: فخصصنا المبحث الأول للتعريف بمؤسس هذا النظام التربوي العزيز وهو: الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني النفوسي وشيخه أبو زكرياء وتلميذه الشيخ أبو الربيع سليمان بن خلف المزاتي القابسي بعد تحديد مصطلح: «السير» و: «العزابة».

وأما المبحث الثاني: فقد تعرضنا فيه لسيرة حلقة العزابة في شمال إفريقيا في القرن: ٥هـ بعد توضيح أهمية التربية والتعليم في الحضارة الإسلامية ثم ختمناه بإبراز الأبعاد الحضارية لهذه السير في المجتمعات المغربية.. ونرجو أن نكون موفقين في هذا الاختيار والعرض المقتضب والله ولي ذلك وهو حسبنا ونعم الوكيل.

• المبحث الأول:

تعريف أساسية

وهي تتعلق بتحديد مصطلحات وضبط مسيرة شخصيات فعالة في هذا المجال.. ولذلك قسمناه إلى خمسة مطالب.

المطلب الأول: تعريف كلمة: «السيرة».

«السيرة»: في اللغة هي كلمة مشتقة من الفعل: «سار» يسير سيراً ومسيراً.. ومسيرة، والسيرة كما ورد في لسان العرب هي: الطريقة، يقال: سار بهم سيرة حسنة.. وهي بمعنى: الهيئة والشكل. قال تعالى: سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى [طه: ٢١]، وهي تعني أيضاً: الحديث عن تاريخ الأوانل في قولهم: «سير سيرة»^(١) مثل: سيرة سيف بن ذي يزن.

ثم تطورت هذه الكلمة: «السيرة» فانحسر استعمالها كمصطلح خاص لذكر الحوادث التي برزت في حياة عالم أو مجاهد أو نبي مثل نبينا محمد حيث أصبحت هذه الكلمة علماً خاصاً لحياة النبي محمد فيقال: «السيرة النبوية»^(٢).

لكن علماء الإباضية في المشرق والمغرب لم يستغنوا عن هذه الكلمة ولم يغيروها بل وظفوها في معانيها اللغوية المختلفة فقالوا: «كتاب السيرة وأخبار الأئمة». وقالوا: «كتاب سير الوسياني». كما وظفوا هذه الكلمة بمعنى: قانون أو نظام، مثل: «سير أبي عمار الوارجلاني»^(٣). و: «سير الحلقة»^(٤). أو: «سير أبي الربيع المزاتي»^(٥). أو سيرة أهل المغرب إلى الإمام الصلت بن خميس^(٦). وكذلك سيرة محمد بن محبوب إلى أهل المغرب، وهاتان الأخيرتان بمعنى النصيحة

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٤/٣٨٩ - ٣٩٠. مادة: «سير».

(٢) الوسياني، السير: ١/١٤. تحقيق: د/عمر سليمان. تقديم: الشيخ أحمد بن سعود السباني.

(٣) هي رسالة في نظام حلقة العزابة بعد أبي عبد الله محمد بن بكر في ق: ٦٧ تحقيق: مسعود مزهودي ومطبوعة.

(٤) الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب: ١/١٧٢.

(٥) أنظر المبحث الثاني من هذه المداخلة.

(٦) الجعيري، العلاقة بين إباضية المغرب وإباضية البصرة وعمان: ١٢٨.

والإرشاد، وأما في مصطلح التاريخ فنجد عنوان كتاب: «تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان»^(١).
المطلب الثاني: تعريف مصطلح: «العزابة».

وأما العزابة فهي في اللغة من عزب يعزب، بمعنى: ذهب وغاب. قال الله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ [فاطر: ٣]، أي: لا يغيب عنه ولا يبعد عنه. وهي بمعنى: أبعد كما ورد في لسان العرب^(٢). وأخذ منها مصطلح: «العزابة» التي هي بمعنى: اعتزال عوائق الدنيا والتفرغ لحفظ القرآن الكريم والعلوم الإسلامية والتدريب على الأخلاق الحميدة داخل الحلقة. يقول أبو عمار عبد الكافي: «أصل العزابة: اشتقاقها من العزبة والعزلة والغربة والتصوف والتهجد على رؤوس الجبال»^(٣). والحلقة: هي الجماعة التي تشغل بتبليغ العلم للطلبة أو الذين يتلقون العلم عن أعضاء الحلقة^(٤). ويقول الدرجيني: «وأهل الحلقة صنفان أمر، وهما: الشيخ والعريف. والمأمور: هم الطلبة على مختلف أعمارهم»^(٥). ثم يضيف الدرجيني في ضبط الوصف العملي لهذه الفئة من المجتمع قائلاً:

«العزابة واحدهم عزابي، وهذه اللفظة استعملت لقباً لكل من لازم الطريق، وطلب العلم وسير أهل الخير، وحافظ عليها وعمل بها، فإن أحسن جميع هذه الصفات سمي عزابياً، وإن حافظ على السير والعمل فقط سمي به، وإن حصل العلم دون السير والعمل بها والمحافظة عليها لم يسم بهذا الاسم»^(٦).

ثم تطورت هذه الكلمة فأصبحت تعني الرجال الأتقياء المكلفين بقيادة المجتمع الإباضي في شمال إفريقيا.

(١) هو كتاب مطبوع صنّفه الشيخ عبد الله بن حميد السالمي يجمع فيه تاريخ عمان في جميع العصور.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ١/٥٩٦. مادة: «عزب».

(٣) أبو عمار، سير أبي عمار: ١٢ - ١٣.

(٤) الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب: ١/٤.

(٥) الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب: ١/١٧٣.

(٦) المصدر السابق: ٣/١.

المطلب الثالث: ترجمة مختصرة عن واضعي نظام التربية والتعليم:

لقد تعاون على رعاية شؤون التربية والتعليم في شمال إفريقيا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات عملوا في مختلف العصور على تبليغ أمانة الإسلام كما تلقوها عن الصحابة الأوائل مع تنوع في الطرق والوسائل الممكنة لذلك، فنجد في هذه: «السيرة» التي نحن بصدد دراستها، أو: «سيرة حلقة العزابة» أو: «السيرة المسورية البكرية» ثلاثة أسماء لامعة نذكر منهم:

١- الشيخ أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور^(١)

هو العلامة الشيخ أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور يسجا بن يوجين البهراسني من علماء القرن: (٤- ٥ هـ) تعلم عند والده الشيخ أبي مسور وعند أبي خزر، وبعد تأسيسه لحلقة العلم في جزيرة جربة بالجامع الكبير الذي أسسه والده ثم أتمه بعد أن توفي والده واصل فيه الشيخ أبو زكرياء رسالة والده في التدريس مع ثلة من رفاقه العلماء مثل: الشيخ محمد كموس، والشيخ أبي عمرو النميلي، وأبي صالح البهراسني^(٢).

وكان من شدة اهتمام الشيخ أبي زكرياء فصيل بتلاميذه في الحلقة كان ينفق عليهم من ماله الخاص فيعلق النقود في ألواحهم، أو يضعها في أوعية دفاترهم، وكان الطلبة يتوافدون إليه من مختلف المناطق الإباضية ويمكثون عنده إلى نهاية فترة التعليم، وكان الناس يقصدونه للفتوى والتوجيه والإرشاد والصلح لما كان يمتاز به من أخلاق عالية وتمكن في الفقه والأحكام.

وقبل وفاته اهتم بهذه الرسالة النبيلة لتتواصل من بعده ولا تنقطع على يد ابنه زكرياء ويونس^(٣) وابن أخته أبي بكر بن يحيى أن يتوجهوا إلى تلميذه أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني ويطلبوا منه أن يجلس لتدريسهم في حلقة علمية خاصة فأسس التلميذ النجيب هذه الحلقة على خطى شيخه فأصبح نظام هذه المدرسة يدعى: «السيرة

(١) جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية: ١٦٢/٢. رقم: ٣٥٠.

(٢) الشيخ سالم بن يعقوب، تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلمية: ٩١.

(٣) الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب: ١٦٩/١.

المسورية البكرية» ورحل الشيخ أبو زكرياء بعد سنة ٤٢٠هـ وهو مطمئن على حياة الرسالة العلمية من بعده رحمه الله وأرضاه وجعل الجنة مثواه.

٢- الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر^(١)

هو العلامة المربي مؤسس نظام حلقة العزابة الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطاني النفوسي ولد في مدينة فرسطاء بجبل نفوسة سنة ٣٤٥هـ تعلم في فرسطاء وجربة والقيروان عند علماء أفذاذ منهم الشيخ: أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور في المسجد الكبير حتى كلفه شيخه بتأسيس حلقة للتربية والتعليم فاستجاب لنداء الواجب بعد امتناع كبير، فأسس هذا النظام في مسجد المنية بتقيوس جنوب تونس، ثم قام بتطبيقه في مدينة تقرت جنوب شرق الجزائر عندما أسس مدرسة في غار تينسلي بأجلو سنة: ٤٠٩هـ/ ١٠٢٠م فأصبح نظامه التربوي يعرف بـ: «سيرة حلقة العزابة» بعد أن كان يعرف بـ: «السيرة المسورية البكرية».

وقد توافد إليه الطلاب من جميع أقطار المغرب الكبير، كما اشتغل برعاية المجتمع الإباضي يقومه نحو الجادة إلى أن توفي سنة: ٤٤٠هـ/ ١٠٥٠م رحمه الله وأرضاه وجعل الجنة مثواه.

٣- أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي^(٢)

هو العلامة الأصولي أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي القابسي من ناحية تمولست^(٣) من قبيلة مزاة التي كانت تعيش في قابس جنوب تونس. ولد حوالي سنة: ٤٠٠هـ وتعلم عند مشايخ كثيرين منهم: الشيخ محمد بن بكر الفرسطاني، وأبو زكرياء يحيى بن ويجمن، وزكرياء ويونس ابني فصيل بن أبي مسور اليهراسني الجربي^(٤)، وكان الشيخ أبو الربيع كثير الترحال مع الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر مع رفاقه في مدرسته

(١) جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية: ٣٦٨/٢. رقم: ٨٠٣.

(٢) جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية: ٢١٥/٢. رقم: ٤٧٢.

(٣) محمود الأندلسي، التحف المخزونة: ١٧. (مرقون).

(٤) أبو زكرياء الوارجلاني، السيرة وأخبار الأئمة: ٢٦٩.

المتنقلة عبر مناطق الإباضية بشمال إفريقيا خلال فصول السنة، حتى كان من منظمي رحلة الشيخ ورعاتها في منطقة تمولست^(١).

وأول ما بدأ التدريس هو تنفيذ اقتراح ورد من حلقة الشيخ أبي محمد ويسلان في الجامع الكبير بجربة أن يقبل أبا الربيع طالباً في الحلقة إذا قبل الشرط الذي يكلفه القيام بتدريس علم الكلام لطلاب المدرسة^(٢). وطبعاً بهذه الاستجابة يعتبر قد واصل رسالة مدرسة شيخه أبي عبد الله حتى اضطر أن يضم طلابه في غار ويدرسهم بالتناوب^(٣) في قلعة بني علي بجلال زنزفة لضيق الغار وكثرة رواد حلقاته.

وقد أحيى سنة الزيارة والرحلات مثل شيخه فقد نظم رحلات إلى وارجلان وجنوب تونس وجزيرة جربة. وبالتالي يكون في جميع العلوم التي يبتها لطلابه يعبر عن آراء شيخه العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفرستاني رحمه الله ولذلك نجد في كتبه التي ألفها يقول: وسألت الشيخ...، ويقول الشيخ...، ونجد ذلك في كتابه: «التحف المخزونة»^(٤) وكتاب «السير»^(٥) الذي سوف نلخصه في المبحث الثاني. ولا يزال جاداً في رسالته النبيلة إلى أن استشهد في مسقط رأسه^(٦) تمولست سنة: ٤٧١ هـ، وقيل: دفن بوارجلان رحمه الله وأرضاه وجعل الجنة مثواه

• المبحث الثاني:

نظام التربية والتعليم في القرن: ٥هـ

لقد اهتم المؤرخون من كتاب السير بسرد أنظمة التربية والتعليم في مختلف العصور التي يؤرخون لها سواء كانت السيرة لمجتمع كبير أو لشخصية معتبرة حتى يظهر الغث من السمين

(١) أبو زكرياء الوارجلاني، السيرة وأخبار الأئمة: ٢٥٧.

(٢) الجعيري، شخصيات إباضية: ١٥٧.

(٣) محمود الأندلسي، التحف المخزونة: ٣٢. (مرقون).

(٤) قام بتحقيق الكتاب ووضع دراسة عليه في أكثر من: ٩٠٠ صفحة، وهي رسالة دكتوراه مرقونة قام بإعدادها محمود الأندلسي إلا أن العناية عجلت به قبل أن يناقش.

(٥) لقد حققه الأستاذ: مسعود ج سعيد سنة: ١٩٩١م.

(٦) أبو زكرياء، السيرة: ٢٧٦/١ - ٢٧٧.

في هذه الحقبة التاريخية وأسباب ذلك إيجاباً وسلباً، ولا شك أن الهدف من ذلك هو إعداد القدوة الصالحة في النجاح والتحذير من أسباب الإخفاق سواء في الحياة الاقتصادية أو النفسية أو العائلية أو الاجتماعية أو الثقافية أو السياسية. وأحسن نظام شاهده في هذه السير المغربية هو سرد تاريخ نظام حلقة العزابة في شمال إفريقيا وسبب تأسيسه وتفصيل قوانينه داخل الحلقة وخارجها سواء ما كان من أمر التلاميذ أو المشايخ وأعاونهم خلال فترة التكوين أو بعدها.

ولعرض هذا النظام وأبعاده الحضارية قسمنا المبحث إلى ثلاثة مطالب، ففي المطلب الأول: تعرضنا فيه لأهمية التربية والتعليم في الحضارة الإسلامية. وفي المطلب الثاني: شرحنا قوانين حلقة العزابة. وأما في المطلب الثالث: فقد شرحنا آثار هذا النظام وأبعاده الحضارية في المجتمعات المغربية التي اعتمدت هذا النظام في مدارسها العلمية آنذاك مما أورده الدرجيني في طبقاته، والبرادي في جواهره، والوسيان في سيره، والمزاتي في سيره.

المطلب الأول:

أهمية التربية في الحضارة الإسلامية:

لقد أشادت نصوص القرآن والسنة كثيراً بأهمية التربية والتعليم في حياة المجتمع المسلم عموماً وحياة الفرد المسلم خصوصاً، قال تعالى في معرض الاعتراف بحقوق الوالدين: وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا [الاسراء: ٢٤]. وقال أيضاً عن فضل الرسول محمد على أمته: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [الجمعة: ٢] ويزكيهم من معانيها ويربيهم.

وفي معرض التحدث بنعمة الله تعالى يقول الرسول: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي» [المقدسي: ٢٧]. ويقول الرسول وهو يحث المسلمين على التنافس في التربية قائلاً: «مَنْ أَوَى بِنَيْمٍ اللَّهِ وَقَامَ بِهِ احْتِسَابًا لِلَّهِ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا» [الربيع: ٦٦٢]. وقال أيضاً: «مَنْ عَالَ ثَلَاثَ بَنَاتٍ فَأَدَّبَهُنَّ وَزَوَّجَهُنَّ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ فَلَهُ الْجَنَّةُ» [أبوداود: ٥١٤٧].

وقد كان الرسول يودب الصحابة الصغار على الخير والصلاح قائلاً لابن عباس مثلاً: «يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِنْ مِمَّا يَلِيكَ» [البخاري: ٤٩٨٢]. ويحرض المسلمين على مواضيع التربية قائلاً: «أَدَّبُوا أَوْلَادَكُمْ عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: حُبِّ نَبِيِّكُمْ وَحُبِّ أَهْلِ بَيْتِهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّ

حَمَلَةَ الْقُرْآنِ فِي ظِلِّ اللَّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ» [المنافى: ٢٩٢/١].

ولا تكون تلاوة القرآن صحيحة إلا بالتعليم الصحيح للتلاوة الصحيحة قال رسول الله: «عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يُنْبَغِي أَنْ يُتَعَلَّمَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ هُوَ» [الربيع: ٣]. وقد أرشد الصحابة إلى تعليم القرآن قائلًا: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» [البخاري: ٤٦٦٤].

والعلم الذي يأخذه الإنسان لا يحده زمان ولا مكان فقال: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ» [الربيع: ١٨]. فقد تعلم عنه الصحابة كباراً وصغاراً القرآن والسنة حتى أصبحوا هداة مهتدين يشيعون الفضيلة بمعاملاتهم التي تربوا عليها قبل أفوالهم في جميع البلاد التي رحلوا إليها عبر العالم فأصبحوا محل اقتداء واهتداء من جميع من عاصروهم من التابعين المحسنين، فأسسوا مدارس وحلقات في المساجد لتبليغ هذه السنن الحميدة إلى الخلف من بعدهم، حتى لا تنقطع هذه الأخلاق العالية عبر الأجيال المتلاحقة. وبعد المسجد النبوي في المدينة المنورة بنيت جامعات وجوامع ومساجد في البلاد المفتوحة يؤمها الطلبة والباحثون من مختلف الديانات والمذاهب لرعاية عملية التربية والتعليم التي تعتبر وسيلة ضرورية لتحسين الفرد والمجتمع من الأمراض النفسية والاجتماعية والفكرية ويضمن له النمو السليم في جميع مجالات الحياة.

ومن خلال القراءة السريعة لمختلف السير المغربية نجدها لا تخلو في كل عصر من شيخ أو مسجد أو مدرسة ترعاها العزابة لمثل هذه المهمة النبيلة سواء كان ذلك في جربة^(١) أو جبل نفوسة^(٢) أو وارجلان^(٣) أو وادي ريغ^(٤) أو وادي ميزاب^(٥) أو غدامس^(٦) أو فزان^(٧).

(١) جربة: جزيرة جنوب شرق تونس.

(٢) جبل نفوسة: هو سلسلة جبال تسكنها قبائل أمازيغية غرب ليبيا.

(٣) وارجلان: أو ورقلا إقليم واسع في شرق صحراء الجزائر.

(٤) وادي ريغ: هو إقليم واسع جنوب وارجلان في شرق صحراء الجزائر.

(٥) وادي ميزاب: أو بلاد الشبكة منطقة وجود الإباضية شمال الصحراء الجزائرية.

(٦) غدامس: واحة صغيرة تقع في مفترق الطرق في الحدود الليبية التونسية الجزائرية.

(٧) فزان: هو شريط صحراوي يمتد جنوب ليبيا من حدود مصر إلى حدود الجزائر.

وقد ارجع الشيخ علي يحي معمر نجاح هذه المدارس^(١) في رسالتها إلى ثلاثة عوامل أساسية هي :

١ - وجود الأقسام الداخلية التي تأوي الطلبة.

٢ - القيام برحلات مدرسية استطلاعية لمرافقة الطلبة وتدريبهم على الحوار مع الآخرين واكتشاف مواهبهم في الميدان.

٣ - توفير التعليم الصحيح والتربية السليمة للمرأة مثل الرجل وعدم التمييز بينهما في ذلك حتى لا يؤتى الحذر من مأمته.

وأنا أضيف له عاملين أساسيين هما:

٤ - التنظيم والتخطيط المحكم والتنسيق بين هذه المدارس المتباعدة في الصحراء.

٥ - تأليف الكتب والمراجع المفيدة في مجال الأخلاق والتربية مثل: كتاب تبیین أفعال العباد للشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرستاني (ت: ٥٠٤ هـ). وكتاب السيرة وأخبار الأنمة للشيخ أبي زكرياء يحي بن أبي بكر الوارجلاني (ت: ٤٧١ هـ). وكتاب السير لأبي الربيع سليمان بن خلف المزاتي (ت: ٤٧١ هـ).

المطلب الثاني:

سيرة حلقة العزابة في شمال إفريقيا

إن الدارس لكتب الطبقات والسير ليلفت انتباهه وجود اهتمام بالغ بكتابة سيرة حلقة العزابة ونظامها في التربية والتعليم خلال القرن الخامس الهجري، وهذا دليل على الآثار الإيجابية التي تركتها هذه السيرة الحميدة في مختلف مجالات الحياة بشمال إفريقيا، كما تعتبر هذه السيرة قمة الفكر التربوي عند الإباضية، فما يزال هذا الفكر يرعاه المشائخ في مدارسهم العلمية ويطورونه تطويراً يقتضيه الزمان والمكان حتى انحسر نشاطه اليوم في الجزائر كنظام تسيير مجتمع لا كنظام خاص بالتربية والتعليم كما رسم نظامه أول مرة في مسجد المنية بمدينة تقيوس في منطقة

(١) علي يحي معمر، الإباضية في ليبيا: (ق: ٢): ٦٢/٢.

الحامة بالجريد التونسي.

وللتعريف على هذا النظام أترككم سادتي العلماء مع المؤرخ الدرجيني والبرادي والمزاتي فيما خلدوه من تفاصيل هذا النظام التربوي الفريد. يقول أبو العباس أحمد الدرجيني^(١):

أ - مواصفات العزابي:

١ - العزابي: هو الذي اعتزل عن دناءة الأجلاف الدنيويين، وانضم إلى سلك المتدينين

٢ - يتجرد عن طريقة أهل الدنيا بحلق شعر رأسه ولا يتركه يطول أبداً

ب - لباس العزابي:

١ - لا يلبس العزابي لباساً مصبوغاً إلا البياض، ولا بأس بعلم الطرفين والطرز ما لم يتفاحشاً.

٢ - ثم إن اقتصر على عباءة أو ملحفة لم يشنه ذلك ولم يعبه بل ذلك به أليق، وإن لبس ذلك على قميص كان أكمل ما لم يكن مبتدئاً.

٣ - لا سبيل على اقتصاره على قميص، أو قميص دون اشتمال أو التحاف أو ارتداء.

٤ - إن اعتَمَّ فالتلّخي على ما جاء في الأثر، وليس لبس العمامة بضربة لازب، بل لا بأس باستغنائه عنها.

٥ - من اقتصر على العباءة أو اللحاف غطى رأسه وألقى الطرف الأعلى من هدب حاشية الجانب الأيمن على العاتق الأيسر، لا يلقي الهدب كله على العاتق الأيسر فإن ذلك مؤد إلى انكشاف العورة.

أ - أصناف الناس في الحلقة:

٦ - أهل الحلقة صنفان: أمر ومأمور.

(١) الدرجيني، طبقات المشايخ: ١/ ١٧٢ - ١٨٤، البرادي، الجواهر المنتقاة: ٢٢٦ - ٢٣٥.

ب- أنواع المسيرين في الحلقة:

- ٧- الأمر اثنان: شيخ الحلقة أو مستنابه، والعريف
- ٨- العريف اثنان: منفرد وغير منفرد.
- ٩- المنفرد اثنان: عريف أوقات الختمات والنوم.
- ١٠- عريف العرفاء (وهم: حملة القرآن يكون منهم من يكتب عليه طلبه القرآن الواحد ويصحونها ويحفظونها) فهؤلاء لا يحصون عدداً.
- ١١- العريف على أوقات الدراسة ربما كان واحداً وربما أكثر، فهؤلاء على قدر الاحتياج إليه.

ض- أنواع الطلبة في الحلقة:

- ١٢- المأمور ثلاثة: طلبة القرآن، وطلبة فنون العلم، والعاجزون.
- غ- مهام شيخ الحلقة: فالشيخ يتعلق به أشياء:
- ١٣- الجلوس لطلبة فنون العلم في وقت معلوم ليأخذوا عنه فيه الدرس.
- ١٤- الجلوس بإثر الختمات للجواب على الأسئلة في أي فن كان، وليذكر التلاميذ فيما حصلوه قبل ذلك، فيستفيدون ويستفيد من حضر.
- ١٥- يختص غداة الجمعة بزيادة شيء من الوعظ إن أمكن.
- ١٦- الاستفتاح وهو قيامه في الثلث الأخير من الليل، أو في الربع الأخير منه فيأتي الشيخ إلى موضع الاستفتاح فيستعيز وييسمّل ويقرأ فاتحة الكتاب ويبتدئ من حيث انتهى مجلس الاستفتاح من القرآن في الليلة التي قبلها.
- ١٧- يهب كل نائم فمنهم من يصير معه في المجلس، ومنهم من يخرج فيدرس وحده.

١٨- إذا أذن مؤذن الصبح قطعوا القراءة ويدعون كالعادة من بعد العشاء.

١٩- أن يجمعهم يوم الجمع، وذلك يوم الإثنين والخميس فيعظ ويذكر ويحذر، ويورد أمثالاً حكيمة وحكايات زهدية، ثم يفحص جميع من حضر فيسأل عن أحوالهم واحداً فواحداً.

٢٠- يتفقد العرفاء فمن حمدت أحواله حمد الله وشكره على فوزه، ومن عيب عليه شيء من أحواله فإن كان صغيراً أقيم إلى زاوية معروفة بأن تكون موضعاً لتأديبهم، ثم يجتهد في عدد ما يجلد تأديباً، والكبير إلى الخطة^(١) والهجران.

٢١- إذا قدم قادم من بلد قريب أو بعيد فلا يخلو إما أن يكون عابر سبيل أو طالباً للإقامة والدخول في زمرة أهل الحلقة، فيتشاور الشيخ في كلا النوعين، ويستأذن في شأنهم.

٢٢- كان عابر سبيل كان له حظ فيما فتح الله عليه من المأكول غير المدخر، فيفتح له ذلك، ولا يحفز عليه في ملازمة الأوقات، ولا حظ له في شيء من الفتوح التي تدخر لا من طعام ولا من غيره.

٢٣- إن كان يريد الدخول في الحلقة استؤذن الشيخ في شأنه فيكشف الشيخ عن أحواله، وعما كان في الموضع الذي قدم منه.

٢٤- إن أطلع على صلاح أحواله أذن له في الدخول لا غير، فيكون من أهل الحلقة له مالهم وعليه ما عليهم.

٢٥- إن أطلع على نقیصة وأحوال ذمیمة طرده لا غیر.

٢٦- إن تعذر لبعده داره الإطلاع على الأحوال أو اختلفت في صلاحه وفساده الأقوال توقف حتى يستبرئ ويستعلم حميدها من ذميمها وصحيح الأقوال من سقيمها،

(١) الخطة: عملية إقصاء الفرد العاصي من حلقة العزابة في حبس معنوي داخل خط مربع مرسوم على الأرض.

فإن اطلع على الخير الحقه بأهله، وإن اطلع على شر أفضاه إلى نوعه وشكله.

٢٧- حكم هذا الغريب في مدة الاستبراء حكم المسافر عابر سبيل في كونه لاحظ له في القسم من الفتوحات المدخرات والعين، وكونه لا يحفز عليه، وكونه لا يمنع الماكول.

٢٨- إن كان تائباً مبتدأ أذن له.

٢٩- إليه تولية عرفاء الأوقات والإذن فيما يشتري وما يباع ويدخر من الأوقات.

٣٠- الإذن في قسمة ما يفتح الله من رزق مما يدخل عليهم أو هو من اعتلالات الأوقاف ومتى يقسم وعلى من يقسم.

٣١- مما ينبغي لشيخ الحلقة أن يتفقد أحوال التلاميذ فمن كان منهم موسراً أنظر له فيمن يخدم له ما يقتات به من الطعام، ومن كان مقترراً أنظر له فيمن يتبرع له بالخدمة والإطعام.

٣٢- الحكم بين المختلفين والمختصمين من التلاميذ فيأخذ المظلوم من الظالم وينصف المحسن من المسيء.

ك- مهام العرفاء: عريف الختمات وأوقات النوم:

٣٣- العريف المكلف بالختمات وأوقات النوم يتعلق به ارتصاد حزب الغداة في المجلس الذي تعقبه المذاكرة.

٣٤- إذا كمل الحزب أو كاد دعا جميع من في المجلس يؤمنون على دعائه، فيدعو أسنهم ويدور الدعاء.

٣٥- إن انقضى الدعاء وت خلف أحد فالخطئة.

٣٦- إذا كان الضحى نادى بنوم الهاجرة فينامون.

٣٧- إذا ناموا وتكلم أحد أو تحرك بحيث يؤدي النائمون فالخطئة.

٣٨- إن أبى أحد أن ينام بغير عذر وكان تركه النوم ذريعة إلى امتناع القيام بالليل حتم عليه نوم القائلة فإن امتنع فالخطئة.

٣٩- عند غروب الشمس وبعد صلاة المغرب نادى بالختمة فيجتمعون على أكبرهم فيدير معه من يليه في السن والمعرفة.

٤٠- إن قلوا ثلاثة وإن كثروا فعشرة لا يجاوزونها، والوسط بين التحديدين أعدل.

٤١- إذا استداروا ذكروا الله وقرأ قارئان آيات من القرآن ثم يدور الدعاء كالعادة ويؤمن من خلفهم، ومن تخلف فالخطئة.

٤٢- إذا صلوا العشاء وقرأوا من القرآن ما يسر الله وحان وقت النوم ما لم تكن من ليالي الإحياء نادى بالدعاء. وهي ختمة ليست بأكيدة في أكثر الأقطار، والمتعارف أن حضورها على الكفاية، فيدعون دعاء خفيفاً.

٤٣- إذا دعوا فالمستحب الذي وضعه الشيخ أبو عبد الله أن يكون بيد أفصحهم كتاب، إن كان في الوعظ فهو أولى وإلا ففيما أتاح الله تعالى، فيقرأ فيه قليلاً بحيث يستمعون وهم مجتمعون أو لا يجتمعون ثم يدعو وينادي بالنوم.

٤٤- إذا ناموا وتكلم أحد أو تحرك فالخطئة، إلا أن يكون في مطالعة كتاب بعيداً عن النائمين فما على المحسنين من سبيل.

عريف أوقات الطعام: والعريف المكلف بأوقات الطعام له حدود يقف عندها وأشياء له متسع فيها:

٤٥- إن الطعام لا يخلو أن يكون في موضع مألفهم أو خارجاً، فإذا كان خارجاً لا يخلو أن يكون في محل عزابي أو محل دنيوي.

٤٦- إذا كان في محل دنيوي حفز عليهم كل الحفز في ملازمة التحفظ وإفراط الحذر.

وجعل الشعار بينهم من القول (حسان) وربما قال: (حسان بن ثابت) أي: حسنوا آدابكم وأخلاقكم، وهي كلمة يقولونها مهما يدخل فيهم غير الصَّنْف، تحذيراً أن يطلع على ما ينتقد منهم.

٤٧- إن كان الطعام في محل عزابي لم يتحفظوا كل التحفظ بل يميلون إلى ضرب من الإدلال، وينبسطون بعض الانبساط، ويحسنون الظنون.

٤٨- لا يحتشمون في اقتراح أطيب الطعام أو زيادة الإدام ونحو ذلك، في دار العزابي.

٤٩- المتعلق بالعريف في كلا المجلسين أن يرتب جلوسهم، فإذا غاب أحدهم في عذر ذكرهم بأن يستوصوا عنه، وإن كان في غير عذر فالخطئة.

٥٠- إذا اعتدل جلوسهم استدعى بماء غسلوا بعد اشتغالهم الشملة المتعارفة عند حضور الطعام، وهو أن يخرج طرفي توبه على صدره بعد أن يدير كل طرف فوق العاتق الذي يليه، فتبرز اليدان ولا ينكشف شيء من الجسد.

٥١- يأكلون أكلاً معتدلاً، فمن أكل أكل نهم، أو أكل ذي كبر، عيب عليه في غير ذلك الموضع، ونهى وقبح وحذر أن يعود، فإذا عاد فالخطئة.

٥٢- إذا طعموا تفقدتهم العريف، فإذا وجد منهم من يده في الطعام انتظره حتى يقضوا حاجتهم منه.

٥٣- إذا فرغوا أذن بالإنصات إلى الدعاء ثم يأذن أسن من حضر فيدعو.

٥٤- إن كان الطعام في موضع مالفهم فلا يخلو أن يكون مما لا بأس بقسمته أو مما ينبغي فيه مشاركة الأيدي في المؤكلة^(١) (٣٥).

٥٥- لا يخلو أن يكون ممن يقدر على معالجته وحده أو يحتاج فيه معينا، فإن كان مما يحتاج فيه معينا استعان بمن استحسن.

(١) البرادي، الجواهر: ٢٢٩.

٥٦- إذا استعان بأحد فامتنع من غير عذر فالخطة.

٥٧- لكن ينبغي له أن لا يخص بذلك من يعلم منه كثرة الانقطاع إلى المدارس والمطالعة فيضع الشيء في غير موضعه.

٥٨- إن كان مما لا بأس بقسمته قسم على ما جرى به العرف في ذلك القطر.

٥٩- الذي تصلح فيه المواكلة إما متكرراً معلوماً وإما نادراً، فالناذر يؤكل لا شريط إلا إطراح الحرص والشره والترتيب في ذلك إلى العريف.

٦٠- المتكرر كل يوم كالتمر والفاكهة في أوقاتها فترتيب ذلك أيضاً إلى العريف.

٦١- المتكرر من الفاكهة لها وقتان: أحدهما وقت الضحى بعد استكمال اكتتاب الألواح وتصحيحها. والآخر بعد صلاة العصر، بقدر ما يقرأ فيه قارئ القرآن اللوح مرة أو مرتين.

ج- وقت المراجعة والتصحيح:

٦٢- إذا استداروا طوائف فإن من شروط ذلك الحضور أن يكون في كل طائفة عريف يكون أسنهم أو أنبههم. لا تعدوا عرافته ذلك المجال.

٦٣- يلقي ثلاث مسائل في أي فن كان ثم كذلك ميامنة حتى يتم الدور.

٦٤- إن وقف أحد أمسك المبتدئ يده ومنعه الأكل تأديبا وردعا وتحريضا على تحصيل الفوائد.

٦٥- إن أتى بشيء قبل منه ولو بعد حين وأطلقت يده.

٦٦- من شأن هذين الوقتين أن يتفقد العريف الألواح، وإذا صحح آخر لوح منها دعا إلى الطعام، وبعد العصر بقدر ما ذكرناه.

٦٧- فمن أجاب أكل ومن تأخر فلا إثم عليه فإنما ذلك على الاختيار.

٦٨- إن كانت نافلة^(١) فينبغي للعريف أن يعرف بها، لا يستخفي النطق بها، فقد يكون من العزابة من له شوق إلى تلك النافلة.

٦٩- إذا امتنع بعد هذا ممتنع لم يتعلق منه بالعريف ذم.

ط - عريف الدراسة: نظام حفظ القرآن.

٧٠- العرفاء من حملة القرآن ترتبط بكل واحد منهم جماعة من أصحاب الألواح طلبية القرآن. يملئ عليهم ويصحح ألواحهم ويأخذهم بالحفظ عن ظهر.

٧١- الجماعة التي ترتبط بكل حافظ يكون أكثرهم عشرة وأقلهم اثنين، وهذا حسب الاختيار، وفي الأمر الأشهر العام.

٧٢- أما مع الضرورات وعدم الرجال فلا حد لكثرتهم ولا لقلتهم.

٧٣- إذا كان وقت الضحى وتأهبوا للكتب كان لكل جماعة نقيب من أنفسهم يحفز على أصحابه ويجمعهم.

٧٤- يستدعي العريف فإذا حضر استأذنه ميامنة في حفظ ما كتب أمس، ثم يحفظون على اليمين فإن حفظوا كلهم استأذنه في الاستملاء وأملئ عليهم.

٧٥- إن توقف أحدهم حين الحفظ فإن كان مبتدءا أقبل له خمس عشرات، وإن كان فوqe إلا أنه في أول قلم أقبل له ثلاث، وإن كان في الإعادة فعشرة واحدة.

٧٦- فمن زاد فعلى ما يجتهد فيه العريف والمعروف الأشهر أنه إن كان صغيرا فالزاوية والجلد، وإن كان كبيرا فالخطبة والطرء.

ظ- متابعة التلاميذ وضبطهم:

٧٧- إذا ارتسم أحد التلاميذ بعريف فليس له أن ينتقل عنه إلى غيره إلا بإذنه.

(١) النافلة: أي صدقة تبرع بها أي أحد من غير الطعام المعتاد في المدرسة.

٧٨- إن تخلف أحدهم بغير عذر حتى يحفظ أصحابه ويكتبوا سطرًا أو بعض سطر فالتأديب قد تقدم تفصيله. وإن كان قبل ذلك وبخه العريف ثم صفح عنه وعنهم.

٧٩- عليه أن يختبرهم أحياناً فيما قد حفظوه ليعلم كنه اشتغالهم ورغبتهم واجتهادهم.

٨٠- إن وجد حفظاً ركيكاً فإن كان ذلك لقلة في فهم التلميذ وضيق باعه، وعلم أن ذلك الأمر كان سماوياً عذره وأمره بالإعادة.

٨١- إن كان التلميذ ذكياً فهماً وعلم أن ذلك لحب البطالة وترك الدراسة اجتهد في تعزيره.

٨٢- يسأل الشيخ العريف عن أحوال التلاميذ حين التمهيد يوم الاجتماع فلا ينبغي له أن يقول إلا ما علم من حال كل واحد منهم.

ك- عريف أوقات الدراسة:

٨٣- أما عرفاء أوقات الدراسة فيتفقون أصحاب الألواح بين الظهر والعصر.

٨٤- إن أبطأ أحدهم إبطاء لا يعذر فيه فالخطة.

٨٥- إن اشتغل بما يلهيه عن قراءة لوحه فالخطة.

٨٦- إن سمعه العريف يقرأ خطأ وكان مع ذلك لإهماله بتصحيح لوحه فالخطة.

٨٧- إن أبطأ التلاميذ بين المغرب والعشاء أو غاب أو اشتغل بما يلهيه أو يشغل سواه فالخطة.

٨٨- إن قام إلى الطعام اختياراً أو إلى نجوى فالخطة.

٨٩- في وقت الاستفتاح إن نام أو تناوم أو اشتغل بغير الدراسة ولم يكن له عذر فالخطة.

٩٠- إن غاب التلاميذ بين صلاة الجمعة والعصر عن الحضور لاستماع قراءة كتاب المواعظ فالخطة. وقد قلنا إلا ثلاثة على ما فصلنا.

ل- طلاب الحلقة ومراتبهم: طلبه القرآن ومقاعدهم:

- ٩١- طلبه القرآن يقرأون ألوحهم بين الظهر والعصر حتماً وبعد العصر استحباباً.
- ٩٢- صفة هينتهم حينئذ أن يشتملوا فلا يظهر من أجسادهم شيء ويسندوا ألواحهم إلى الأساطين^(١)، ويقابلونها غير مستندين ولا مكثرين من الإلتفات.
- ٩٣- بين العشاءين يجلسون في وسط الساحة غير مستندين وقد أبيع لهم الاسناد في غير هذين الوقتين إن شاءوا، والأفضل للأصغر ترك الإسناد.
- ٩٤- لا يتعرضون إلى ما ليس بشأنهم غير دراسة القرآن إلا ما قد عناهم من العبادات وفرائض الإسلام كالطهارات والصلاة والصيام وما أشبه ذلك.
- ٩٥- إن امتدوا إلى غير ذلك كره مشي الغراب مع الحمام على أنه من كان ذا فهم وقلب نكي وأعطاه الله قدرة على تحصيل هذا أو هذا فلا بأس في الزدياد من الخير.

م - طلبه العلوم:

- ٩٦- إما طلبه الأدب، فإن اتفق أن يكونوا أصحاب لوائح وصغار في السن فنبغي لهم التأسي بطلبة القرآن في ترك الاستناد.
- ٩٧- وأما أصحاب الكتب فشأنهم الاستناد إلى أركان المسجد والأبواب وإلى الأساطين وحيث يستحسن واستحسن منهم.
- ٩٨- لهم أن يجتمعوا للبحث والمذاكرة والمناظرة ما لم تفض إلى توغير الصدور، ويكون هذا دأبهم.
- ٩٩- لابد أن يكون لهم وقت معتاد يكون فيه الميعاد للحضور على الأساتذة ويؤدب من غاب من التلاميذ..

(١) الأساطين: جمع أسطوانة، وهي: السارية بين الأكواس.

١٠٠- يأخذ كل منهم درسه وهي دولته^(١)، على أستاذه، ويجعل ما يتلقنه خير ملاده ومعاده.

ن - منهج الأسئلة والأجوبة في الحلقة:

١٠١- إذا كانت ختمة غداة وحضر الشيخ فإن هنالك طرقاً كلها حميدة .. وذلك أنهم إما أن يتداولوا وضع السؤال فيبتدئون بالسؤال ميامنة فمن أفضى إليه النوبة وغاب اجتهد فيه.

١٠٢- إما أن يسأل أفصحهم لساناً وأكثرهم بياناً، وإما أن يسأل أشدهم احتياجاً لإسراع في ضرورة دعت ، أولنازلة وقعت.

١٠٣- إذا ألقى السؤال فإن كان الجميع حفيلاً بدأ فسأل الشيخ ثم على من يمينه فيعيده الثاني إلى الشيخ طلباً للتخفيف والاختصار.

١٠٤- إن كان الجميع دون احتفال سيما إن كانوا أمثال فإنه يدير السؤال أو يحيل كل مسؤول على ميامينه حتى يدور السؤال إلى الشيخ.

١٠٥- إن علم الشيخ أن في الجمع أكفى منه في تلك المسألة أذن له في الكلام فيها، وإلا تكلم بما عنده.

١٠٦- للسائل أن ينبهه إذا غفل ويذكره إذا نسي ويفتح له إن ارتج عليه، ويعترض إن احتاج إلى زيادة إيضاح أو علم من الحاضرين إرادة استزادة كشف، ثم يسأل كذلك من شاء ويجيب كيف شاء.

ص - كيفية الخروج من الحلقة:

١٠٧- من أراد القيام فلا يقوم حتى يستأذن من يليه، فإن أذن له قام، وإن لم يأذن له أقام.

(١) دولته: أي نوبته.

١٠٨- إذا حضر غير الصنف فيكره إدارة ما يستشنع من المسائل الشواذ التي تضل الغبي أو تجعله ينسب الرشد إلى الغي.

١٠٩- إذا هم الشيخ بالقيام ولم يستنقل تشييع من يختص به من طلبته ركع وركع أصحابه ركعات الضحى، ويشيعوه تكرماً له وتأنيساً به .

١١٠- إن ثقل عليه ذلك ركع وركعوا وودعوه ولم يشيعوه.

ع - الطلبة العاجزون وطرق معاملتهم في الحلقة:

١١١- أما العاجزون فأنواع فإشبههم حسيبهم فيعاقبهم أو يثيبهم، فمنهم الطرش والعميان والزمني والهارمون والأفهام القاصرة.

١١٢- ربما استعمل مستعمل فألحق نفسه بهؤلاء وفيه قدرة أو عنده لوجء بعض الغناء.

١١٣- فهذه الأنواع شأنهم الإصغاء والاستماع ليحصلوا الطرق والأخلاق ويظهروا التلهف والاستيقاظ.

١١٤- عليهم حفظ السيارات والمحافظة على الطرق والأوقات وإن أجهدوا أنفسهم وزادوا ظفروا ببعض ما أرادوا.

١١٥- أما الزمني والعميان فقد نطق بعذرهم^(١) القرآن، وأما القاصر والفهوم ، فمنهم القانط التارك للعلوم، ومنهم من اليأس عنده معدوم^(٢)..

١١٦- ينبغي أن تكون خدمة الطعام من هؤلاء الذين لم يفتح الله عليهم، ولا شرح للعلم صدورهم، لينفعهم بخدمة أهل الخير ويوفيهم أجورهم.

(١) قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْغَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [النور: ٦١].

(٢) ذكر الدرجيني في طبقاته: ١/١٨١ - ١٨٢ أمثلة من هؤلاء القاصرين الذين عاصروهم في حلقة وأرجلان عام: ٦١٦ - ٦٢٠ هـ.

ف - مواطن الراحة وأوقاتها:

١١٧- وقت الراحة والتصرف هو آخر النهار.

١١٨- يتصرف إلى المواضع التي لا ينكر التصرف فيها كمواضع المياه ومواضع الأشجار وأمثالها من الأماكن التي تتفرج فيها النفوس وتنفس فيها الصدور، فإن في ذلك إجماعاً للخواطر، وجلاء للنواظر.

١١٩- لا بأس في ذلك ما لم تكن هذه الأماكن معروفة بأن يستقر فيها مصادف الشبهات، كالنساء وأهل الخساعات، فلا سبيل حينئذ إليها.

١٢٠- الإكثار من التصرف في الطرقات والأسواق يكره، وإن دعت ضرورة ففي طريق نافذ ووقت لا يظن به ريبة.

١٢١- وقت الأكل لمعايشهم التي تختص بكل واحد منهم إذا صلى العتمة، فإما وحده و إما مع من توافق طابعهم طبعه ويشترط التخفيف وأن لا ينفصل إلا بعد الدعاء.

١٢٢- وقت تغيير المنكر متى ظهر، لا ينحصر إلى وقت، ويشترط تقدم الشيخ أو بإذنه، أو تقدم الأمتل.

د - اعتناء العزابة بالعبادات:

١٢٣- الأوقات المستحب فيها التأهب للصلاة معروفة وهو أن يكون بمقدار ما يستبرئ ويتوضأ ثم يدرك صلاة الجماعة، ويشترط بعد الأثر وإعداد المدر.

١٢٤- أوقات نوافل العبادات ليلاً ونهاراً معروفة فلا يحتاج إلى زيادة، فإن أصبح فخمس تسليمات بالليل ومثلها ضحى، هذا الأفضل، فإن زدت فلك ذلك، وإن نقصت فلا ذنب عليك.

١٢٥- لصلاة الليل شروط من إطالة القراءة، واختلاف في إسرارها وإعلانها، قيل: الإعلان أفضل إذ فيه إيقاظ النائمين، وقيل الإسرار أفضل لبعده عن رياء المخلوقين،

وهذا بحسب الأحوال - و الأولى إخفاء العبادات -.

١٢٦- الركعات التي تصحب الفرائض معلومة^(١).

١٢٧- أوقات الصوم المستحب كيوم الجمعة^(٢) ويوم قبله، وتاسع ذي الحجة، ويوم عاشوراء، و الثلاثة البيض من كل شهر وما أشبه ذلك.

ذ - سلوك العزابة مع العوام:

١٢٨- من آداب الطريق وأحوالهم أن لا يتكبر على متواضع، ولا يتواضع لمتكبر.

١٢٩- لا يخالط أهل الدنيا ولا يجالسهم إلا إن دعت ضرورة لا يوجد معها بُدٌّ.

١٣٠- يجلسون لكي يستفيدوا مصلحة لدينهم من علم أو عمل، والكبير أعذر في مخالطتهم من الحدث فإن الكبير أهل لأن يهديهم والحدث أهل لأن يضلون.

١٣١- من نهي عن الإكثار من ذلك فلم ينتبه فالخطبة.

١٣٢- ينبغي أن يعلم أن المؤاخذه على العثرات وإلزام الذنب على الخطيئات إنما هي بحسب أصحابها وهم طبقات، فالكبير المبتهل حسن به الظن، وحسن معه العبارة، و أدمج له تفسح زلته في اللطف.

١٣٣- إن كان من دونه في الطريق راسخ القدم شامخ القدر واخذته على الكبيرة والصغيرة، واستعظمت نقيره من الخطايا وقطميره.

١٣٤- إن يكن غير ذلك يجاف عن النقيير والقطمير واستكثرت من حسناته الشيء الحقيق، وسلكت معه سلك التأنيس لا التنفير، قرب قبيح من ذلك هو من هذا حسن. وكثيراً ما رأيت المشايخ يشبهون الصنفين بالماء واللبن.

(١) وهو يشير إلى سنة الصبح وسنة المغرب وصلاة الشفع والوتر.

(٢) صوم يوم الجمعة لم ترغب فيه السنة مثلما رغبت في اليوم الذي قبله وهو يوم الخميس منفرداً، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: «لا تصوموا يوم الجمعة إلا وقبله يوم وبعده يوم» [رواه أحمد عن أبي هريرة] وروى النسائي وأحمد من حديث جنادة قوله ﷺ: «لا تصوموا يوم الجمعة مفرداً»

ملاحظات وتقويم:

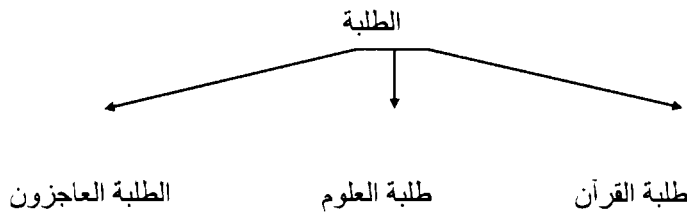
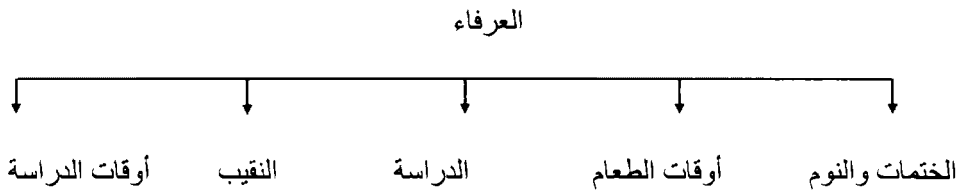
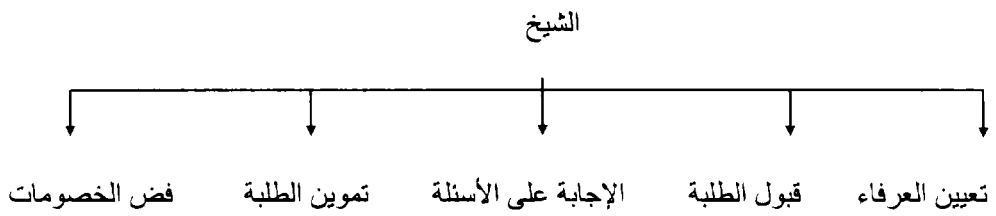
نشاهد من خلال هذه المواد ثراء غزيراً في الفكر التربوي الإباضي خلال القرآن ٥٥ الهجري و الدليل على ذلك هو عندما نقارنه بنظام التربية و التعليم في عصرنا هذا فلا نجد فيه اختلافاً كبيراً بينه وبين المدارس العلمية ذات الإقامة الداخلية للطلبة.

- ١- الشيخ يمثل المدير العام أو رئيس المؤسسة.
- ٢- عريف أوقات الدراسة يمثل مدير الدراسات.
- ٣- عريف الختمات وأوقات النوم يمثل المراقب.
- ٤- عريف أوقات الطعام يمثل مسؤول المطعم المدرسي.
- ٥- عريف الدراسة يمثل الأستاذ.
- ٦- النقيب يمثل المعلم المستخلف.
- ٧- تلاميذ القرآن يمثلون المرحلة الابتدائية.
- ٨- طلبة العلوم يمثلون المرحلة الإكمالية.
- ١- العاجزون يمثلون الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة.
- ٢- منهج الدراسة= الحفظ- الاختبارات- الحوار- القراءة والعرض- المذاكرة- المراجعة- التصحيح - توحيد اللباس - الرحلات المدرسية- تصنيف الطلبة- اختيار الصالحين- العطل المدرسية.

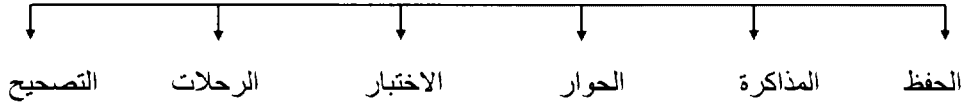
- ١- تموين عام للمؤسسة و تموين خاص لكل تلميذ.
- ٢- أوقات يومية وأسبوعية للراحة والاستحمام
- ٣- العقوبات = الجلد و التأديب- الخطبة- الطرد- الزاوية – الهجران.
- ٤- تركية النفس بالعبادات المختلفة و الوعظ.
- ٥- المتابعة الميدانية لأحوال الطلبة.

ولعل الملفت للانتباه في هذا النظام هو عدم وجود الجوائز والمحفزات المادية لنجاح الطلبة بينما العقوبات تكررت في أكثر من ٢٠ مرة، وربما توظيف الطالب في الحلقة كعريف هو الجائزة المحفزة. وربما كان الاعتماد على الثواب الأخروي هو الأهم والأكمل..

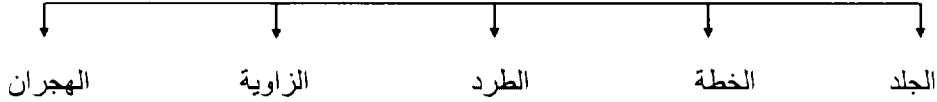
ومما يلفت انتباهنا سادتي العلماء هو عدم تحديد سنوات التعليم، ولم يتعرض لذكر أقسام تعليم البنات، رغم أنها موجودة في مجالس يعقدها الشيخ مع المجتمع النسوي خلال رحلاته المختلفة. كما أن هذا النظام لم يحدد السن الرسمي للدخول المدرسي في البداية.



المنهج



العقوبات



• أهمية هذه السيرة:

لقد توالى دراسات قيمة على هذا النظام لأهميته وأثاره الكريمة في المجتمع الإباضي بشمال إفريقيا نذكر منها:

- ١- إعادة نقله حرفياً من قبل الشيخ البرادي في كتابه الجواهر المنتقاة في ق ٩٥.
- ٢- وأما الشيخ أبو عمار عبد الكافي فقد طوره إلى نظام قيادة مجتمع في السير المنسوبة إليه.
- ٣- بينما الشيخ الدكتور فرحات الجعيري قدم له دراسة معمقة بعنوان «نظام العزابة عند الإباضية الوهبية بجرية» سنة: ١٩٧٥. ودمج فيه بين النظامين.
- ٤- وأما الشيخ علي يحيى معمر فقد اكتفى بسرد هذا النظام في كتابه الإباضية في موكب التاريخ قسم ليبيا: ج ٢ ق ٢ ص ١٣٧ بعنوان «نظم التربية والتعليم».
- ٥- وكذلك الدكتور عوض خلفيات الأردني قدم لهذا النظام دراسة بعنوان: «النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان».
- ٦- وأما الأستاذ صالح سماوي فقد حلل سيرة العزابة تحليلاً نظرياً وتطبيقياً بعنوان: «العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب».

٧- وأما الدكتور صالح باجبة فقد اكتفى في كتابه: «الإباضية بالجريد» بإعادة ما كتبه الدرجيني في طبقاته.

٨- ونجد الدكتور عبد الرحمن عثمان حجازي قد وفق إلى حد بعيد في عقد مقارنة بين المدارس التربوية في شمال إفريقيا بعنوان: «التربية الإسلامية في القيروان في القرون الهجرية الثلاثة الأولى» وتعرض لتفاصيل هذا النظام رغم أنه جاء بعد هذه القرون ومزج بينه وبين نظام التعليم عند الإمام جابر بين زيد وأبي عبيدة في البصرة.

٩- وأما الشيخ سالم بن يعقوب مؤرخ جربة فقد اكتفى بذكر تأسيس الشيخ أبي عبد الله للحلقة ثم عرج إلى ذكر نظام العزابة في غرداية. في كتابه: «تاريخ جربة وعلمائها»

١٠- وأحسن وأسبق من دُون هذا النظام واهتم به هو الشيخ أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت ٤٧١ هـ) تلميذ مؤسس الحلقة في القرون ٥ هـ فقد كتب رسالة بعنوان: «السير» شرح فيها أخلاقيات «العزاب العالم والمتعلم» في حلقة أبي عبد الله مما أخذ عن الشيخ أبي عبد الله مباشرة.. وهي على شكل وصايا جلييلة رواها عن الصحابة والتابعين في فضل العلم وأهله وغيرهم من أعلام الأمة إضافة إلى ما أورده من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وقد جمع فيه ٢١٨ مقولة فيها عظات بليغة وإرشادات تربوية نفيسة لإصلاح النفس وتركيتها ولزوم الطريقة والثبات عليها^(١) ونذكر بعض الأمثلة للتعرف على مضمون الرسالة:

١- لا يصلح العلم لطالبه إلا بعد ثلاثة: العالم النقاد البصير بفنون العلم والكتب الصحاح، وسعة المؤونة، وذهن حاضر^(٢).

٢- على العالم أن يعبد الله بكتمان علمه ما لم يحتج إليه، فإذا احتج إليه فلا يسعه كتمان، فإن كتبه على أهله فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين^(٣).

(١) أبو الربيع، السير: ٢٩، (المقدمة).

(٢) المصدر السابق: ٤٥.

(٣) المصدر السابق: ٤٤.

٣- من طمع في الإسلام أن يدركه ومعه أخلاق السوء، كمن طمع أن يجعل الماء في الشبكة وكمن طمع أن يأخذ شاردة وليس معه السلاليق يدورون بها، أو كمن ينظر بإحدى عينيه إلى السماء، وبأخرى إلى الأرض في حالة واحدة، أو كمن يبسط يده إلى السماء أن يبلغها وهو في الأرض^(١).

٤- قلب اختلقته الذنوب كجلد احترقته النار لا يعالج ولا يصلح^(٢).

٥- وقيل عن عمر بن الخطاب: من حمده ثلاثة فلا شك في صلاحه، من حمده قرابته وجاره وصاحبه في السفر^(٣).

٦- إذا أراد الله بعبده خيراً بصره عيوبه وعرفه قدره وجعل خطاياه وذنوبه بين عينيه، ومن أراد به شراً أعماه عن عيوبه وأجهله قدره وأنساه ذنوبه، ورد نظره في عيوب غيره^(٤).

٧- إذا كان قوم في منازلهم يأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر كانوا في ستر الله وأمانه ماداموا كذلك فمن عصى الله منهم في السر أتته عقوبة من عند الله لا تأخذ معه غيره، ولا يزالون على حالهم ذلك مادام فيهم رجل واحد يأمرهم وينهاهم فإذا استنوا وارتفع منهم الأمر والنهي أتتهم عقوبة من عند الله جميعاً، فلا يرتفع عنهم مادام فيهم واحد من أولئك الذين اتتهم بهم العقوبة^(٥).

٨- ليست الدنيا فتنة كلها بل منها ما هو محمود ومطلوب، ومن طلب حلالاً ليستر به على نفسه ويتقوى به على طاعة الله ويقدم منه لمعاده ويوم فقره فليس بطالب للدنيا^(٦).

(١) المصدر السابق: ٦٠.

(٢) المصدر السابق: ٦٥.

(٣) المصدر السابق: ٧٩.

(٤) المصدر السابق: ٨٥.

(٥) أبو الزبيع، السير: ٩٦.

(٦) المصدر السابق: ١٠٠.

هذا هو نظام حلقة العزابة في القرن ٥ هـ بشمال إفريقيا في بعض من
عمومياته وخصوصياته.

المطلب الثالث:

الأبعاد الحضارية لسيرة حلقة العزابة في المجتمعات المغربية

لا شك أن نظام أي مؤسسة تربوية أو اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية تعرف قوته وفعالياته
بالإيجابيات التي تركها في المجتمع الذي يطبق فيه، وفعلًا لقد برزت آثار هذه السيرة الحميدة
في المجتمع المغربي من جوانب مختلفة نذكر منها:

• البعد الديني

لقد انتشرت العقيدة الصحيحة وامتد عمرها إلى يومنا هذا بسبب الاهتمام بها داخل الحلقة
والتركيز عليها في جميع المناسبات العامة والخاصة، قال أبو مسور: «علينا أن نعرف أن التوحيد
عبادة الله وأن الشرك عبادة غيره وأن التوحيد عدل والشرك جور»^(١).

حتى أصبحت مادة أصول الدين مادة أساسية تدرس في المرحلة الأخيرة على يد الشيخ أبي
عبد الله محمد بن بكر مؤسس الحلقة يقول الدرجيني: «وذكر عن أبي يعقوب شيخ كان بنفوسة
«أمسنان» أنه كان مقصد المبتدئين فإذا انتظموا في حلقة علمهم السير وآداب الصالحين، ثم
ينقلهم إلى محمد بن سدرين فيجرون قراءة القرآن ويتعلمون اللغة والإعراب ثم ينتقلون إلى أبي
عبد الله بن بكر فيعلمهم أصول الدين والفقه»^(٢).

وبرز في التأليف في العقيدة الشيخ أبو الربيع سليمان بن خلف المزاتي في كتابه الذي رواه
عن الشيخ أبي عبد الله «التحفة المخزونة في إجماع الأصول الشرعية»^(٣) في مجلدين.

وألّف في هذا المجال أيضاً الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر كتاب: «مسائل

(١) القطب أطفيش، ترتيب المعلقات لأصحابنا: ٩.

(٢) الدرجيني، طبقات المشايخ: ٢/٢١٨.

(٣) حققه وقدم دراسة عليه الأستاذ: محمود الأندلسي. (مرقون). معجم أعلام الإباضية: ٢/٢١٥. رقم: ٤٧٢.

• البعد الاجتماعي

إن سيرة حلقة العزابة تعتبر مؤسسة اجتماعية لتربية الرجال الذين يرعون القيم الاجتماعية للمجتمع مثل: الحياء والشجاعة والصبر والمثابرة والبناء والصلح بين المتخاصمين والتوجيه الاجتماعي والتنظيم والانضباط والتعاون على البر والتقوى والمحبة والتزاور.

يروى أبو الربيع المزاتي عن أحد مشائخه قوله: «يخرج الاسلام من الرجل وهو يصلي ويصوم ويفعل ما كان يفعل قبل ذلك من خصال البر وهو لا يشعر إذا كانت فيه ثلاث خصال:

١- فرقة المسلمين بعد صحبتهم.

٢- وترك زيارتهم بعد أن كان يزورهم.

٣- وإذا استوت عنده حاجة أخيه المسلم مع غيره»^(٢).

فهو يحرض على اجتماع الكلمة والتزاور وخدمة الجماعة المسلمة.

ويروي أيضاً عنهم قولهم: «إنما ينبغي للمؤمن أن يوجد في ثلاثة مواطن:

١- إما مسجد يذكر الله فيه، أو يعمل خيراً، أو يسمعه، أو يتعلم الخير، أو يامر بالخير، أو يعلمه.

٢- أو في ضيعته ساعياً لمعاشه.

٣- أو في قعر بيته هارباً مما لا يغنيه مشغلاً بما يعنيه»^(٣).

فالشيخ في الحلقة يحث الناس على الجد والعمل في كل ما فيه صلاح الأمة عن طريق المسجد أو عن طريق العمل الذي يكتسب به قوته أو عن طريق منزله الذي يصلح فيه أسرته.

(١) كتاب مخطوط توجد منه نسخة في جربة. معجم أعلام الإباضية: ٤٨/٢. رقم: ٨٩.

(٢) أبو الربيع، السير: ٦١.

(٣) المصدر السابق: ٦٨.

والبعد الاجتماعي لهذه السير الحميدة يبرز من حيث ممارسة التوجيه والارشاد للناس في المسجد أو من حيث إصلاح الخصومات على يد الشيخ القاضي أو على يد قاض يعينه الشيخ لأي منطقة من مناطق المجتمع مثل: أبي الحسن^(١) الذي عينه الشيخ أبو عبد الله على منطقة بني ورتيزلن قاضياً عادلاً حكيماً^(٢).

وكانت امرأة تخدم الطلبة فغاب عنها زوجها فأرسل الشيخ في أثره رجلان إلى طرابلس لتسوية وضعيتها العائلية من فك العصمة الزوجية^(٣) أو إثباتها.

ولما تحول مقر الحلقة من الغار إلى المسجد تطور نشاط سير الحلقة من مدرسة علمية إلى مدرسة اجتماعية ترعى شؤون المجتمع الذي تشرف عليه في مختلف الميادين الحضارية لذلك المجتمع.

• البعد الثقافي

ومن خلال الرعاية الاجتماعية والتربوية التي تقوم بها الحلقة في المدرسة والمجتمع فإن الثقافة الإسلامية قد تضاعفت في مختلف شرائح المجتمع حيث ينتشر التعاون والتناصح والتزاور ونبذ الفرقة والخصام بين الناس، ونجد التنافس بين الناس في خدمة العلم والعلماء ورعاية الطلبة داخل الحلقة وخارجها.

كما نجد انتشار الحلقات العلمية بين الأحياء والمدن والقرى وتبادل الكتب ونسخها وشرائها وتأليفها واستقدامها من بلاد بعيدة لأن سير الحلقة التي تهذب الطلبة الصغار سوف لا تنفك عنهم فينتشر الوعي الاجتماعي في مجتمعاتهم بفضل الالتزام بها وحمل الناس عليها فيسود الاحترام والرحمة بين الكبار والصغار.

ونجد من مظاهر تطور الوعي الثقافي تنقل الطلبة واستقبال العلماء بين المساجد والحلقات.

(١) الدرجيني، طبقات المشايخ: ٢/٢٠١.

(٢) جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية: ١١٦/٢، رقم: ١١٣.

(٣) الدرجيني، طبقات المشايخ: ٢/١٩٨.

• البعد التربوي:

تعتبر التربية بيت الصيد في سير أهل الحلقة حيث تتدرج مع التلاميذ فتهتم بتربيتهم اهتماماً بالغاً بفضل القرآن الكريم الذي يصدّرون به مختلف العلوم التي يتلقاها التلميذ داخل الحلقة. كما أن التدريبات التي يأخذها التلميذ أثناء الرحلات المدرسية تعتبر مدرسة تطبيقية يستفيد منها الطلبة لرعاية مستقبلهم رعاية واقعية صحيحة.

• البعد الاقتصادي:

سيرة حلقة العزابة تحفز الأغنياء على الرعاية المادية لمشائخ الحلقة والبذل بسخاء في بناء المساجد و المدارس والرباطات العلمية لإيواء الطلبة الفقراء والتعاون في أجور المعلمين وإكرام الحلقة في أحيانهم، فينتشر بذلك التعليم المجاني بين طبقات المجتمع.. و يستقر الطلبة في مدارسهم.. وبهذه الطريقة تخصص أوقاف من الغلال الموسمية للطلبة والمعلمين داخل المدينة وخارجها.. فينشط اقتصاد المدينة والقرية بالحركة الدائبة في الأسواق وتنشط التجارة والزراعة في تلك المنطقة.

الخاتمة

وبعد هذا العرض المختضب السريع لسيرة حلقة العزابة يتبين للقارئ الكريم ثلاثة أشياء:

١- السيرة الحميدة في حلقة العزابة هي رعاية المجتمع وتكوينه مادياً وأدبياً.

٢- التاريخ الصحيح لا يؤخذ إلا من المؤرخين الصادقين.

٣- السير المغربية مازالت في حاجة إلى دراسات متأنية لاستثمارها واستخلاص العبر منها حتى نستفيد منها قواعد تفيدنا في عصرنا هذا مع غيرها من تجارب المخلصين.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل لجميع من فكر ونظم وجمع فأوعى السامعين بالمحاضرات التي سمعناها خلال هذه الأيام والله لا يضع أجر المحسنين والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

المصادر والمراجع

- ١- أبو العباس بن أحمد بن سعيد الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب
ت: إبراهيم محمد طلاي ط٢ الجزائر ٢٠٠٨ م.
- ٢- صالح باجية، الإباضية بالجريد ط١ دار بوسلامة.
- ٣- محمد بن يوسف أطفيش، ترتيب المعلقات ط١ المطبعة البارونية بمصر ١٩٢٦
- ٤- علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ: ج ١، ق ٢، ط١ مطبعة الاستقلال الكبرى
القاهرة، ١٩٦٤ م.
- ٥- أبو القاسم بن إبراهيم البرادي، الجواهر المنتقاة فيما أخل به كتاب الطبقات ت: أحمد
بن سعود السيادي ط١، دار الحكمة لندن، ٢٠١٤ م.
- ٦- أبو الربيع سليمان بن خلف المزاتي، كتاب السير، ت: ح سعيد مسعود، ط٢، مكتبة
الضامري سلطنة عمان، ١٩٩٣ م.
- ٧- د/ عبد الرحمن عثمان حجازي، التربية الإسلامية في القيروان في القرون الهجرية
الثلاثة الأولى، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٧ م.
- ٨- الشيخ سالم بن يعقوب، تاريخ جرية وعلماؤها ط٣، نشر د/ ناجي بن يعقوب، تونس ٢٠١٣
- ٩- د/ فرحات بن علي الجعيري: نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة، ط١،
المطبعة العصرية، تونس ١٩٧٥.
- ١٠- صالح بن عمر سماوي، العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب ط١، نشر
جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية - الجزائر ٢٠٠٥
- ١١- جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، ط١، المطبعة العربية، غرداية، ١٩٩٩

١٢- فرحات بن علي الجعيري، شخصيات إياضية، ط١، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، ٢٠١٠.

١٣- سليمان بن خلف المزاتي، التحف المخزونة. ت: محمود الأندلسي. رسالة دكتوراه مرقونة عند الشيخ فرحات الجعيري.

١٤- أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني، كتاب السيرة وأخبار الأئمة. ت: عبد الرحمن أيوب. نشر الدار التونسية. تونس ١٩٨٥م.

١٥- أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني، سير الوسياني. ت: د/ عمر سليمان بوعصبانة. نشر وزارة التراث والثقافة. مسقط عمان. ط ١. ٢٠٠٩م.

١٦- أبو عمار عبد الكافي الوارجلاني، سير أبي عمار. ت: مسعود مزهودي. ط ١. مكتبة الضامري. سلطنة عمان.

١٧- ابن منظور، لسان العرب. دار الفكر. ط ١. ١٩٩٠م.

الإسناد الديني (نسب الدين) عند الإباضية بالمغرب قراءة وصفية تحليلية

بشير بن موسى الحاج موسى
أستاذ وباحث بمؤسسة عمي سعيد بغرداية/ الجزائر
Hmbachir73@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يتطرق البحث إلى التعريف بنمط خاص من الكتابة التاريخية، يُعرف في الثقافة الإباضية بالمغرب بنسب الدين، وهي أعمال تتعلق بالتاريخ الديني الذي يهتم بحملة العلم، وتُعدّ أساسا بتوثيق عملية رواية العلم والدين طبقة عن طبقة عن طريق الإسناد المتصل في كل زمان ومكان من لدن المتعلم الراوي إلى مصدر الوحي والرسالة محمد. فهي من هذا الجانب تندرج ضمن علم الرجال والطبقات، وهي ضرب من السير الإباضية.

ومما تتميز به هذه الأعمال إسهامها في إبراز جوانب دقيقة من تاريخ بعض الأقاليم والمناطق المستقلة جغرافيا والمتصلة ثقافيا ومذهبيا، بالإضافة إلى ما تفيد به بصفة أساسية من سلسلة العلماء المدرسين والطلبة المتعلمين الآخذين عنهم، وهو ما يُعبر عنه بالإسناد.

ويغطي البحث ما كُتب بصفة خاصة عند الإباضية بالمغرب، وهو يتعلق بالمناطق التالية مرتبة بحسب التواجد الإباضي فيها زمنيا: أريغ ووارجلان بالجزائر، ثم جربة والجريد بتونس، ثم طرابلس ونفوسة بليبيا، ثم وادي مزاب بالجزائر، ...

ويعالج البحث بعون الله جوانب الموضوع وفق الخطة التالية:

المبحث ١: لمحة عن الإسناد والإجازة في التراث الإسلامي

- امتياز المنظومة التعليمية الإسلامية بنظام الإجازة.
 - التأليف في أدب الإجازة وتراثها.
 - نماذج معاصرة من الإجازة عند الإباضية بالمغرب.
- الإسناد وأهميته في تصحيح العلوم وتوثيقها.
 - علم الإسناد مبدؤه وأهميته.
 - علم الإسناد الحديثي.
 - أهمية الإسناد في تصحيح المرويات.

المبحث ٢: الإسناد في التراث الإباضي

- مدخل.
- التعريف بنسب الدين واهتمام علماء الإباضية به.
- خصائص نسب الدين عند الإباضية.
 - الارتكاز على العلم.
 - نظافة السند وقربه.
 - الإذن من الشيخ بالإسناد إليه.
- نبذة عن نسب الدين عند العمانيين.
- الفرق بين الإسناد الحديثي والنسب الديني.

المبحث ٣: نسب الدين عند الإباضية بالمغرب

- عرض المؤلفات التي عنيت بنسب الدين عند الإباضية بالمغرب

١. نسب الدين المروي عن أبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي (ق ٥٦هـ).

٢. نسب الدين لمقرن بن محمد البغطوري النفوسي (حي في ٥٩٩هـ).
٣. نسب الدين لخليفة وسعيد النفوسيين (ق ٨هـ).
٤. نسب الدين لأبي مهدي عيسى بن إسماعيل المليكي (ت: ٩٧١هـ).
٥. نسب الدين لمحمد بن زكرياء الباروني (ت: ٩٩٧هـ).
٦. نسب الدين لسليمان بن أحمد الحيلاتي (ت: ١٠٩٩هـ).
٧. نسب الدين لأبي القاسم بن يحيى المصعبي الغرداوي (ت: ١١٠٢هـ).
٨. عمل الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش (ت: ١٣٣٢هـ).
٩. نسب الدين لأبي اليقظان إبراهيم بن عيسى المزابي (ت: ١٣٩٤هـ).
١٠. عمل الأستاذ ج أحمد بن حمو كروم (معاصر).

• ملاحظات

- السلسلة الجامعة (=الإسناد الجامع) لطرق نسب الدين عند الإباضية بالمغرب.

- خاتمة: نتائج وتوصيات

• المبحث الأول: لمحة عن الإسناد والإجازة في التراث الإسلامي

امتياز المنظومة التعليمية الإسلامية بنظام الإجازة:

تمتاز المنظومة التعليمية في التراث الإسلامي من جانب رواية العلم وتوريثه بمنهج توثيقي فريد، ينبني على دعامتين أساسيتين هما: الإسناد والإجازة.

أما الإسناد فبضبط سلسلة الأشخاص الذين يشكّلون الطريق الذي يتم من خلاله تلقي علم معين، سواء كان ذلك قراءة قرآنية أو حديثاً نبوياً أو كتاباً في بعض العلوم والمعارف، أو خبراً من سائر الأخبار.

أما الإجازة فتتمثل في الإذن بنقل العلم إلى الآخرين، أو هي الإذن بالرواية، سواء كانت رواية حديث أم رواية كتاب، وأعلى صورها الإذن بالإفتاء والتدريس، وهي في هذه الصورة تقتصر بمعنى مضاف للمجاز هو التفويض عند إطلاق الإجازة. فالإجازة في المنظومة التعليمية الأصلية هي المعيار الرئيسي الذي من خلاله يُقرّ المدرس أن تلميذه أصبح قادراً على الجلوس للتدريس في حلقة مستقلة، ولقسم معين من أقسام العلوم المختلفة^(١).

وقد وردت في التراث الإسلامي أنواع من الإجازة، منها ما يكون شفوياً، ومنها ما يكون كتابياً، كما قد تكون الإجازة بإعطاء الشيخ كتبه أو بعضها لتلميذه، مؤكداً له على أنها بخط يده، مخبراً باسم الشيخ الذي نقل عنه، وأخذ منه هذا العلم، ثم يُجيزه لتلميذه لإعطائه للآخرين. وقد تكون الإجازة مقيدة خاصة، كالإجازة برواية أحاديث معينة بسندها، أو الإجازة برواية كتاب معين أو تدريسه، وقد تكون الإجازة مطلقة عامة، كالإجازة بالتدريس والإفتاء.

ومن أمثلة الإجازة الشفوية ما روي عن الشيخ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة

(١) د/ راجب السرجاني، الإجازة سبق إسلامي وتقليد غربي، ص: ٠١، (مقال منشور في الموقع الإلكتروني: «قصة الإسلام»).

(ت حوالى: ١٤٥هـ)^(١) صاحب مدرسة السرداب بالبصرة إجازته مجموعة من تلاميذه المغاربة، بناء على ما تفرس في كل واحد منهم بعد سنوات من الاختبار ما أكسبه معرفة بمؤهلاتهم ومداركهم. فقال لتلميذه عبد الرحمن بن رستم^(٢): «أفت بما سمعت وما لم تسمع»، فهذا من الإجازة المطلقة العامة، وقال لتلميذه أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري^(٣): «أفت بما سمعت مني»^(٤)، وهذا من الإجازة المقيدة الخاصة.

ومن أمثلة الإجازة الخاصة ما أثر عن الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) إجازته لابنه عبد الله؛ حيث روى عنه المسند ثلاثين ألفاً، والتفسير مائة ألف حديث وعشرين ألفاً، ونقل أن الإمام محمد بن شهاب الزهري (ت: ١٢٤هـ) أجاز لابن جريج (ت: ١٥٠هـ) رواية ما حدث به لغيره^(٥).

ومن أنواع الإجازات في تاريخ الحضارة الإسلامية ما عُرف من الإجازات القرآنية، وهي شهادة من الشيخ المجيز لطالبه بأنه قد قرأ عليه القرآن كاملاً غيباً مع التجويد والإتقان والتفريق بين المتشابهات، على إحدى القراءات السبع أو عليها جميعاً، أو على القراءات العشر، وأنه بذلك أصبح مؤهلاً لإقراء غيره، وبهذه الإجازة يكون الطالب المجاز متصل بالسند بالنبي، ضمن سلسلة الناقلين للقرآن بالسند المتصل.

واعتباراً لعظم مسؤولية المفتي والمدرس فإن بعض الطلبة عندما لا يكون معهم من

(١) أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي بالولاء، سياسي محتك، وعالم جليل، عرفت الإباضية على يديه أكبر إنجازاتها السياسية في المشرق والمغرب. أخذ العلم عن الإمام جابر بن زيد الأزدي، وروى عن الكثير من الصحابة، كما أخذ عن صحرار بن الغساس الصحابي العماني، وعن جعفر بن السماك. وطُن نفسه على التعلم والتعليم، وتعرض لسجن الحجاج بن يوسف الثقفي، وبعد موته سنة ٩٥هـ/٧١٣م، أفرج عنه ليعود إلى نشاطه العلمي والدعوي، فتولّى إمامة الإباضية بعد جابر بن زيد الذي توفي سنة ٩٣هـ/٧١١م. أنكر أي عمل مباشر ضد الدولة الأموية، وشكّل شبه حكومة سرّية، تولّى فيها بنفسه مهام شؤون الدين والدعوة، وعنه تخرّج مشاهير أئمة الإباضية ودعاتها، من حملة العلم إلى المشرق وإلى المغرب. وله ثار علمية (ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، الترجمة: ٨٩١).

(٢) ت: ١٧١هـ/٧٨٧م، وأصله من القيروان بتونس، تنظر ترجمته في: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، الترجمة: ٤٥٥.

(٣) ت: ١٤٤هـ/٧٦١م، وأصله من النيمن، تنظر ترجمته في: ن م، الترجمة: ٥٣٤.

(٤) الشماخي، أحمد بن سعيد، كتاب السير، ص: ١٤٤.

(٥) د/ راغب السرجاني، الإجازة سبق إسلامي وتقليد غربي، ص: ٠١. وجاء فيه أن من نوادر أخبار الإجازة ما روي أن مرضعة الإمام الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) حصلت على الإجازة من مشايخها: ابن أبي اليسر، وجمال الدين بن مالك، وزهير بن عمر الزرعي، وجماعة آخرين، وسمعت من عمر بن القواس وغيره، وروى الذهبي عنها.

القدرات والكفاءة ما يؤهلهم للتصدي للفتوى والتدريس قد يضطر ذلك مدرسيهم لأن يمنعوهم من خوض غمار ذلك، صونا للعلم وحفظاً لشرعية الله، وإن كان ذلك قليل النقل إلا أنه يدل على مستوى التحري في نقل أمانة الدين والعلم عبر الأجيال. ومن ذلك ما وروى عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة أنه قال لتلميذه أبي داود القبلي^(١): «لا تفت بما سمعت مني ولا ما لم تسمع»^(٢).

• التأليف في أدب الإجازة وراثتها:

راجت الإجازة واستقر تداولها بشكل واسع عند علماء الأندلس بصفة خاصة، إلى درجة إبداع التأليف فيها وفي متعلقاتها، حيث اشتهر عندهم ما يُعرف بكتب البرامج، مفردتها البرنامج، وهو كتاب يسجل فيه العالم ما قرأه من مؤلفات في مختلف العلوم، ذكراً عنوان الكتاب، واسم مؤلفه، والشيخ الذي قرأه عليه، أو تحمله عنه، وسنده إلى مؤلفه الأول. ونظراً لتعدد طرق تأليف هذه البرامج فقد عُرفت بأسماء أخرى بحسب منهجية كل مؤلف في تأليفه وطبيعة مادة التأليف، فمن أسمائها: المعجم، والمشيخة، والثبت، والفهرس، والسند. وقد يتولى تصنيف البرنامج غير صاحبه، ومثاله:

- محمد بن عباد الأندلسي (ت ٦٠٣هـ) الذي ألف في مشيخة أبيه مجموعاً مرتباً على حروف المعجم.

- أبو القاسم ابن الشاط الأنصاري (ت ٧٢٣هـ) الذي دَوّن برنامج شيخه أبي الحسين، ابن أبي الربيع القرشي^(٣).

إن السمة الغالبة على كتب البرامج أن مصنفها لم يلتزموا منهجاً واحداً في تأليفها وترتيب مادتها، وقد أوجزت الباحثة د/ هناء دويدري منهج تبويبها في أربع صور:

- التبويب بحسب الكتب التي قرأها صاحبه ورواها.

- التبويب بحسب الشيوخ الذين وقع الأخذ عنهم.

(١) حي في: ١٤٠هـ / ٧٥٧م، وأصله من مدينة «قُبلي» في جنوب تونس، تنظر ترجمته في: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، الترجمة: ٣٠٣.

(٢) الشماخي، أحمد بن سعيد، كتاب السير، ص: ١٤٤.

(٣) د/ هناء دويدري، السند العلمي في كتب برامج العلماء في الأندلس، ص: ١٠١، (مقال منشور في الموقع الإلكتروني: «شبكة صحاب السلفية»).

- المزج في البرنامج بين الطريقتين الأنفتي الذكر.

- الإكثار من الاستطراد بذكر حكايات وطرف وأشعار^(١).

كما عقد القلقشندي (ت: ٨٢١هـ) في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» حيزاً خاصاً لنصوص الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية^(٢) وعراضات الكتب^(٣)، على أنه ضرب متعارف عليه من ضروب الإنشاء العربي ونوع شهير من أدابه، حيث حشر فيه نماذج من تلك النصوص، وقد كان اختياره لها لموافقتها الصنعة العربية وجريها على أسلوب البلاغة^(٤).

ومن ذلك نص الإجازة التي أخذها من أستاذه ابن الملقن الشافعي، قال القلقشندي: «هذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي... كُتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشهير بابن الملقن... عند قدومه الإسكندرية وأنا مقيم به في شهور سنة ٧٧٨هـ، وكتب لي بذلك القاضي تاج الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي الكامل، وسنّي يومئذ إحدى وعشرون سنة، فضلاً من الله ونعمة»، ثم ساق نصها بالكامل وهي في قدر أربع صفحات.

وممّا جاء فيها أن الشيخ أبا حفص عمر بن أبي الحسن الشهير بابن الملقن أذن وأجاز لتلميذه القلقشندي أن يدرس مذهب الإمام الشافعي، وأن يُقرئ ما شاء من الكتب المصنّفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبه، حيث حلّ وأقام، كيفما شاء متى شاء وأين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطأ ولفظاً، على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه، لعلمه وديانته وأمانته، ومعرفته ودرأته، وأهليته لذلك وكفايته. وخُتمت الإجازة بعبارة: «فليتلقَ -أيده الله تعالى- هذه الحلة الشريفة، وليترقَّ

(١) د/ هناء دويدري، م س، كله. وقد ساق في بحثها نماذج من البرامج في كل تبويب فليرجع إليه.

(٢) قال القلقشندي: «جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس، ويكتب له بذلك. وجرت العادة أن يكون ما يُكتب في الغالب في قطع عريض إما في فرخة الشامي أو نحوها من البلدي، وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطراً متوالية، بين كل سطرين نحو أصبع عرض»، (صبح الأعشى، ٣٢٢/١٤).

(٣) قال القلقشندي: «جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه أو أصول الفقه أو النحو أو غير ذلك من الفنون يعرضه على مشايخ العصر، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ويفتح منه أبواباً ومواضع يستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلثم استدلل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب، وكتب له بذلك كل من غرض عليه في ورق مربع صغير، يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها»، (صبح الأعشى، ٣٢٧/١٤).

(٤) القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ٣٢٧/١٤.

بفضل الله تعالى ذروة هذه المرتبة المنيفة، وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدَى من الإحسان الوافر إليه، وليراقبه مراقبة من يعلم اطلاعاً على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليعامله معاملة من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبديه في الورود والصدور، ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم»^(١).

لقد عرفت الحضارة الإسلامية طريقة الإجازة منذ فترة مبكرة جداً، ... على أنه نوع من أنواع الثقة المتبادلة بين الأساتذة وتلاميذهم، ثم تحولت بالزمن إلى تقليد علمي يلتزم به لدى حلقات العلم ومعاهده ويتنافس على نبيله الطلبة من أبرز العلماء وكبار المدرسين. ولذلك ما خلا عصر من العصور الإسلامية المتفاوتة إلا ووجدنا الإجازة شرطاً من الشروط المهمة في تعيين أحد العلماء في منصب من المناصب الحساسة في الدولة^(٢). قال د/ راغب السرجاني: «والإجازة في حقيقة الأمر إضافة إسلامية مهمة في مسار الحضارة الإنسانية عبر آلاف السنين؛ إذ إنها بمنزلة الشهادة الموثقة التي يحصل عليها طلاب العلم الآن. ومن هنا، ندرك أن «الإجازة» كانت سبقاً إسلامياً فريداً في مسيرة الإنسانية كلها، فقد سبقت كبرى الكليات والجامعات الأوروبية بما يزيد على عشرة قرون كاملة؛ مما يدل على عظمة الحضارة الإسلامية في هذا الشأن، وإضافتها لشيء تنظيمي جديد، لطالما سارت جميع الأمم على نهجه حتى يومنا هذا»^(٣).

• نماذج معاصرة من الإجازة عند الإباضية بالمغرب:

وبما أن مجال البحث هو المجموعة الإباضية بالمغرب فلا مانع من إيراد بعض الشواهد على اعتماد نظام الإجازة عندها وبصفة أخص عند علماء الإباضية بوادي مزاب جنوب الجزائر، فهي لا تزال من التقاليد العلمية السارية المفعول وبالأخص في الأطر التعليمية الأصلية، فمن ذلك:

(١) الفلفشندي، م س، ١٤/٣٢٥.

(٢) د/ راغب السرجاني، الإجازة سبق إسلامي وتقليد غربي، ص: ٥١، بتصرف وإثراء.

(٣) د/ راغب السرجاني، الإجازة سبق إسلامي وتقليد غربي، ص: ٥٢.

١/ إجازة للتعليم:

وهي شهادة منحها الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض (ت: ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) لتلميذه حمو بن عمر فخّار (ت: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ومما جاء فيها: «...وبعد فإن تلميذنا النجيب السيد فخّار حمو بن عمر قد حفظ عنا كتاب الله أداء ورسمًا، وحذق قواعد الفقه الإسلامي في العبادات والمعاملات، ودرس قواعد اللغة العربية من نحو وصرف واشتقاق، وتأدب بالأدب الإسلامية، فكان حسن السيرة صافي الطوية، وقد أجزأه أن يعلم أولاد المسلمين كتاب ربهم وأصول دينهم وقواعد لغتهم، أخذ الله بيده ووفقه إنه سميع مجيب. كتبه بغرداية غرة رجب ١٣٧٣هـ الفقير إلى ربه الغني خادم العلم وأهله: بيوض إبراهيم بن عمر»^(١).

٢/ إجازة على تأليف:

وهي شهادة منحها الشيخ محمد بن سليمان مطهري (ت: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م) لتلميذه سليمان بن باسه بامون (معاصر)، إقرارا له على تأليفه منظومة «معراج المجتهد» في فني التجويد والقراءة على حرف ورش، ومما جاء فيها: «...أما بعد فقد حضر لدي الحسيب النسيب الأديب المجتهد اللبيب ليلة ٢١ جمادى الثانية ١٤١١هـ يوافقه ٠٧ يناير ١٩٩١م الابن البار والأخ الكريم المقرئ الحاج سليمان بن الحاج باسه من آل بامون بمليكة، وقرأ عليّ أرجوزته المسماة (معراج المجتهد) في فني التجويد والقراءة على حرف ورش قراءة فهم وضبط وإتقان، وهي من نظمه، وحمده على تلك الصناعة الأدبية وأجزته عليها، فهي من المهمات في الشأن، أرجو الله أن ينفع بها كل المسلمين ويجزل له الأجر والثواب. وكتبه الفقير إلى الله الحاج محمد بن الحاج سليمان المطهري...»^(٢).

• الإسناد وأهميته في تصحيح العلوم وتوثيقها

من قرائن نظام الإجازة في تاريخ الحضارة الإسلامية الإسناد، فالكثير من الإجازات تقتنن بالإسناد الذي انتقل العلم عن طريقه إلى الشيخ المجيز، فنجد الإسناد حاضرا في كل من:

(١) حمو بن عمر فخّار، كان حنيئا حسنا، ص: ٩٢، ٩٣.

(٢) سليمان بن ج باسه بامون، منظومة معراج المجتهد، ص: ٠٢.

- إجازات رواية الأحاديث.

- إجازات رواية الكتب وإقرائها.

- إجازات رواية القراءات القرآنية.

وقد تعمق المحدثون في مجال الإسناد أكثر من غيرهم، وجعلوا منه علماً قائماً بذاته، كما شهد خدمات جليلة وتعرّز بتصانيف ومؤلفات تجلّي دقائقه، خدمة للسنة وسعيًا لتنقيتها مما داخلها وشابها من الدس والوضع.

• علم الإسناد مبدؤه وأهميته

لم تكن كتابة غير القرآن أمراً مسموحاً به في أول الإسلام، فقد ثبت منع الرسول ﷺ من كتابة بعض الروايات، وجاء عنه ﷺ أنه قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحّه»^(١).

وجاء عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «جهدنا بالنبي ﷺ أن يأذن لنا في الكتاب فأبى»^(٢)، وعنه أيضاً أنه قال: «ما كنا نكتب غير التشهد والقرآن»^(٣).

وعن أبي هريرة: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث، فقال: ما هذا الذي تكتبون؟ قلنا: أحاديث نسمعها منك. قال: كتاب غير كتاب الله!، أتدرون ما ضلّ الأمم قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى»^(٤).

واستمر هذا الموقف المعارض لتدوين الروايات والأخبار إلى عهد الصحابة، فقد روي عن أبي بكر الصديق أنه جمع الناس فقال: «إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس من بعدكم أشدّ اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم

(١) رواه مسلم في صحيحه، رقم: ٥٤٦٠؛ والخطيب البغدادي في تقييد العلم، رقم: ٠٠٤.

(٢) رواه الرامهرمزي في «المحدث الفاضل بين الراوي والواعي»، رقم: ٣٠٣.

(٣) رواه أبو داود في سننه، رقم: ٣٢١٧. والخطيب البغدادي بنحوه في تقييد العلم، رقم: ١٣٥.

(٤) رواه الخطيب البغدادي في تقييد العلم، رقم: ١٣.

كتاب الله، فاستحلوا حلاله، وحرّموا حرامه»^(١).

وروي عن عمر بن الخطاب أنه طفق يستخير الله شهراً، ثم قال: «إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً قبلكم كتبوا كتباً فأكّبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً»، ثم كتب في الأمصار «من كان عنده شيء من الروايات فليمحّه»، وروي عنه أنه أحرق مجموعة من الروايات وقال: «مثناة كمثناة أهل الكتاب؟»^(٢).

بل قد وصل به الاحتياط في منع الحديث إلى درجة حبس مجموعة من كبار الصحابة لإكثارهم من التحديث، فقد روي أنه بعث إلى عبدالله بن مسعود وأبي الدرداء وأبي مسعود الأنصاري، فقال لهم: «ما هذا الحديث الذي تكثرّون عن رسول الله ﷺ؟»، فحبسهم بالمدينة حتى استشهد^(٣).

وبالمقابل يذهب بعض الباحثين إلى عدم التسليم بهذا، كما هو رأي د/ نور الدين عتر في كتابه «منهج النقد في علوم الحديث»، حيث يرى أن النبي ﷺ صحّ عنه أنه أذن بكتابة الحديث لكن الكتابة التي لا تتخذ طابع التدوين العام، أي لا تتخذ مرجعاً يتداول بين الصحابة، ولذلك لم يأمر ﷺ أحداً بكتابة الحديث كما أمر بكتابة القرآن، وإنما أذن لأفذاذ من الصحابة بذلك، ثم إنهم لم يكونوا يتداولون تلك الصحف من الحديث ولو يوجد في شيء من الروايات أن أحداً منهم فعل ذلك، وإنما كانت تلك الصحف في أيديهم بمثابة المذكرات. فلما انتشر علم القرآن وكثر حفاظه وقراؤه وأمن الناس من أن يلتبس بالقرآن غيره أقبلت الأمة على تدوين الحديث تدويناً اتخذ صبغة العموم، وتداولت صحفه المكتوبة، وذلك بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت: ١٠١هـ).

وقال د/ عتر: «إن إنكار تقييد الحديث في عهد النبي ﷺ لا يمكن أن يتأتى ممن يتحاكم إلى الإنصاف ويسلك نهج العلم، فإن روايات كتابته قد تعددت بالأسانيد الموثوقة الكثيرة جداً في مختلف مراجع السنة، مما يبلغ بها درجة التواتر الذي يقطع من يطلع عليه من العلماء ويتحقق

(١) الذهبي، تنكرة الحفاظ، ١/ ٩٠، وقال إنه من مراسيل ابن أبي مليكة.

(٢) روى ذلك ابن سعد في الطبقات الكبرى، رقم: ٥٧٩٣.

(٣) روى ذلك الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: ٣٥٨٣، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث، رقم: ١٨٢.

وقوع الكتابة للحديث في عهد النبي ﷺ.

أما تقيد العلم في عصر عمر بن عبد العزيز فليس يعني أبداً أنه لم يُدَوَّن من قبل، غاية الأمر أن هذا الخليفة العادل وجد كثيراً من العلماء يحجم عنه، كما أنهم لم يكونوا يتداولون الكتب ليعتمدوا عليها، فأصدر أمره بكتابة الحديث لينتقل بالعلم إلى التدوين العام، الذي يعتمد مع الحفظ على الكتابة، ويجعل الكتابة مرجعاً متداولاً معتمداً لا يختص بصاحبه فقط...»^(١).

وبين هذا وذاك نرى أن ما ثبت من نهى النبي ﷺ عن كتابة غير القرآن وما نُقِلَ من استمرار نفس الموقف إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب..إنما يرجع إلى سذَجِ الذرائع المؤدية إلى تقديس غير القرآن، كما نُقِلَ عن الخطيب أن كراهة الكتاب من الصدر الأول إنما هي لنلأ يُضاهى بكتاب الله تعالى غيره، أو يُشتغل عن القرآن بسواه^(٢).

ومن استقرار تاريخ تدوين السنة ندرك أن المحذور الذي كان يخشاه النبي ﷺ وقعت فيه مجموعة من الأمة فعلاً، وتأثر تبعاً لذلك فكر الأمة وسلوكها، وذلك من جانبين:

١- توظيف الرواية لأغراض دنيئة غير مشروعة

بعد انقضاء عهد عمر بن الخطاب ونتيجة لظهور الفتنة في آخر أيام الخليفة الثالث ركبت الأحزاب المتصارعة موج الرواية متخذة منها سلاحاً لمواجهة الخصوم، فكانت الكثير من المرويات الحديثية للأسف في خدمة المذاهب والتوجهات السياسية. وكانت الكثير من الفرق تطلب النص الذي يؤيد موقفها ضد الآخر، فتضخمت بذلك نصوص السنة تضخماً رهيباً كان للسلطة فيه الدور الأكبر، وكان وراء عملية التضخيم هذه مجموعة من الرواة العوام الذين لم يترسوا الفقه ومبادئه قاموا بجمع الروايات وحشوها في مصنفات ضخمة فعرفوا بالحشوية. ونتيجة لإفراطهم في جمع وتخيش الروايات تعارف الناس على تسميتهم بـ «أهل الحديث»^(٣).

ومن ذلك تساهل الكثير من الرواة الذين يُعرفون بالقصاص في وضع الأحاديث ودسها ترغيباً

(١) د/ نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص: ٤٩ وما بعدها.

(٢) الخطيب البغدادي، تقيد العلم، تعليقاً على ما رواه موقفاً تحت رقم: ١٣٥ عن أبي سعيد الخدري «ما كنا نكتب شيئاً...».

(٣) ينظر مقدمات ج ١ من كتاب: السنة الوحي والحكمة، قراءة في نصوص المدرسة الإباضية.

للناس في الآخرة في زعمهم، ومن أمثلة ذلك قصة مشهورة وقعت لأحمد بن حنبل ويحيى بن معين تناقلها الرواة، وذلك أنهما -أي ابن حنبل وابن معين- صليا في مسجد الرصافة بالعراق، فقام بين أيديهم أحد القصاص قائلا: حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا: حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله يُخلق من كل كلمة منها طيرٌ منقاره من ذهب وريشه من مرجان... وأخذ في قصة نحو من عشرين ورقة، وجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين ويحيى بن معين ينظر إلى أحمد بن حنبل فقال: أنت حدثته بهذا؟ فيقول: والله ما سمعت به إلا هذه الساعة. فلما فرغ من قصه وأخذ قطاعه، ثم قعد ينتظر بقيته. فقال له يحيى بن معين بيده تعال، فجاء متوهما لنوال منه، فقال له يحيى: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فقال: أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ فإن كان لا بد والكذب فعلى غيرنا.

فقال له: أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحقق ما علمته إلا الساعة. فقال له يحيى: وكيف علمت أنني أحقق؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا، قال: فوضع أحمد كفه على وجهه وقال: دعه يقوم، فقام كالمستهزئ بهما»^(١).

٢ - جانب تقديس غير القرآن:

إن حركة كتابة الحديث التي راجت لدى المسلمين بدوافع سبق ذكرها أنتجت نوعا من الإيمان على المرويات والاشتغال بها على حساب الفقه في القرآن، فأُسست بذلك لمنهج فكري منحرف يتميز بتقديس المرويات والتطرف في الاعتماد عليها ولو تعارضت مع القرآن، وهذا ما أدى بجزء من الأمة الإسلامية إلى الوقوع في خلل خطير، يتمثل في تقديم الحديث على القرآن، والسقوط في فخ تقديس غير القرآن، والتصور أن السنة أفضلية على القرآن الكريم، لأن القرآن في نظرهم محتاج للسنة، والسنة مستقلة غير محتاجة للقرآن الكريم، ومن ذلك قول البربهاري (ت):

(١) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ١٦٦/٢.

٣٢٩هـ): «إن القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن»^(١).

ومن المؤسف حقاً أن يمتد هذا الانحراف الفكري إلى زماننا هذا، فمن حين لآخر تطالعنا بعض الكتابات والتصريحات للمعاصرين عما ينم عن ذلك بكل سفور وجراءة، ولعل من ذلك قول د/ عبد الرحيم الطحان (معاصر) في إحدى محاضراته: «لا خير في قرآن بلا سنة، ولا خير في سنة بلا فهم لسلفنا الكرام»، وقوله: «كل من يدعو إلى كتاب بلا سنة فهو ضال، وكل من يدعو إلى كتاب وسنة بلا فهم لسلفنا الأبرار فهو ضال»^(٢).

وسعيًا لوقف الزوبعة الروائية والحد من مخاطرها إنقاذًا للسنة وحفظًا لها من النخيل وصيانة لها من كل فساد وتحريف وتزوير قام علماء الأمة بجهود عظيمة من الضبط والتحري في المرويات، فكان من بين ثمار جهودهم أن تأسس علم الإسناد.

وقد أشار الخطيب البغدادي إلى سبق المسلمين بقية الأمم في هذا المجال، فليس لأحد من الأمم كلها قديمًا وحديثًا إسناد، وإنما هي صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل مما جاءهم به أنبياءهم، وتمييز بين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوا عن غير الثقات، وهذه الأمة إنما تنص الحديث من الثقة المعروف في زمانه المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهًا وأكثر، حتى يهذبوه من الغلط والزلل ويضبطوا حروفه ويعدوه عدًّا^(٣).

(١) حسن البريهاري، شرح السنة، ص: ٨٩. (نقلا عن: السنة الوحي والحكمة، قراءة في نصوص المدرسة الإباضية، ٢٣/١). مع أنه لا خلاف في أن السنة تأتي في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم، فالكتاب مقطوع بثبوته إجمالاً وتفصيلاً لوصوله إلينا بالتواتر، ولم تختلف الأمة بجميع طوائفها عليه، بينما السنة مقطوع بثبوتها إجمالاً، ولكنها مظنونة الثبوت تفصيلاً لأن معظم الروايات أحادية، والآحاد ظني الثبوت. كما أن حجية السنة تتبع أساساً من أمر الله لرسوله ﷺ بتبيين أحكام القرآن للناس (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). ولا يمكن أن يكون الشرح أفضل من المشروح، لأنه لو غُدم الشرح لم يتأثر المشروح بينما لو غُدم المشروح لم يكن للشرح فائدة.

(٢) أحمد بن حمد الخليلي، وسقط القناع، ص: ٧٨.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ١٦٦/٢.

• علم الإسناد الحديثي:

علم الإسناد من علوم الحديث، وهو يهتم بسلسلة الرواة الذين تتكون منهم قناة نقل خبر من الأخبار، واحداً بعد واحد إلى أن يصلوا بالرواية إلى مصدرها الأصلي مع صيغ أدانهم... فكل ما نُقل إلينا من الأخبار.. لا بد وأن يكون بيننا وبينه من طريق، إما مخبر واحد أو أكثر من واحد، ولا بد لكل واحد من وجه في تحمل الخبر عن صاحبه، من سماع وعرض وكتابة ونحو ذلك، فمتى بيننا الطريق ووجه التحمل فقد أسندنا، ومتى تركنا البيان فقد أغفلنا، فإذا أردنا طلب المعتمد من الأخبار فلا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة الرجال وأحوالهم وصيغ تحملهم فهذا هو علم الإسناد^(١).
وعلم الإسناد في اصطلاح المحدثين يتفرع عنه فنان أساسيان:

١/ الجرح والتعديل: وهو فن يبحث في حال الرواة من حيث ما يشينهم أو يزيههم بالفاظ مخصوصة، ومعلوم أن مرجع ذلك إلى اشتراط عدالة الشهود في الشريعة الإسلامية، وقد عمل بذلك الصحابة والتابعون ومن بعدهم، وبلغ هذا العلم ذروته على يد يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) وابن حنبل (ت ٢٤١هـ). ومن أقدم المصنفات الجامعة في هذا الفن كتاب طبقات ابن سعد الزهري البصري (ت ٢٣٠هـ) ويقع في ١٥ مجلداً.

٢/ رجال الحديث: وهو فن يهتم برواة الحديث من حيث إنهم رواة، وتُعرف مصنفاته بكتب الرجال، ومن أقدم من اشتغل بهذا الفن البخاري (ت ٢٥٦هـ)، وفي طبقات ابن سعد الكثير من ذلك^(٢).

• أهمية الإسناد في تصحيح المرويات:

ومما ينبغي الإشارة إليه في صدد بيان أهمية الإسناد ونقده من أجل تصحيح المرويات، أن علم الإسناد وإن كان اكتمال بنائه على يد علماء الحديث فإن مفعوله لا يقتصر على مرويات الحديث فحسب، بل إنه ينسحب على مرويات التفسير والتاريخ وغير ذلك من العلوم التي تُطلب العدالة في ناقلها. على أن كل ذلك يهدف إلى إثبات النص وصحة نقله، أما من جانب المحتوى وخلوه من القوادح فذلك مجال آخر قد يغفل عنه الكثير ممن ينبهرون بظواهر الروايات ولا يهتمون إلا

(١) د/ عبد الله خلف الحمد، الإسناد وأهميته في نقد مرويات التاريخ الإسلامي، ص: ١٢ بتصرف (بحث غير منشور).

(٢) د/ صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، ١٠٩ وما بعدها.

يقول د/ عبد الله خلف الحمد: «إن القواعد النقدية التي وضعها العلماء المسلمون للتوصل إلى معرفة النص الصحيح، وإن كانت في الأصل خاصة بالحديث النبوي لكنها صالحة للتطبيق في مختلف العلوم الإسلامية، ولا سيما في مرويات التاريخ الإسلامي التي نهج مؤلفوها على منوال المحدثين في طريقة إيراد الخبر وسرد الروايات بالأسانيد، كما أن التاريخ عبارة عن أخبار ووثائق ونصوص، لا طريق للتثبت من صحتها إلا بتطبيق هذه القواعد المنهجية»^(١).

وفي تاريخ الطبري مثلاً نجد الإشارة واضحة إلى ضرورة اتباع منهج نقد السند، حيث يقول في مقدمته: «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، مما يستنكره قارنه أو يستشعنه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يُوت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا وإنما أذينا ذلك على نحو ما أدي إلينا»، ومع أن الطبري لم يمارس عملية النقد على روايات تاريخه، لكنه سهّل على النقاد من بعده مهمة نقدها داخلياً وخارجياً، أي نقد السند والمتن، حينما اعتمد الإسناد والرواية في تاريخه، فاستخدام الطبري للسند في الرواية، وتنبيهه في المقدمة على وجود روايات غير صحيحة في تاريخه، فتح الباب على مصراعيه لنقد الرواية التاريخية^(٢).

• المبحث الثاني: الإسناد في التراث الإباضي

مدخل:

لا ريب في أن فكرة الإسناد وتوظيف السند أمرٌ حاضرٌ في تراث المدرسة الإباضية ونتائجها العلمي، فمن جانب الإسناد الحديثي يمكن للباحث أن يلاحظ أن غالب ما أُلّف خلال القرنين الأول والثاني الهجريين يُضبط سنده عند نقل الحديث، خلافاً لما بعد القرن ٢ هـ^(٣).

(١) د/ عبد الله خلف الحمد، م. س، ص: ١٢.

(٢) البرزنجي، محمد بن طاهر، صحيح وضعيف تاريخ الطبري، مقدمة المحقق، ص: ٣٢، (نقلاً عن: د/ عبد الله خلف الحمد، م. س، ص: ١٢).

(٣) الحاج أحمد كروم، الحديث والمحدثون عند الإباضية، ص: ١٢٠، (بحث مرقون).

ويذكر الباحث الحاج أحمد كروم أمثلة لذلك، كالإشارة إلى التمييز بين السند العالي والنازل، والسند القوي والضعيف، والسند المقبول والمرفوض في الحديث، ويقول إن أعلى سند في مسند الربيع بن حبيب (ت: ١٧٠هـ) معتمد الإباضية في الحديث- هو السند الثلاثي فيه، الربيع عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة عن جابر بن زيد عن الصحابي. أما السند النازل كثيرا فيه هو في الحديث رقم ٨٢٤: قال الربيع أخبرنا بشر عن إسماعيل بن علية عن داود بن أبي عقيل عن أبي هند عن الشعبي عن مسروق قال....

أما في مدونة أبي غانم الخراساني (ت: أوائل ق ٣هـ)، فالعالي هو: أبو غانم قال أبو المؤرج حدثني أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس^(١). وكذلك السند الصحيح الموصول الموثوق هو: أبو غانم عن محمد بن محبوب عن أبيه عن الربيع عن أبي عبيدة عن جابر^(٢).

وقد أثار بعض الباحثين إشكالية غياب السند الموصول في كل حديث في تراث المدرسة الإباضية، متأثرين في ذلك بالمنهج الروائي عند أهل الحديث، في محاولة لإسقاط منهجهم على الإباضية، وجوابا عن ذلك يقول الباحث الحاج أحمد كروم:

«إشكالية غياب السند الموصول في كل حديث قد استغنى عنها المذهب الإباضي وعوضها بتنقية سلسلة سند المذهب الإباضي التي هي سند لجميع العلوم الدينية في المذهب»^(٣).

ويذكر بعض الباحثين المهتمين بالتراث الإباضي أن ثمة نوعا آخر من الإسناد تتميز به المدرسة الإباضية هو الإسناد الكتبي، ويتعلق الأمر بما استقر عليه العمل وتلقي بالقبول في القرون الثلاثة الهجرية الأولى من الأحكام الشرعية، حيث تنقلها الكتب اللاحقة عن الكتب السابقة^(٤)، مثل: مدونة أبي غانم الخراساني (ت أوائل ق ٣هـ)، وجامع أبي صفرة عبد الملك بن صفرة (ت أوائل ق ٣هـ)، وجامع ابن جعفر الإزكوي (ق ٣هـ)، وجامع أبي الحواري (ق ٣هـ)، وجامع ابن بركة

(١) الربيع بن حبيب، الجامع الصحيح، ٢/ ٢٦٥ .

(٢) م س، ٢/ ٤٠ .

(٣) الحاج أحمد كروم، مساهمات المدرسة الإباضية في خدمة السنة النبوية، ص: ٦٨.

(٤) مسعود المقبالي، بشارت ظهور المذهب الإباضي في العالم، (مادة سمعية) محاضرة ألقاها في مسجد بابا السعد الشرقي بغرداية، الجزائر، بتاريخ أبريل ٢٠١٣م.

(ق ٤ هـ)، وجامع أبي الحسن البسيوي (ق ٤ هـ)، وكتاب المعتبر لأبي سعيد الكمي (ق ٤ هـ)، وغيرها.

• التعريف بنسب الدين واهتمام علماء الإباضية به

إضافة إلى الإسناد الحديثي والإسناد الكتبي فقد تميز التراث الإباضي بنوع خاص من الإسناد يتمثل في إسناد الدين عامة، ويُعرف بـ: «نسب الدين». جاء في معجم مصطلحات الإباضية في التعريف بمصطلح: «نسب الدين» ما يلي:

«رواية العلم في المذهب الإباضي من عالم إلى آخر ومن شيخ إلى تلميذه، بحيث تشكلت من مجموع أولئك العلماء سلسلة متصلة عُرفت بنسب الدين. ونهاية سلسلة نسب الدين: أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة عن جابر بن زيد عن الصحابة رضوان الله عليهم عن رسول الله ﷺ»^(١).

إن هذه الطريقة من الإسناد -التي هي في جوهرها توثيقٌ لطريق نقل أمانة الدين- كانت وليدة حرص علماء الإباضية على سلامة الدين وتحصينه من كل ما يحرفه، وذلك باختيار العلماء الأكفاء الثقافات لرواية العلم عنهم.

وحتى نتبين من هذا الأمر بجلاء ينبغي علينا أن نتصور الظروف الصعبة التي كانت تحيط بالإباضية في العصر الأول من الاضطهاد والملاحقة أيام الأمويين والعباسيين بصفة خاصة، عندما شهدت الأمة انتهاكات صارخة لدينها ومنهج حكمها، مما جعلها خارج إطار الخلافة الراشدة، فإن فساد السياسة ينتج عنه فساد الدين .. بحيث يصبح العلم مجارياً لإرادة الحكام مذهباً لفسادهم.. الشيء الذي جعل الإباضية يناون بأنفسهم مستكرين للوضع الفاسد معارضين له، ساعين بكل ما أوتوه من قوة إلى الحفاظ على رسالة الإسلام نظيفة غير مشوبة ولا متأثرة بأدران السياسة الفاسدة والحكم المنحرف لمن أساءوا إلى الإسلام وشوهوه في مهده... .

ولعلماء الإباضية منذ الرعيل الأول مشاركة ومغاربة اهتماماً بهذا التوثيق العلمي لطريق نقل أمانة الدين عبر الأجيال، باعتبار الكفاءة العلمية والعدالة الدينية. ومن شواهد ذلك:

ما نُقل عن الإمام الثاني للإباضية أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة (ت: حوالي ١٤٥ هـ)

(١) مجموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضية، ٢/ ٩٩٦، مادة: نسب.

من قوله: «كل صاحب حديث ليس له إمام في الفقه فهو ضال، ولولا أن من الله علينا بجابر بن زيد لضللنا». وقوله: «من لم يكن له أستاذ من بين الصحابة فليس هو على شيء من الدين، وقد منَّ الله علينا بعبد الله بن عباس... وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن سلام، هم الراسخون في العلم، فعلى آثارهم اقتفينا وعلى سيرتهم اعتمدنا وعلى مناهجهم سلطنا، والحمد لله كثيرًا»^(١).

- ما أثر عن عبد الحميد الجناوني (ق ٣هـ) أحد كبار علماء الإباضية المتقدمين في جبل نفوسة بليبيا من قوله لأهل الجبل: «والله لقد تركتكم على الواضحة النيرة، تقود الضالَّ، وما بيني وبين رسول الله إلا ثلاثة رجال»^(٢).

- حرص كتب السير الإباضية على توثيق حركة التعلم والتعليم ورواية العلم، كتاريخ ابن سلام (ق ٣هـ) وسير كل من البغطوري (ق ٦هـ) والوسيان (ق ٦هـ) والدرجيني (ت: ٦٧٠هـ) والشماعي (ت: ٩٢٨هـ) وابن مداد (ق ١٠هـ) وغيرهم.

ومما جاء الاهتمام به فيها ذكر نسب الدين واحتفاء علماء المذهب به، مثل ما رواه الوسيان في سيره عن الشيخ أبي عمرو السوفي (ق ٦هـ) في إسناده يقول: «أخذ الدين أبو عمرو عن أبي العباس عن أبي الربيع سليمان بن خلف عن أبي عبد الله محمد بن بكر عن أبي نوح سعيد بن زنجيل عن أبي خزر عن سحنون بن أيوب عن سعيد بن أبي يونس وسيم بن نصر عن الإمام أفلح عن والده عبد الوهاب عن الإمام أبيه عبد الرحمن بن رستم عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي ﷺ عن جبريل عن ميكانل عن إسرافيل عن اللوح المحفوظ عن الله، لا إله إلا الله مخلصين ولو كره الكافرون». ثم قال: «وأما إسناد إخواننا وأهل مودتنا ودعوتنا الأطرابلسيين رحمة الله عليهم: أبو عمرو عن أبي العباس بن أبي عبد الله عن أبي الربيع عن أبي عبد الله عن أبي زكرياء فصيل عن والده أبي مسور عن أبي معروف عن أبي ذر أبان بن وسيم عن أبي خليل عن الخمسة الحملة العلم إلى المغرب عن أبي عبيدة رحمة الله عليهم»^(٣).

(١) مسلم بن أبي كريمة، أبو عبيدة، مسائل أبي عبيدة، ص: ٤٣ (مخ).

(٢) معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة: ٥٣٨.

(٣) الوسيان سليمان بن عبد السلام، سير الوسيان، ٥٣٨/٢.

- تطوير السلسلة الفردية لنسب الدين إلى نمط الطبقات، حيث روى الدرجيني عن أبي عمار عبد الكافي (ق ٦هـ) أنه وجد العزابة يسندون أمر دينهم واحدا عن واحد، كابر عن كابر، وثقة عن ثقة، فرأى من حسن نظره أن يكون ذلك جملة عن جملة^(١). فهذا التصريح من الدرجيني يدل على إبداع أبي عمار ومن بعده الدرجيني ثم الباروني محمد بن زكرياء في طبقاتهم بهذه السلاسل من الصورة المفردة إلى الجملة والجمع على شكل طبقة عن طبقة وهكذا؛ وفي هذا تطوير في التعاطي لفن الرجال والكتابة فيه على شكل طبقات.

• خصائص نسب الدين عند الإباضية:

من الخصائص التي يتميز بها نسب الدين عند الإباضية، والتي تُعد بمثابة الأطر والضوابط التي تبلورت وفقها حلقات البناء السندي للمذهب الإباضي، أمور ذات أهمية تتمثل في الآتي:

١- الارتكاز على العلم والتعلم

يقول الباحث: إن السيرة المتبعة عند مشايخ الإباضية منذ القديم هي أن لا يسمي التلميذ أحدا ممن تعلم عندهم من أساتذته شيئا له إلا إذا جلس إليه مرارا وتكرارا في حلقة درسه، وأخذ عنه دروسا كاملة عديدة، وفي الفقه وعلوم الشريعة؛ وبهذين الاعتبارين يسند التلميذ دينه إلى الذي أخذ عنه فتتكون نسبة الدين متسلسلة واحدا عن واحد^(٢).

ويقول الشيخ محمد بن زكرياء الباروني: «وفي الأثر عن المشايخ ما نصه: والذي يريد أن ينسب دينه إلى أحد من المسلمين فإنه لا ينسبه إليه حتى يتعلم من عنده شيئا من العلم»^(٣).

ويصرح القطب الشيخ أحمد اطفيش بأن اعتبار المدرس شيئا لتلميذه يكون بالقراءة ثلاث مرات أو أكثر عنده^(٤).

فالعلاقة التي تكون بين رجال نسب الدين هي علاقة علمية بين شيخ عالم وتلميذ متعلم،

(١) أحمد بن سعيد الدرجيني، أبو العباس، طبقات المشايخ بالمغرب، ٦/١.

(٢) بشير الحاج موسى، الشيخ سعيد بن علي بن يحيى الخيري الجربي... حياته ونوره في نهضة وادي ميزاب، ص: ١٠٠.

(٣) محمد بن زكرياء الباروني، نسبة الدين، ملحقة بسير الشماخي، ص: ٥٨٣.

(٤) أحمد بن يوسف اطفيش، شرح النيل وشفاء العليل، ١/ ٤١.

وهذا المسلك المتمثل في التعلم والتعليم هو السبيل الوحيد الذي يضمن استقرار الفكر وامتداده واستمراره. ولا ريب في ذلك، فمبدأ الإسلام نفسه واستمراره كان بالتعليم، وهو عين ما قام به النبي ﷺ، كما أقره الله تعالى بقوله: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [الجمعة: ٢]، وقوله: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [آل عمران: ١٦٤].

وقد اقترن الاهتمام بالتعليم بمختلف مراحل حياة الإباضية على قلب ظروفها، فمثلا كان ذلك صفة بارزة في سيرة الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة (ت: حوالي ١٤٥ هـ) الذي حبس نفسه للتعليم سنين عددا، فانتشرت دعوته في الآفاق بواسطة تلاميذه المعروفين بحملة العلم.

كما انتهج الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني النفوسي (ت: ٤٤٠ هـ) نفس المسلك عندما تدهورت أوضاع الإباضية بالمغرب وضعفت شوكتهم بعد سقوط الدولة الرستمية، فلم يكن المخرج من الأزمة إلا النظام التعليمي الذي عُرف فيما بعد بحلقة العزابة، حيث وضع الشيخ خطة تعليمية التف عليها الإباضية، تولى بنفسه شخصا تجسيدها والإشراف عليها ميدانيا بالارتحال مع طلبته والتنقل بين مواطن الإباضية بالمغرب.

وعلى نفس المسلك سار الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي (ت: ٩٢٧ هـ) في نهضته العلمية بوادي مزاب من تثبيت الأصل الذي قام عليه نظام حلقة العزابة وهو التفرغ للتعلم والتفقه في الدين، فأسس نظام «إروان» لنفس الهدف، إذ أدرك أنه هو المنهج الأمثل للنهوض بالمجتمع فكريا.

ومن مظاهر هذا المسلك وأثاره ما رواه البغطوري (ق ٦ هـ) في سيره أنه مرّ زمان على أهل جبل نفوسة فشا فيهم العلم حتى لا تحتاج منهم منزل إلى منزل في مسألة إلا من طريق الأدب والورع وما يجمل، فإذا نزلت مسألة في لألت دارت منازلهم إلى تغزمين، فإذا نزلت بتغزمين دارت إلى لألت ثم ترجع إلى المنزل الذي نزلت فيه فيفتونها، وذلك من كثرة عنايتهم بالعلم والتفقه ورعهم وزهدهم في الدنيا...^(١).

(١) مقرر بن محمد البغطوري، سيرة أهل نفوسة، ص: ٧٠ (مخ).

٢- نظافة السند وقربه

رجال سلسلة النسب الديني كلهم عدول ثقات، إذ الأمر متعلق بنقل أمانة الدين، فلا يمكن أن يسند الأمر إلى من ليس بثقة أمين. وقد حرص سلف الإباضية على ذلك منذ الرعيل الأول، ومن الشواهد الدالة على ذلك ما يلي:

- ما روي أن ناسا من أهل البصرة قالوا: انظروا لنا رجلا ورعا قريب الإسناد حتى نكتب عنه، ونترك ما سواه؛ فنظروا؛ فلم يجدوا غير الربيع بن حبيب، فطلبوا منه ذلك، وكان يروي لهم عن ضمام عن جابر بن زيد عن ابن عباس؛ فلما خاف أن يشيع أمره أغلق بابه علي نفسه دونهم؛ إلا من أتاه من إخوانه من المسلمين^(١).

- ما روى الوسياني من أن أبا خليل صال الدركلي النفوسي (ق ٣ هـ) كان يقول: «والله ما تركتكم إلا على الواضحة النيرة تفقد الضلال، وما بيني وبين رسول الله ﷺ إلا ثلاثة ولم أرهم»، وقد أخذ عن الخمسة أي حملة العلم- والخمسة عن أبي عبيدة، وأبو عبيدة عن جابر، وجابر عن ابن عباس، وابن عباس عن النبي ﷺ^(٢).

- ما ذكره الشيخ أمحمد أطفيش في معرض جوابه لمن سألَه ذكرَ فضل الشيخين أبي عبد الله محمد بن بكر الفرستائي النفوسي و محمد بن عبد العزيز اليسجني المصعبي وهو أحد أجداد الشيخ أطفيش، فقال الشيخ في مقدمة تعداد بعض فضائلهما: «فأما هما فيكفي فيهما ما تقدم من جريان نسبة الدين عليهما»^(٣)، ثم ساق جملة من فضائلهما. وفي كلام الشيخ هذا ما يدل على أن نسب الدين لا يجري إلا على العلماء العاملين ذوي الصلاح والعدالة والثقة والاستقامة^(٤).

(١) السالمي، شرح الجامع الصحيح: ٤/١.

(٢) الوسياني سليمان بن عبد السلام، سير الوسياني، ٥٣٨/٢. وفي رواية أن هذا الكلام لأبي عبيدة عبد الحميد الجنائني (ق ٣ هـ). ينظر معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة: ٥٣٨، ولا إشكال فالعلمان متعاصران.

(٣) محمد بن يوسف أطفيش، الرسالة المختصرة في بعض التواريخ، ص: ١٢٩.

(٤) لمعرفة نماذج من صفات العلماء الذين يجري نسب الدين عليهم ينظر ما ساقه الشيخ أطفيش من فضائل الشيخين في م س، ص: ١٢٩-١٣٣.

٣- الإذن من الشيخ بالإسناد إليه

من ضوابط نسب الدين أن التلميذ الراوي لا ينسب دينه إلى أستاذه بعد الدراسة عليه إلا بإجازته وإذنه، وهذا يفهم مما نقله الشيخ محمد بن زكرياء الباروني عن الشيخ أبي الربيع -ولعله المراتي- أنه إذا طلبه أحد ممن يتعلم عنده أن ينسب عنه دينه فلا يجيبه حتى يقرأ عليه عشر كلمات التي يتم بهن التوحيد، فإذا قرأهن الشيخ على من أراد أن ينسب دينه فحينئذ يأمره أن ينسب^(١).

• نبذة عن نسب الدين عند العمانيين

اهتم علماء الإباضية في عمان بموضوع نسب الدين وكتبوا فيه توصيفا وتحديدا، فمن التوصيف قول صاحب مخطوطة كشف الغمة وبيان فرق الأمة: «ولم نقلد ديننا أهل الضلال ولا رضينا بحكومة الرجال ولا أخذنا ذلك عن السفهاء والجهال، لأننا سمعنا ربنا يقول في محكم الكتاب المبين: {يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}، {ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون}، واتبعنا الصادقين الذين عُرف صدقهم وشُهرت عدالتهم... الاتقياء الأبرار الفضلاء الأخيار... الخ»^(٢)، ومثل هذا يوجد في العديد من كتب علماء عمان^(٣).

ومن التحديد ما جاء في كشف الغمة المذكور في آخر فصل منه حيث ذكر نسب الدين عند أهل عمان ونصه:

«رفع المذهب:

-الشيخ أبو الحسن علي بن محمد البسيوي وأبو محمد عبد الله بن محمد بن بركة وسعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب رحمهم الله، ومن كان بعصرهم من المسلمين،

-عن بشير وعبد الله ابني محمد بن محبوب وسعيد بن محرز والوضاح بن عقبة ومن

(١) محمد بن زكرياء الباروني، نسبة الدين، ملحقة بسير الشماخي، ص: ٥٨٣.

(٢) عماني مجهول، كشف الغمة وبيان فرق الأمة، وجه الورقة: ١٣٤ (مخ) خزانة الشيخ الحاج بابكر، غرداية/ الجزائر.

(٣) انظر مثلا: بيان الشرع لمحمد بن إبراهيم الكندي، ٣٨٣/٤.

كان بعضهم من المسلمين،

-عن موسى بن علي وهاشم بن غيلان ومحمد بن هاشم ومحمد بن محبوب ومن كان بعضهم من المسلمين،

-عن موسى بن أبي جابر ومنير بن النّير وسليمان بن عثمان ومحبوب بن الرحيل البصري ومن بعضهم من المسلمين،

-[عن الربيع بن حبيب البصري] ^(١) وخلف بن زياد البحراني وشيب بن عطية العماني، ومن بعضهم من المسلمين،

-عن الجلندي بن مسعود، وعبد الرحمن بن رسم الفارسي إمام أهل المغرب وجعفر بن السماك، ومن بعضهم من المسلمين،

-عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وفروة بن نوفل ووداع بن جويرة، ومن بعضهم من المسلمين،

-[عن عبد الله بن إباح وعروة بن جدير ومرداس بن جدير ومن بعضهم من المسلمين] ^(٢)،

-عن أبي الشعثاء جابر بن زيد وعبد الله بن وهب الراسبي وزيد بن صحوان العبدي، من بعضهم من المسلمين،

-عن عبد الله بن عباس وخزيمة بن ثابت ومحمد وعبد الله ابني بديل بن ورق الخزاعيين، وعمار بن ياسر وبلال وصهيب وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجراح والمهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

(١) سقط هذا من مخطوطتي كشف الغمة (الأولى في خزنة الشيخ الحاج بابكر، والثانية في خزنة الشيخ عمي سعيد الشخصية) وهو مثبت في النسب الوارد في كتاب منهج الطالبين كما سيأتي.

(٢) سقط من نسخة خزنة الشيخ الحاج بابكر.

- عن النبي محمد بن عبد الله «عن جبرائيل الأمين عن الله رب العالمين»^(١).

ونفس النسب جاء مثبتاً من قبل الشيخ خميس بن سعيد الرستاقى (ت: ق ١١ هـ)، في كتابه منهج الطالبين وبلاغ الراغبين، ٥٠٧/١.

• ملاحظة

ولنا أن نلاحظ تميز هذا الإسناد بعدم تفرد حلقاته بشخص واحد، بل نجد في كل حلقاته مجموعة من ٠٣ علماء فأكثر، وهذا النمط أقرب إلى نظام الطبقات، ولنا أن نقول إن صياغة نسب الدين بنظام الطبقات عند الإباضية سبق فيه المشاركة أهل المغرب، فصاحب كشف الغمة عاش في القرن ٥ هـ بينما يأتي أبو عمار عبد الكافي في ق ٦ هـ وهو أول من وضع نسب الدين لأهل المغرب على شكل طبقات.

ومن وثائق نسب الدين عند العمانيين ما أورده ابن مداد (ق ١٠ هـ) في سيرته، حيث أثبت سلسلة تبدأ من الشيخ العوتبي في القرنين ٥، ٦ هـ هكذا:

- أبو المنذر سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري،

- عن الشيخ سعيد بن قریش،

- عن محمد بن المختار،

- عن الشيخ أبي الحسن علي بن محمد البسياني الأصم،

- عن الشيخ محمد بن أبي الحسن النزواني،

- عن عبد الله بن محمد بن بركة،

- عن أبي مالك غسان بن محمد الصلاني،

- عن بشير وعبد الله ابني محمد بن محبوب،

- عن عزان بن الصقر العقري النزوي،

(١) كشف الغمة وبيان فرق الأمة، الورقة: ١٣٥ (مخ).

- عن الفضل بن عزان وأبي المؤثر الصلت بن خميس،

- عن محمد بن محبوب ومحمد بن علي والوضاح،

- عن موسى بن علي الإزكوي،

- عن هاشم بن غيلان السيجاني،

- عن موسى بن أبي جابر الإزكوي،

- عن الربيع بن حبيب الفراهيدي،

- عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي،

- عن جابر بن زيد الأزدي،

- عن عائشة وابن عباس وابن عمر، وغيرهم من الصحابة،

- عن النبي محمد ﷺ عن جبريل عن ربّ العزة^(١).

• الفرق بين الإسناد الحديثي والنسب الديني:

يتضح مما سبق أن ثمة فروقا جوهرية بين الإسناد الحديثي والنسب الديني، ولعل أهم تلك الفروق تتمثل في:

١. كون الإسناد الحديثي خاصا والنسب الديني عاما، فالرواية الحديثية تنحصر في نقل حديث أو خبر، بينما الرواية في النسب الديني تتعلق بأمر أعم وأشمل وهو نقل علوم الشريعة وأمانة الدين.

٢. كون الإسناد الحديثي في كثير من الأحيان يُهتم فيه بالنقل الشكلي بغض النظر عن المضمون، وهذا في الحقيقة كان مدخلا تسللت من خلاله العديد من المفاهيم التي تحملها مرويات غير صحيحة، خاصة عند تعارض الرواية مع القرآن الكريم، أما في النسب الديني

(١) عبد الله بن ممداد، السيرة، ص: ٢٤.

فإن الرواية تكون فيه بالإضافة إلى ضبط جانبها الشكلي مهمة بالفهم والدراية، ما ينتج عنه سلامة النقل لأمانة الدين عبر الأجيال.

٣. كون الإسناد الحديثي يركز في كثير من صورته على وجود السند ليس إلا، ولا يهتم بنظافة رجاله وعدالتهم، وهذا ما أدى لعلماء الحديث أنفسهم إلى تدارك الأمر بتأسيس علم الجرح والتعديل وبذلك أصبح جميع الروايات الحديثية محل التمهيص والنقد من جانب السند؛ أما النسب الديني فهو أبعد ما يكون عن هذا المسلك، لأنه لا ينتظم في عقده إلا من اشتهر بعدالته العلمية مع العدالة الدينية في الغالب.

•المبحث الثالث: نسب الدين عند الإباضية بالمغرب

بعد بيان اهتمام علماء الإباضية بالإسناد الديني=نسب الدين؛ نأتي إلى عرض ما أُلّف في نسب الدين عند إباضية المغرب، بمراعاة الترتيب الزمني.

عرض المؤلفات التي عُنيت بنسب الدين عند الإباضية بالمغرب:

١. نسب الدين المروي عن أبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي (ق ٦هـ)

أقدم عمل في حدود اطلاع الباحث من المرويات هو ما أثبتته الوسياني في سيره (ق ٦هـ) من نسب الدين عن الشيخ أبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي (ق ٦هـ). وهي سلسلة يسند فيها الشيخ أبو عمرو السوفي دينه إلى أبي العباس أحمد بن محمد عن أبي الربيع سليمان بن خلف عن أبي عبد الله محمد بن بكر ثم تفرق النسبة إلى طريقتين:

- طريق إسناد أهل وارجلان: أبو عبد الله عن أبي نوح سعيد بن زنگيل عن أبي خزر عن سحنون بن أيوب عن سعيد بن أبي يونس وسيم بن نصر عن الإمام أفلح عن والده عبد الوهاب عن الإمام أبيه عبد الرحمن بن رستم عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد ... الخ.

- إسناد أهل طرابلس: أبو عبد الله عن أبي زكرياء فصيل عن والده أبي مسور عن أبي معروف عن أبي ذر أبان بن وسيم عن أبي خليل عن الخمسة الحملة للعلم إلى المغرب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد ... الخ^(١).

(١) الوسياني سليمان بن عبد السلام، سير الوسياني، ٥٣٨/٢.

٢. نسب الدين لمقرن بن محمد البغطوري النفوسي (حي في ٥٩٩هـ)

وفي نفس الفترة الزمنية تقريبا أي في ق٦هـ يطالعنا الشيخ مقرن بن محمد البغطوري (حي في ٥٩٩هـ) بعمل مهم ألفه خصيصا لبيان نسبة الدين عند أهل نفوسة، وهو لا يزال مخطوطاً^(١).

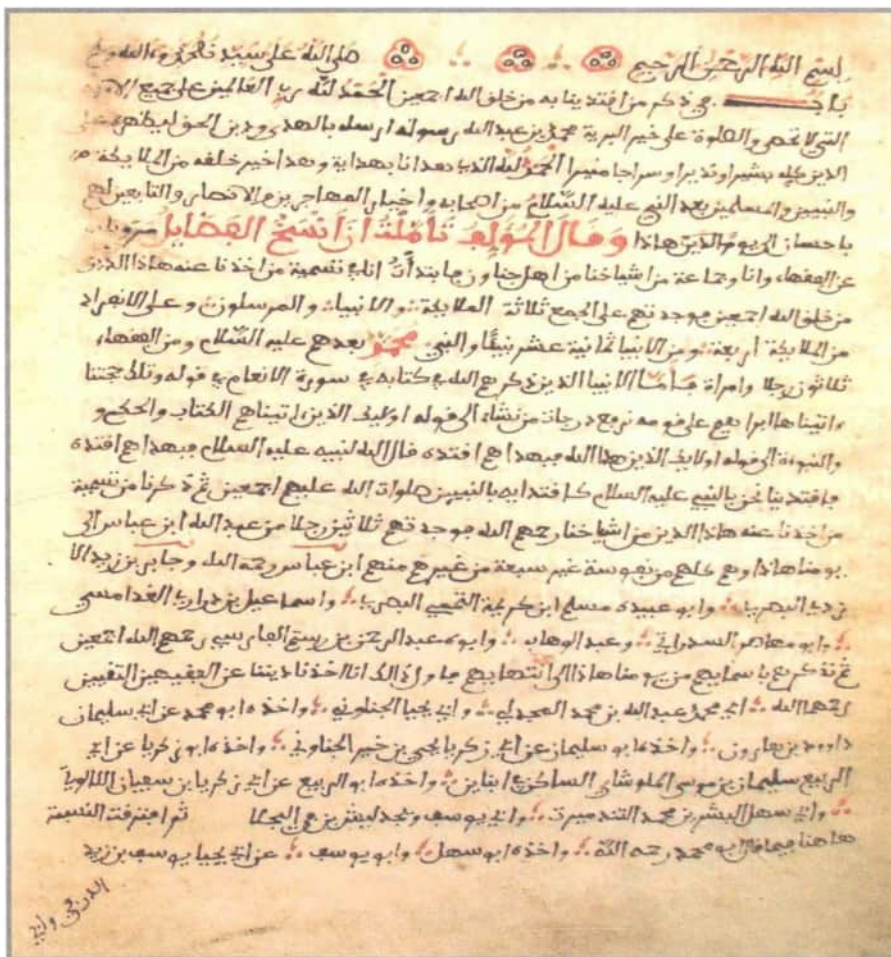
وقد استهل المؤلف عمله بمدخل أصّل فيه للنسب الديني عند الإباضية، حيث ركّز على حلقات النسب التي هي الملائكة ثم الأنبياء ثم العلماء، جمعا وإفرادا، حيث قال: «تأملت أن أنسخ الفضائل المرويات عن الفقهاء أنا وجماعة من أشياخنا أهل إجنّاوُن، فابتدأت أنا في تسمية من أخذنا عنه هذا الدين من خلق الله أجمعين فوجدتهم على الجمع ثلاثة: الملائكة والأنبياء والمسلمون، وعلى الإنفراد: من الملائكة أربعة، ومن الأنبياء ثمانية عشر نبينا وبعدهم النبي محمد ﷺ، ومن الفقهاء ثلاثون رجلا وامرأة. فأما الأنبياء فهم الذين ذكرهم الله في سورة الأنعام في قوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ} إلى قوله: {وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ}، قال الله لنبيه ﷺ: {فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ} فافتدينا نحن بالنبي ﷺ فافتداه بالنبيين صلوات الله عليهم أجمعين.

ثم ذكرنا تسمية من أخذنا عنه هذا الدين من أشياخنا رحمهم الله فوجدتهم ثلاثين رجلا، من عبد الله بن عباس ابن عم النبي ﷺ إلى يومنا هذا وكلهم من نفوسة، غير سبعة من غيرهم وهم: ابن عباس وجابر بن زيد الأزدي البصري وأبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمة التميمي البصري وإسماعيل بن درار الغدامسي وأبو مرداس مهاصر السدراتي والإمام عبد الوهاب ووالده الإمام عبد الرحمان بن رستم الفارسي رضي الله عنهم أجمعين»^(٢).

ثم أسند المؤلف دينه إلى الفقيهين أبي محمد عبد الله بن محمد المجذلي وأبي يحيى توفيق الجنائوني عن أبي سليمان داود بن هارون عن أبي زكرياء يحيى بن الخير الجنائوني... إلى آخر النسبة التي ستأتي في الإسناد الجامع.

(١) توجد منه نسخة في خزانة مخطوطات دار التلاميذ بغرداية، تحت رقم: ٢١٣/٥٦٢. ونسخة ثانية في خزانة الشيخ ج صالح لعلي ببن يزن.

(٢) مقرن بن محمد البغطوري، نسبة الدين، ص: ٠١ (مخ).



نسب الدين للشيخ مقرن بن محمد البغطوري (ق ٦هـ)، نسخة خزانة دار التلاميذ، غرداية

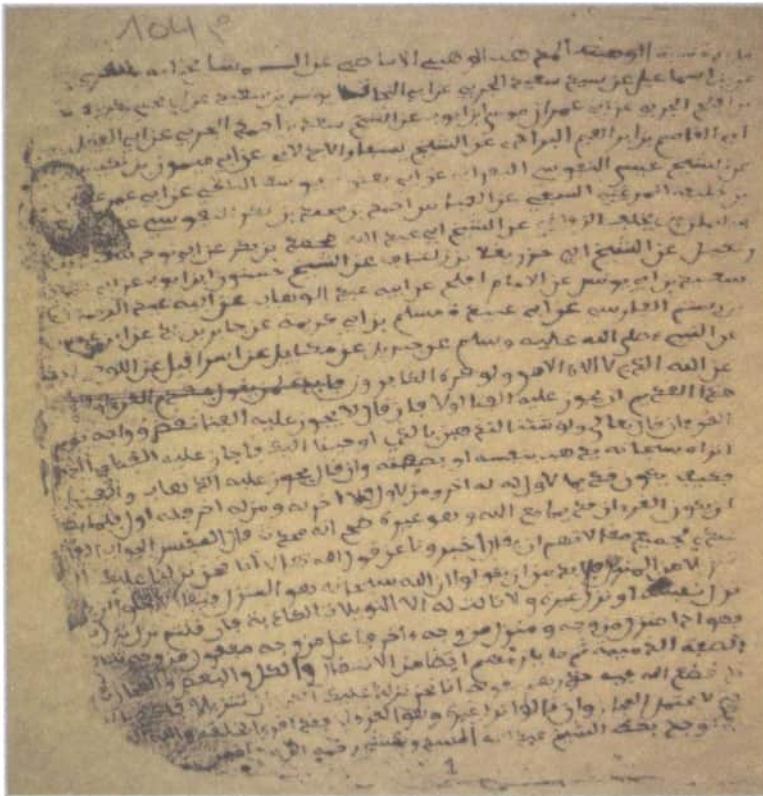
٣. نسب الدين لخليفة وسعيد النفوسيين (ق ٨هـ)

عثر الباحث على وثيقة مخطوطة في مكتبة القطب ببني يزقن في وادي مزاب، تضم نسبة الدين للشيخين خليفة وسعيد عن أستاذهما الشيخ عامر بن علي الشماخي (ت: ٧٩٢)، عن عيسى بن عيسى الطرميسي عن يحيى بن جدليش النفوسي عن زكرياء ابن إبراهيم الباروني عن وجدليش بن في الأملي... إلى آخر النسبة التي سنأتي في الإسناد الجامع.

ولم يقف الباحث على هوية المُسنِّدين في كتب التراجم، ولعلهما من تلاميذ الشماخي ممن لم يُكتب لهما الاشتهار.

٤. نسب الدين لأبي مهدي عيسى بن إسماعيل المليكي المصعبي (ت: ٩٧١هـ)

وهو في وثيقة مخطوطة بمكتبة الشيخ ج صالح لعلي ببني يزقن، أسند فيها الشيخ أبو مهدي عيسى بن إسماعيل دينه للشيخ سعيد بن علي الجريبي عن أبي النجاة يونس بن سعيد التعاريفي ... إلى آخر النسبة التي ستأتي في الإسناد الجامع.



نسب الدين للشيخ أبي مهدي عيسى بن إسماعيل المليكي، مخطوط بمكتبة الشيخ ج صالح لعلي ببني يزقن، وادي مزاب

٥. نسب الدين لمحمد بن زكرياء الباروني (ت: ٩٩٧هـ)

وهو من الأعمال المهمة في هذا الصدد، بناه مؤلفه على نسب الدين لمحمد البغطوري، وقد استهله بمقدمة بين فيها الغرض من كتابة نسبة الدين حيث قال: «قد طال ما يناجيني قلبي

أن أجمع بعض ما انتهى إلي من أسماء المشايخ الذين أخذ عنهم الدين ثقة عن ثقة واحدا عن واحد من أهل جبل نفوسة وغيرهم، ليكون المجموع من ذلك مفزعا في مثل هذا الغرض، ... إننا يختلج الشك بعض الخواص فضلا عن العوام»^(١). ثم اقتبس من البغطوري حديثا عن حلقات النسب التي هي الملائكة ثم الأنبياء ثم العلماء، جمعا وإفرادا، وبعدها شرع في بيان نسب الدين فأسند هو دينه إلى أبي سليمان داود بن إبراهيم التلاتي الجربي (ت: ٩٦٧هـ) عن أبي زكرياء بن عيسى الباروني وأبي القاسم بن يونس السديوشي ... إلى آخر النسبة التي ستأتي في الإسناد الجامع.

ثم نثى بذكر رحلته إلى وادي مزاب سنة ٩٦١هـ وتعلمه عند الشيخ أبي مهدي عيسى بن إسماعيل المليكي، وأثبت تفاصيل هامة عن تلك الطريق من نسب الدين، منها تفرع إسناد أبي القاسم البرادي إلى طريقتين، وكذا تفرع إسناد أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني إلى طريقتين. وختم بتفاصيل هامة عن مقتل أستاذه الشيخ أبي سليمان داود التلاتي سنة ٩٦٧هـ بأمر الحاكم درغوث بن علي التركي.

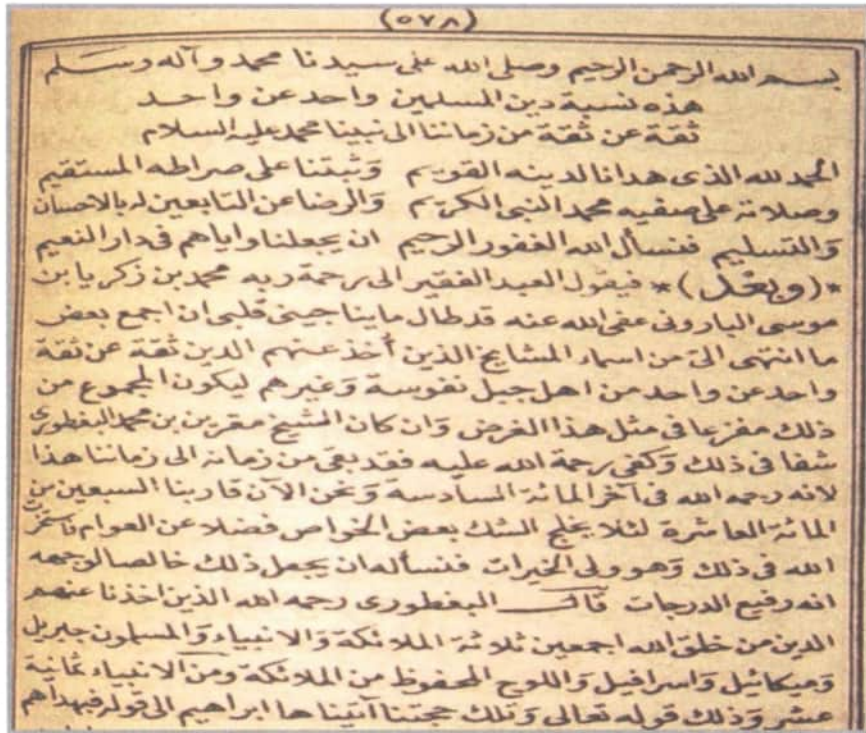
وقد أنجز الباروني هذا العمل نثرا، ثم صاغه في قالب نظم، في قصيدة ذات ٧٢ بيتا، مطلعها:

قال محمد الضعيف المذنبُ	أحمدك اللهم حمدا أرغبُ
في العون والتوفيق والإياب	صلاتنا على النبي الأواب
ثم قال:	

فهذه نسبة دين مسنده	كعقد درّ وياقوت محكمه
بحمد ربي لم أكن مُغيّبا	في مذهبي ونسبي مخيّبا

وقد طبع النسب النثري والنظمي ملحقين بسير الشماخي في الطبعة الحجرية سنة ١٣٠١هـ.

(١) محمد بن زكرياء الباروني، نسبة الدين، ملحقه بسير الشماخي، ص: ٥٧٨.



نسب الدين للشيخ محمد بن زكرياء الباروني، مطبوع ملحقا بسير الشماخي

٦. نسب الدين لسليمان بن أحمد الحيلاتي (ت: ١٠٩٩هـ)

نقل الشيخ أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي (ت: ١١٨٧هـ) في شرح القصيدة الحانية

نسب الدين للشيخ سليمان الحيلاتي (ت: ١٠٩٩هـ) نقلا من خطه، وقيده هكذا:

سليمان بن أحمد الحيلاتي عن قاسم بن سعيد الصدغياني عن شيخه أبي زيد عبد الرحمن
 بن أحمد الحيلاتي عن أبي يوسف بن صالح التندميرتي عن أبي النجاة يونس التعريتي الخيري
 عن أبي زكرياء بن أفلح الصدغياني عن أبي عمران موسى بن أيوب عن أبي الحياة يعيش بن
 موسى الزواغي بحومة أولاد أبي علي مسكنا عن أبي البر صالح المغراوي عن عمنا أبي سعيد
 عثمان الزراتي عن يفاو الأبدلاني عن ميمون بن تكيس الورغمي الساكن بأبدلان عن أبي عمر
 عثمان بن خليفة عن أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر عن أبي الربيع سليمان بن خلف
 المزاتي عن أبي عبد الله محمد بن بكر.

ثم تفرق النسبة إلى طريقين:

- طريق إسناد المغرب (أهل وارجلان وأريغ): أبو عبد الله عن أبي نوح سعيد بن زنجيل عن أبي خزر عن سحنون بن أيوب عن سعيد بن أبي يونس وسيم بن نصر عن الإمام أفلح عن والده عبد الوهاب عن الإمام أبيه عبد الرحمن بن رستم عن أبي عبيدة ... الخ.

- إسناد أهل جربة: أبو عبد الله محمد بن بكر عن أبي زكرياء عن أبيه أبي مسور يسجا عن أبي معروف عن محمد بن يانس عن أبي خليل يس من أهل دركل عن حملة العلم وهم: أبو الخطاب المعافري وعبد الرحمن بن رستم وإسماعيل بن درار الغدامسي وعاصم السدراتي وداود القبلي عن أبي عبيدة^(١).

٧. نسب الدين لأبي القاسم بن يحي المصعبي الغرداوي (ت ١١٠٢هـ)

الشيخ أبو القاسم بن يحي من علماء وادي مزاب المغمورين، له العديد من المؤلفات، منها شرح على الأجرومية، ومنها ٣ أعمال على نسب الدين:

- الأول: أسند المؤلف فيه دينه إلى أستاذه الشيخ أبي عمران موسى بن محمد التجنيني المصعبي عن عيسى بن سليمان اليسجني عن أبي عبد الله محمد بن سعيد اليسجني عن أبي سليمان داود الثلاثي ... إلى آخر النسبة التي ستأتي في الإسناد الجامع. وقد وضع أبو القاسم هذه النسبة نشرًا ونظمًا في ٢٣ بيتًا، ومطلع النظم:

- الثاني: وفيه يصرح الشيخ أبو القاسم بأخذه العلم عن الشيخ صالح بن أبي القاسم عن والده، عن أبي عبد الله محمد بن سعيد اليسجني عن أبي سليمان داود الثلاثي ... إلى آخر النسبة التي ستأتي في الإسناد الجامع. وقد وضع أبو القاسم هذه النسبة نشرًا ونظمًا في ٢١ بيتًا، ومطلع النظم:

(١) محمد بن يوسف المصعبي، شرح الحائية، ص: ٠٩.

أيا سائلا عن نسبة الدين هاك ما طابيت بعون الله قولا منظما
أخذتُ عن الشيخ المكرم صالح عن والده أعني أبا الفضل قاسما
عن محمد اليسجني وشيخه داوود التلاتي لجربة ينتما^(١)

الثالث: ويوجد ضمن قصيدة نونية طويلة لأبي القاسم تضم ١٩٩ بيتا، ضمنها مدحا لعلماء الإباضية، ومدح إمام الإباضية في عمان في عصره أحمد بن يوسف، ومدح شيخ عماني زائر لوادى مزاب واسمه: أحمد بن يحيى العماني، ثم ختم القصيدة بنسب الدين حيث صرح بأخذه العلم عن الشيخ أبي عمران موسى بن محمد التجنيني المصعبي، حيث يقول:

أخذته عن سيدي وسندي وقُدوتي وهو أبو عمران
موسى سليل أحمد المصعبي أسأذنا ذو العلم والبيان
أخذ عن عيسى النفوسي وهو قد أخذه عن محمد اليسجان^(٢)

(١) يوجد هذا النسب مخطوطا في خزانة عشيرة آل افضل ببني يزقن.
(٢) توجد نسخ عديدة مخطوطة من القصيدة، بحوزة الباحث ثلاث نسخ إحداها من مكتبة الشيخ الحاج بابكر بن مسعود الغرداوي، والأخرى من خزانة الشيخ عمي سعيد الخاصة، والثالثة من خزانة عشيرة آل بدر ببني يزقن .

٨. عمل الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش (١٣٣٢هـ):

أورد الشيخ اطفيش في كتابه «الرسالة المختصرة في بعض التواريخ» نسب الدين بداية من جده الأعلى الشيخ محمد بن عبد العزيز مسندا دينه إلى أبي مهدي عيسى بن إسماعيل عن الشيخ سعيد الجري عن أبي النجاة يونس بن سعيد التعاريتي... إلى آخر النسبة المعروفة والتي ستأتي في الإسناد الجامع.

ويفهم من كلام الشيخ اطفيش أنه قام بجمع ما أمكن له من طرق نسب الدين وقام بوصلها والمقارنة بينها، ثم سجل ملاحظة هامة قائلا: «...ثم إنه لا يخفى أن أهل كل عصر لا يجتمعون على الأخذ من عالم واحد بل لهم طرق لا تحصى ومعناها واحد ومنتهاها واحد»^(١).

ثم ضرب لتلك الطرق أمثلة، فمن القرن السادس نسب الشيخ مقرر بن محمد البغطوري عن أبي محمد عبد الله بن محمد المجذلي عن أبي الربيع سليمان بن موسى... الخ.

ومن القرن الثامن نسب الشيخ عامر بن علي الشماخي عن عيسى بن عيسى الطرميسي... الخ.

وفي القرن العاشر نسب محمد بن زكرياء الباروني عن أبي سليمان داود بن ابراهيم التلاتي الجري... الخ^(٢).

وقريب من عمل الشيخ اطفيش ما قام به الشيخ عبد الله بن يحيى الباروني (ت: ١٣٣٢هـ) في مؤلفه «رسالة سلم العامة والمبتدئين»، وقد اكتفى بنقل ما كتبه سابقوه من نسب الدين عند أهل جبل نفوسة، مبينا لطرق النسب ولم يضيف اطفيش ولا الباروني النسب الذي يصلهم ويصل معاصريهم بمن قبلهم^(٣).

(١) امحمد بن يوسف اطفيش، الرسالة المختصرة في بعض التواريخ، ص: ٨٥.

(٢) امحمد بن يوسف اطفيش، م س، ص: ٨٥.

(٣) عبد الله بن يحيى الباروني، رسالة سلم العامة والمبتدئين، ص: ٤٤.

٩. نسب الدين لأبي اليقظان إبراهيم بن عيسى المزابي (ت ١٣٩٤هـ)

من علماء الإباضية المعاصرين الذين اهتموا بكتابة نسب الدين كسلفهم الشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى القراري المزابي، ويعد عمله هذا ذا أهمية من قبل ما أضافه من حلقات الاتصال لطريق رواية العلم في وادي مزاب، بحيث تتصل سلسلة النسب من عصر الكاتب إلى العصر النبوي، وقال في مستهل ما كتبه من نسبه الديني: «أما بعد فهذا ما ثبت عندنا من نسب الدين وسنده منا إلى رسول الله ﷺ وهو كما يأتي:

أخذت أنا أبا اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى وأنا معاصر للشيخ بيوض إبراهيم بن عمر، أخذنا معا عن شيخنا الحاج عمر بن يحيى عن الشيخ اطفيش أحمد بن يوسف عن أخيه الحاج إبراهيم بن يوسف عن عمر بن سليمان نوح عن الشيخ أبي بكر بن كاسي القراري عن الشيخ الحاج يوسف بن حمو عن الشيخ عبد العزيز الثميني عن الشيخ يحيى بن صالح... الخ»^(١).

١٠. عمل الأستاذ ج أحمد بن حمو كروم (معاصر)

قام الباحث ج أحمد كروم في بحثه «الحديث والمحدثون عند الإباضية» وفي صدد معالجته لإشكالية الإسناد عند الإباضية بإيراد سلسلة لإسناد المذهب الإباضي، وقال إنه اقترحها مما توصل إليه جراء البحث في كتب التاريخ، رجاء أن تكون نواة لسلسلة تامة يمكن أن تكتمل في المستقبل.

وامتازت سلسلته بربط العلماء الأحياء الذين عاصروهم وهم من طبقة تلاميذ طلبة الشيخ أحمد بن يوسف اطفيش، وهي تبدأ بفرعين يلتقيان عند القطب، الأول يبدأ من الشيخ الناصر بن محمد المرموري عن الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض عن الشيخ الحاج عمر بن يحيى ويرو عن القطب اطفيش، والثاني يبدأ من الشيخ بالحاج بن عدون قشار عن الشيخ محمد بن سليمان مطهري عن الشيخ إبراهيم بن بكير حفار عن القطب اطفيش، إلى آخر النسبة المعروفة والتي ستأتي في الإسناد الجامع^(٢).

(١) أحمد فرص، أبو اليقظان كما عرفته، ص: ١٣٧.

(٢) الحاج أحمد كروم، الحديث والمحدثون عند الإباضية، ص: ١٢١، ١٢٢.

١١. عمل أمغار بن صابر الصدغياني (ق ١١هـ)

ذكر في ترجمة الشيخ أمغار بن صابر الصدغياني (ق ١١هـ): في معجم أعلام الإباضية^(١) أن له نظما في رفع المذهب الإباضي - في السند والرواية - إلى الرسول ﷺ، لكن لم نقف على ذلك في حدود اطلاعنا المتواضع.

• ملاحظات:

عند التأمل فيما سبق من المؤلفات التي عُثِيت بنسب الدين عند الإباضية بالمغرب فإنه تبدو للباحث جملة من الملاحظات هي في الحقيقة ممكن الأهمية في هذه المؤلفات، ويمكن إيجاز تلك الملاحظات فيما يلي:

١. إن كل عمل مما سبق عرضه من المؤلفات التي عُثِيت بنسب الدين عند الإباضية بالمغرب يعكس جانباً مهماً من واقع النشاط العلمي والحراك الثقافي الإباضي في إقليم المؤلف، فنسب أبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي (ق ٦هـ) مثلاً يعكس ذلك في منطقة أريغ ووارجلان.

ونسبه مع نسب مقرر بن محمد البغطوري النفوسي (حي في ٥٩٩هـ) ونسب الدين لخليفة وسعيد النفوسيين (ق ٨هـ) يعكسان ذلك في منطقة جبل نفوسة، وفي نسبة الدين للشيخ محمد بن زكرياء الباروني (ت: ٩٩٧هـ) شيء من ذلك.

كما أن نسب الباروني مع نسب الدين للشيخ سليمان بن أحمد الحيلاتي (ت: ١٠٩٩هـ) يعطيان صورة للحركة العلمية وروادها في جزيرة جربة.

أما نسب أبي مهدي عيسى بن إسماعيل المليكي المصعبي (ت: ٩٧١هـ) ونسب أبي القاسم بن يحيى المصعبي الغرداوي (ت ١١٠٢هـ) مع عمل الشيخ أحمد بن يوسف اطفيش (١٣٣٢هـ) ونسب أبي اليقظان إبراهيم بن عيسى المزابي (ت ١٣٩٤هـ) كل ذلك يشكل صورة جلية عن الازدهار العلمي والرواج الثقافي في منطقة وادي مزاب.

٢. هذه الأعمال المعروضة من طرق نسب الدين لمؤلفين مختلفي البلدان تفيد عند تأملها زمنياً تطور مسيرة التواجد الإباضي بالمغرب، فالتأليف في نسب الدين يدل نسبياً على استقرار الحركة

(١) قسم المغرب، الترجمة: ١٢٠.

العلمية وتجذرهما ورواجها، فنلاحظ ذلك بناء على التأمل في الأعمال السابقة أن التواجد الإباضي تطور بالانتقال من وارجلان إلى جبل نفوسة إلى جزيرة جربة، ثم إلى وادي مزاب مؤخرًا.

٣. هذه الأعمال المعروضة تمكن الباحث من معلومات مهمة تتعلق بالتواصل بين مناطق التواجد الإباضي وما كان بينها من هجرات للعلماء وبعثات طلابية ورحلات في طلب العلم وما إلى ذلك، فمما أفادته هذه الأعمال:

- تنقل أبي سليمان داود الثلاثي الجربي بين جربة وجبل نفوسة لطلب العلم.
- تنقل محمد بن زكرياء الباروني النفوسي بين جبل نفوسة وجربة ووادي مزاب لطلب العلم.
- هجرة عائلة أبي يعقوب المصعبي من وادي مزاب إلى جربة للتعليم والتعلم.
- هجرة الشيخ عمي سعيد الجربي إلى وادي مزاب للدعوة والتعليم.

• السلسلة الجامعة (الإسناد الجامع) لطرق نسب الدين عند الإباضية بالمغرب:

يرجع اهتمام الباحث بجمع طرق نسب الدين عند الإباضية بالمغرب إلى ما قبل عقد ونصف من الزمن، وذلك في إطار السعي لاستجلاء تاريخ الحركة العلمية بوادي مزاب وتتبع مراحلها، وقد تم له جمع كل ما أُلّف في هذا الصدد، فمنذ ذلك الحين وضع مسودة لسلسلة جامعة^(١)، وقد استثمرها بعض الباحثين في أعمالهم^(٢).

ولم أجد بعد بحث طويل- عملا يضم ربطا لكل طرق نسب الدين، إلا ما اطلعتُ عليه قبل سنتين تقريبا من محاولة مطبوعة على شرائح من الورق المقوى، بعنوان «السلسلة الذهبية» قام بإعدادها مجموعة من الطلبة تحت إشراف الأستاذ موسى بن إبراهيم قزريط. وقد ظهر في هذا العمل الاهتمام بإبراز رجال الحركة العلمية في مدينة غرداية بوادي مزاب ومشايخ العزابة بمسجدها^(٣).

(١) كان ذلك بتحفيز ومساعدة بعض الإخوان، وهم بالأخص: الأستاذ سعيد بن قاسم بوكرموش، والفاضل إسماعيل بن محمد بورورو.

(٢) منهم الباحث نور الدين كروشي في إطار أطروحته للماجستير في التاريخ، المتضمنة تحقيقا لجزء من كتاب «ملحق لسير الشماخي» تأليف الشيخ أبي اليقظان إبراهيم.

(٣) طلبة حلقات العلم لأهل الحق والثبات، إشراف قزريط موسى، السلسلة الذهبية، كله.

خاتمة: نتائج وتوصيات

١. أتاح هذا البحث التعرف على نمط خاص من الكتابة التاريخية عند الإباضية، يُعرف بنسب الدين، أو رفع المذهب أو إسناد المذهب، وهو فن يكاد يكون خاصاً بالإباضية بالنظر إلى الاهتمام به والتأكيد على توثيقه في مختلف العصور، وهو يعدّ ضرباً من ضروب الكتابة في السيرة عند الإباضية. وشبّه به ما عرف عند علماء الأندلس بكتب البرامج.

٢. يكتسي فن نسب الدين أهمية من عدة جوانب:

- من الجانب التاريخي للحركة العلمية، حيث يفصح عن قنوات التواصل بين المناطق الإباضية، ويدل على تاريخ الوجود الإباضي في المناطق المختلفة، كما يفيد فيما يتعلق بالرحلات والبعثات العلمية.

- من الجانب التوثيقي للإسناد الديني بحيث يعتبر نسب الدين هو الطريقة المعتمدة لدى الإباضية منذ القديم لرواية علوم الدين عامة، عن طريق العلماء والشيوخ المتصدرين لحلقات التعليم والإفتاء.

٣. تبيّن بعد جمع طرق نسب الدين عند الإباضية بالمغرب أن في النسب الجامع حلقات مرجعية كان علماؤها انتهى إليهم العلم في المغرب الإباضي بكافة، وتتمثل هذه الحلقات فيما يلي:

- حملة العلم وهم: في ق٢هـ: عبد الرحمن بن رستم الفارسي، أبو داود القبلي القنطراوي، أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، عاصم السدراتي، أبو الزاجر إسماعيل بن درار الغدامسي.

- في ق٥هـ: أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني النفوسي.

- في ق١٠هـ: أبو سليمان داود بن إبراهيم التلاتي.

- في ق١٣هـ: القطب الشيخ أحمد بن يوسف اطفيش.

٤. يوصي الباحث بضرورة تجلية موضوع الإسناد والنسب الديني والتعمق فيه، فهو من صلب الكتابة التاريخية عند الإباضية، وهو مما يميز الهوية الإباضية عبر مراحلها التاريخية.

المصادر والمراجع

• أحمد بن حمد الخليلي:

١. وسقط القناع، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب، سلطنة عُمان، ط١: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

أحمد بن سعيد الدرجيني، أبو العباس:

٢. طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق براهيم محمد طلاي، ط٢، د.م.ط، د.ب.ط.

أحمد بن سعيد الشماخي، أبو العباس:

٣. كتاب السير، طبع على ذمة ملتزمه محمد بن يوسف الباروني وشركاؤه، ١٣٠١هـ.

أحمد بن علي القلقشندي، أبو العباس:

٤. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. مطابع كوستاتسوماس وشركاؤه، القاهرة.

أحمد بن علي الخطيب البغدادي:

٥. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع: بيروت. ط٣: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

أحمد بن محمد فرصوص:

٦. أبو اليقظان كما عرفته، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب، سلطنة عُمان، ط٢: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

• أمحمد بن يوسف اطفيش:

١. الرسالة المختصرة في بعض التواريخ، ط١، على يد الحاج بكير بن الحاج قاسم بن الشيخ بالحاج القراري، طبعة حجرية، من نسخة نسخت بتاريخ: ٢٨ محرم ١٢٩٩هـ.

٢. شرح النيل وشفاء العليل، نشر: دار الفتح، بيروت؛ مكتبة الإرشاد، جدة؛ دار التراث العربي، ليبيا. ط٢: ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

• الأمل المشرق، الموقع:

١. معجم أعلام الإباضية: الإصدار ٠٢، (نسخة الكترونية).

• بشير بن موسى الحاج موسى:

١. الشيخ سعيد بن علي بن يحيى الخيري الجربي..، حياته ودوره في نهضة وادي ميزاب، نشر مؤسسة الشيخ عمي سعيد، غرداية. ط٢: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٢. الشيخ أبو القاسم بن يحيى المصعبي الغرداوي: مدخل لدراسة حياته وأثاره، (مقالات غير منشورة).

٣. سلسلة نسب الدين وطريق انتقال أمانة الإسلام عبر الأجيال وبيان مراحل وصولها إلى مواطن الإباضية بالمغرب من ق ١ إلى ق ١٤هـ، (عمل غير منشور).

الحاج أحمد بن حمو كروم:

٤. الحديث والمحدثون عند الإباضية، بحث مرقون، نشر جمعية عمي سعيد، ١٩٩٨م.

٥. إسهامات المدرسة الإباضية في خدمة السنة النبوية، نشر: مركب المنار بالجزائر، ط١: ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

• حمو بن عمر فخار:

١. كان حديثاً حسناً، نشر: جمعية التراث، القرارة-غرداية-الجزائر. ط١: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

خميس بن راشد العدوي، زكرياء بن خليفة المحرمي، خالد بن مبارك الوهبي:

٢. السنة الوحي والحكمة، قراءة في نصوص المدرسة الإباضية، مكتبة الغبيراء: سلطنة عُمان. ط١: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

• راغب السرجاني:

١. الإجازة سبق إسلامي وتقليد غربي، مقال منشور في الموقع الإلكتروني: «قصة الإسلام».

رواية إيجيكوم (شركة):

٢. الجامع للحديث النبوي، أدق وأعظم موسوعة لكتب السنة (موقع الكتروني: www.sonnaonline.com).

• سليمان بن ج باسه بامون:

١. منظومة معراج المجتهد في علم التجويد، نشره المؤلف بالتصوير، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

سليمان بن عبد السلام الوسياني، أبو الربيع:

٢. سير الوسياني، دراسة وتحقيق: عمر بن لقمان حمو سليمان بو عصبانة، ط١: ٢٠٠٩.

• صبحي الصالح:

١. علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين: بيروت-لبنان. ط١٤: ١٩٧٢م.

عبد الله بن حميد السالمي أبو محمد:

٢. شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب، نشر: مكتبة الإمام السالمي، سلطنة عُمان. ط١٠: ٢٠٠٤م.

• عبد الله خلف الحمد:

١. الإسناد وأهميته في نقد مرويات التاريخ الإسلامي، بحث غير منشور.

عبد الله بن مداد العماني:

٢. سيرة ابن مداد، نشر وزارة التراث: سلطنة عُمان. ط١: ١٩٨٤م.

عبد الله بن يحيى الباروني النفوسي:

٣. رسالة سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أنمة الدين، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عُمان. ط١: ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

• عماني مجهول:

١. كشف الغمة وبيان فرق الأمة، مخطوط، خزانة الشيخ الحاج بابكر، غرداية/ الجزائر.

• مؤسسة الشيخ عمي سعيد، غرداية/ الجزائر:

١. الفهارس العشرة للمخطوطات، (قرص مضغوط): ٢٠١٠م.

• مؤسسة المكتبة الشاملة:

١. المكتبة الشاملة، برعاية مكتب الدعوة بالروضة، (موقع الكتروني: shamela.ws)

• محمد بن زكرياء الباروني:

١. نسبة الدين، ملحقة بسير الشماخي، طبع على ذمة ملتزمه محمد بن يوسف الباروني وشركاؤه، ١٣٠١هـ.

• محمد بن يوسف المصعبي:

١. شرح الحائية المسماة بتحريض الطلبة، طبع على ذمة ملتزميه: رمضان يحيى الليني الخيري الجربي وشريكه الحاج محمد بن عيسى اليسجني، مطبعة كستليولا، مصر، ط١: ١٣١٥هـ.

• مجموعة من الباحثين:

١. معجم مصطلحات الإباضية: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، ط١: ٢٠٠٨.

• مسلم بن أبي كريمة، أبو عبيدة:

١. مسائل أبي عبيدة، مخطوط، نسخة خزانة دار التعليم بغرداية، الجزائر (نسخة مصورة بحوزة الباحث).

• مصطفى بن محمد شريفي:

١. المكتبة الشاملة الإباضية: جمعية التراث، القرارة، الجزائر، الإصدار ٢٠٠٢: ٢٠١٠، (نسخة إلكترونية).

• مقرن بن محمد البغطوري:

١. سيرة أهل نفوسة، مخطوط، مصور بمكتبة مؤسسة الشيخ عمي سعيد، غرداية الجزائر.

٢. نسبة الدين، مخطوط، خزانة دار التلاميذ، غرداية، الجزائر.

• نور الدين عتر:

١. منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر المعاصر: بيروت-لبنان، دار الفكر: دمشق-سورية، ط٣: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

• هناء دويدري:

١. السند العلمي في كتب برامج العلماء في الأندلس، مقال منشور في الموقع الإلكتروني: «شبكة صحاب السلفية».

منهجية الشيخ محمد بن عبدالله بن مداد الناعبي في كتابة سيرته المعروفة بسيرة العلماء

بدرية بنت علي بن جمعة الشعبي

أستاذة محاضرة بجامعة السلطان قابوس/ سلطنة عُمان

baj1332003@gmail.com

المقدمة

تعد سيرة ابن مداد من المصادر المهمة في دراسة التاريخ العماني ؛ نظرا لكونها من أقدم المصادر العمانية التي تستعرض علماء الإباضية بداية بالإمام جابر بن زيد وتلامذته بالبصرة مروراً بعلماء عمان في القرن الأول الهجري وحتى القرن التاسع الهجري، قدم ابن مداد أثناء استعراضه لأسماء العلماء، وكنيتهم، وحالتهم الصحية، ومن الأمثلة على ذلك تحديده للعالم ما إذا كان العالم أصم أو أعمى أو أعرج، وحدد الطريقة الصحيحة في نطق اسم العالم حيث ذكر « وأما صحار بضم الصاد صحار بن العبد ». وفي موضع آخر يقول ابن مداد « ومسعدة بن تميم ومسعدة بفتح الميم»، كما حدد أماكن إقامة العلماء، والمناصب التي تبوؤها، وحدد تاريخ وفاتهم .

تأتي أهمية السيرة أنها تفردت بذكر عدد من العلماء لم يعرف عنهم حتى الآن الكثير من المعلومات، وإنما تعد السيرة هي المصدر الأول الذي ذكرهم فلو لم يذكرهم ابن مداد لطوَّاهم الإهمال والنسيان على مر الزمن ولما عرفوا في وقتنا الحاضر ولو بالاسم فقط، منهم على سبيل المثال أحمد بن محمد بن عمر المنحي، أحمد بن محمد بن صالح النزوي، أحمد بن أبي الحسن بن سعيد بن أحمد النزوي، جعفر بن المبشر، جعفر بن زياد، جيفر بن محمد بن النعمان، الحسن بن زياد النزوي، سعوة بن الفضل الإيراني، عبدالمقتدر بن جيفر، عبدالله بن

الحكم النزوي ، وعبدالمقتدر بن الحكم ، وعبدالله بن محمد بن زنباغ وغيرهم كثيرون ذكرهم ابن مداد ، ولكن لا يعرف عنهم إلا ما كتبه عنهم في سيرته .

اعتمدت الكثير من الكتابات اللاحقة على سيرة ابن مداد ، حيث نقلت المصادر اللاحقة عليها مثل سرحان بن سعيد الأزكوي في كتابه كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، و عبد الله بن محمد بن عامر الخراسيني في الجزء الأول من كتابه فواكه العلوم في طاعة الحي القيوم ، والشيخ خميس بن سعيد الشقصي في الجزء الأول أيضا من كتابه منهج الطالبين وبلاغ الراغبين ، حيث نقل العلماء الثلاثة السالفين الذكر عن ابن مداد نقلا حرفيا . واعتمد الشيخ نور الدين عبد الله بن حميد السالمي على سيرة ابن مداد اعتمادا كبيرا في كتابه اللمعة المرضية من أشعة الإباضية ، التي خصصها للمؤلفات الإباضية ، كما رجع السالمي للسيرة في كتابة عدد من مواضيع تحفته .

وفي هذه الدراسة سنتناول سيرة الشيخ محمد بن عبدالله بن مداد الناعبي من حيث :

أولا : التعريف بمؤلف السيرة الشيخ محمد بن عبدالله الناعبي ، ودراسة حياته العلمية والتعرف على مؤلفاته والعصر الذي عاشه ، ودوره السياسي والاجتماعي.

ثانيا : التحقيق في نسبة سيرة العلماء إلى الشيخ محمد بن عبدالله ، وتوثيق العنوان من خلال دراسة نسخ مخطوطات السيرة .

ثالثا : منهجية ابن مداد في كتابة السيرة ، ودراسة فصول السيرة للتعرف على محتوياتها .

رابعا : مصادر ابن مداد في كتابة السيرة ، وقسيمها إلى مصادر إباضية وغير إباضية .

• أولا : التعريف بالشيخ محمد بن عبد الله المدادي الناعبي :

أ. اسمه ونشأته

هو أبو عبد الله ، محمد بن عبدالله بن مداد بن محمد الناعبي ، ولد بقرية العقر بسفالة نزوى ، لم تذكر المصادر سنة ولادته ولكننا نرجح أنها كانت في النصف الأول من القرن التاسع

الهجري ، نشأ وأخيه الأصغر مداد في كنف والديهما ، ورباهما أبوهما تربية علم وحب للمعرفة والاطلاع ؛ فنبح الولدين وبلغا درجة كبيرة من العلم وأصبحا في مصاف العلماء ، وكان محمد أكثر الولدين حبا للمعرفة والاطلاع الديني واللغوي ، و أيضا في مجالي الفلسفة والطب ، وبلغ من العلم مكانة أهله لتقدم والده وأخاه ، وأصبح مرجع لفتاوى العامة ومجال احترام وتقدير العلماء^(١)، ويتضح ذلك من خلال ما أورده البطاشي من استعراضه لنصوص وردت في الأثر تشير إلى تقدم محمد بن عبدالله وتصدر مكانته العلمية، وبلوغه منزلة علمية مرموقة ، حيث ذكر» ومما نقل من خط الفقيه محمد بن سليمان صحيح عندي وثابت لدي ما قد صح عند الشيخين عبد الله بن مداد ، ومحمد بن عبد الله واثبتاه في هذه الورقة ، فهو عندي ثابت كتبه محمد بن سليمان بن أحمد بيده»^(٢) .

شارك الشيخ محمد بن عبدالله في الحياة الثقافية ، فكانت له الكثير من الآراء حول المسائل الفقهية أو الطبية التي تعرض على العلماء في عصره ، حيث كانت تعرض مسائل فقهية على عدد من الفقهاء ويطلب رأيهم فيها ، أو قد يناقش أحد العلماء أقرانه من العلماء للتباحث في مسألة ما ، شارك الشيخ محمد في مثل هذا النوع من المناقشات ، وكانت له آراؤه التي حظيت بتقدير من زملائه علماء عصره ، ففي كثير من هذه الفتاوى يوصف الشيخ محمد بأنه الشيخ العالم الحبر ، أو العلامة ، ويصفه الشيخ ابن عبيدان وهو أحد علماء دولة اليعاربة حين يستشهد بالشيخ محمد بن عبد الله بقوله : « بأنه الشيخ العلامة محمد بن عبدالله»^(٣)، كما وصفه أحد النساخ بأنه « الشيخ العالم الأبر ، شمس الملة والدين ، جمال الإسلام والمسلمين»^(٤).

ب. تعليمه وشيوخه :

لم تورد المصادر أي معلومات حول نوعية التعليم الذي تلقاه محمد بن عبد الله بن مداد ، ولا من هم شيوخه ، إلا أنه يمكن استنباط ذلك من خلال مؤلفاته ، و أبرز علماء نزوى في فترة

(١) البطاشي ، سيف بن حمود بن حامد . إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان . ط ١ ، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي . السيب . ١٩٩٤ م . ج ٢ ، ص ٧١ .

(٢) نفسه ، ص ٧١ .

(٣) نفسه ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٤) مخطوط لبيان الشرع ، مكتبة الشيخ ناصر بن راشد الخروصي ، العوابي ، رقم المخطوط NK11 .

طفولته والذين بلا شك التقى بهم ابن مداد ودرس على يديهم أو تأثر بهم ، ومن أهم علماء
نزوى في تلك الفترة :

١. الشيخ عبد الله بن مداد بن محمد الناعبي

تلقى محمد بن عبدالله علومه الأولى على يد والده عبد الله بن مداد الذي كان من أبرز علماء
عصره ، ومرجع الفتيا ، ومحل تقدير واحترام من العلماء والأئمة ، عرف عنه ضلوعه في
الطب ، وعلم السر والأوقاف^(١) ، وفي علم الكيمياء ، والفقه ، والشعر ، وله مناظرات شعرية مع
الشيخ مفرج بن أحمد بن أبي النضر ، ولم يكن الشيخ محمد هو التلميذ الوحيد عند والده بل
كان برفقته أخاه مداد ، وظل الشيخ عبدالله محمد بن علي المعروف بابن عبد الباقي .

شارك الشيخ عبد الله بن مداد في المناقشات العلمية الفقهية التي كانت تتم بين علماء عصره
حول المسائل الفقيه التي ترد من الناس والتي يطلبون فيها معرفة الحكم الشرعي ، ومن الأمثلة
على تلك المناقشات حين ورد للشيخ ابن عبد الباقي مسألة حول امرأة وعدت زوجها بتمليك
نصف بيتها إن أنفق على ابنتها اليتيمة عشر سنين ، فوافق الزوج على ذلك وفعل أنفق على
الفتاة عدد من السنين ، إلا أن الفتاة وافها الأجل قبل انقضاء المدة المحددة ، فما رأي الشرع
في ذلك . هنا دار نقاش فقهي بين عدد من العلماء في تلك الفترة منهم الشيخ صالح بن محمد ،
والشيخ ابن عبد الباقي ، وشارك عبد الله بن مداد في هذا النقاش فكان رأيه أن الاتفاق أصبح
ملغي وتعاد له نفوده التي أنفقها على الفتاة ، أما الشيخ صالح فقد قال أن للرجل نصف البيت
وأن عليه تعويض السنين الباقية عليه بأن يدفعها لورثت الفتاة ، أما الشيخ ورد بن أحمد فقد قال
أن الرجل ليس له من البيت شيء ولا من ماله الذي أنفق ، وساند الشيخ ابن عبد الباقي استأذه
الشيخ عبد الله بن مداد واعتبر رأيه هو الأقرب إلى الصواب^(٢) .

(١) علم الأوقاف هو علم يبحث في التوافق بين الحرف والرقم وتستخرج منه أسرار الآيات القرآنية .

(٢) البطاشي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

ظل الشيخ عبدالله منارة للعلم سخر وقته لخدمة العلم والعلماء حتى آخر نفس من حياته حيث
رثاه أحد طلابه وهو الشيخ محمد بن علي بن عبد الباقي ، الذي حزن كثيرا على فراق معلمه
فكتب قصيدة يصف فيها أستاذه فنعاها بأجمل العبارات وأعذبها ، حيث قال :

بقراط مفلوجا مضى لسبيله	ومبرسما قد مات أفلاطون
وكذلك رسطاليس مفلوجا مضى	أيضا وجالينوسهم مبطون
وأبو علي هالك في شجة	ومع الخلافة ساورته منون
ما إن دواء الداء إلا للذي	إن قال للمعدوم كن فيكون
وكذلك عبد الله مات ميبسا	ولسانه في حلقه مخزون
فهو الحكيم ولا حكيم كمثلته	تاهت به يوم الفخار مزون
شذاك ابن مداد الفقيه المرتضى	بحر العلوم مهذب مأمون
علامة في دهره فهمامه	در العلوم بقلبه مكنون
فلتبكه محاجرنا دما	ولتذر أدمعها عليه عيون
فلكم وكم ماهر في طبه	أودى ببطن ضريحه مدفون
فعليه رحمة ربه وسلامه	ما لاح برق في الوكور حنون
فأذهب عليك من المهيمن رحمة	وأعلم بأنني بعدك المحزون (١)

(١) المرجع السابق ، ج ٢، ص ٨٦-٩٦.

٢. الشيخ محمد بن مداد بن محمد بن مداد الناعبي

من أبرز شيوخ محمد بن عبد الله عمه الشاعر والفقيه محمد بن مداد ، الذي بلا شك درس على يديه الشعر وعلوم اللغة العربية ، فالشاعر محمد بن مداد قرأ الشعر ، وتعلم علوم اللغة العربية وآدابها ، فنبغ في نظم الشعر^(١) ، وله ديوان شعري تناول فيه الكثير من المواضيع والمناسبات وله عدد من القصائد تتناول علماء المذهب الإباضي^(٢) .

٣. القاضي ورد بن أحمد بن مفرج بن أحمد بن مفرج البهلوي

القاضي ورد بن أحمد من عائلة علمية اشتهر أفرادها بالعلم ، تلقى تعليمه عن أبيه الشيخ أحمد بن مفرج ، نال الشيخ ورد احترام العلماء والأئمة الذين عاصروهم ، حيث استشاره الإمام أبو الحسن بن خميس بن عامر في أموال بني ربيعة الذين خرجوا عن طاعة الإمام ، فافتى الشيخ ورد بمعاينة بني ربيعة وذلك بقطع نخيلهم ، وله عدد من الفتاوى في كتب الأثر ، ويرجح البطاشي أن من تأليف الشيخ ورد كتاب المأثر ، انتقل الشيخ ورد إلى رحمة الله تعالى يوم الأربعاء عند زوال شمس السابع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٨٧٤ هـ / ٢٧ يوليو ١٤٧٠ م^(٣) .

٤. الشيخ صالح بن وضاح بن محمد بن أبي الحسن المنحي

نشأ في بيت علم ودين ، فوالده الشيخ وضاح من علماء عصره ، تلقى تعليمه على يد والده والشيخ أحمد بن مفرج البهلوي ، يصفه البطاشي بأنه من أغزر علماء عصره من خلال الأجوبة الفقهية التي أفتا فيها ، حصل الشيخ صالح على إجازة علمية في القراءات السبع من

(١) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١ .

(٢) صدر ديوان الشاعر محمد بن مداد بعنوان الإعجاز والإشهاد في أشعار ابن مداد ، حققه الشيخ مهنا بن خلفان الخروصي .

(٣) السالمي ، عبد الله بن حميد . مكتبة الإمام نور الدين السالمي . السيب ، ٢٠٠٠ ، ج ١ ، ص ٣٧٧ ؛ البطاشي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤ ؛ الهاشمي ، سعيد بن محمد ، دراسات في التاريخ العماني . ط ١ ، النادي الثقافي . مسقط . ٢٠١٠ م ، ص ١٨٦ ؛ السعدي ، فهد بن علي بن هاشل . معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية . ط ١ ، مكتبة الجيل الواعد . مسقط : ٢٠٠٧ م ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ .

أحد علماء الشاطبية في الحرم المكي ، ألف كتاب التبصرة في الأديان والأحكام ، ويقع في جزئين ، وله عدد من الأجوبة الفقهية ، وعدد من القصائد الفقهية . كان الشيخ صالح محل ثقة من رجال السلطة في عصره حيث استشاره السلطان سليمان بن المظفر بن سليمان النبهاني (ت : ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م) هو وزملاؤه من العلماء ، في مسألة إقامة صلاة الجمعة في نزوى ، فأفتت اللجنة المشكلة بعدم جواز ذلك على اعتبار أن نزوى غير ممصرة ، وأن السلطان لم ينتخب من قبل العلماء ^(١) . توفي الشيخ صالح في يوم الثلاثاء الثالث من جمادى الآخرة سنة ٨٧٥ هـ / ٢٧ نوفمبر ١٤٧٠ م ^(٢) .

قد لا يكون الشيخ محمد بن عبد الله تلقى العلم عن الشيخ صالح لفترات طويلة بحكم أن الشيخ صالح مقيم في منح ، ولكن مما لا شك فيه أن للشيخ صالح زيارات عدة لنزوى ، وقد تستمر هذه الزيارات لعدة أيام أو شهور ، بحكم أن نزوى عاصمة الإمامة وتعج بعدد كبير من العلماء ، وكان الهدف من هذه الزيارات من قبل الشيخ صالح الالتقاء بغيره من العلماء والتباحث معهم ، وفي المقابل فرصة ذهبية لطلاب العلم في الجلوس معه والاستفادة من علمه العزيز ، ومن ضمن هؤلاء الطلاب محمد بن عبد الله الذي بلا شك التقى بالشيخ المنحي وجلس إليه وتلقى على يديه عدد من الدروس القيمة ، كما حضر الجلسات الحوارية التي كانت تجمع الشيخ المنحي بغيره من علماء نزوى ، ونهل كغيره من طلبة العلم من الكثير من المعرفة من خلال هذه الحوارات العلمية .

ج. دور الشيخ محمد بن عبدالله بن مداد التعليمي :

حين بلغ الشيخ محمد بن عبد الله مبلغ الرجال ، وأصبح في مصاف العلماء الذين يعتد بفتواهم وتقصد مجالسهم ، حرص عدد من طلاب العلم على أخذ العلم منه ، وحضور مجلسه ، ومن بين هؤلاء الطلاب :

(١) البطاشي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٨ ؛ الهاشمي ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) ابن مداد ، محمد بن عبدالله . سيرة ابن مداد . سلسلة تراثنا . العدد ٥٦ . وزارة التراث والثقافة . مسقط : ١٩٨٤ ، ص ٤٥ ، ص ٢٦ ؛ البطاشي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٣ - ١٣٦ ؛ الهاشمي ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ - ١٨٥ ؛ السعدي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٦ - ١٩٨ .

١. الشيخ محمد بن علي بن محمد بن أحمد عبد الباقي النزوي

من عقر نزوى ولد ونشأ فيها ، عرف عنه حبه واجتهاده في العلم ، وحبه لشيخه محمد بن عبد الله بن مداد ، الذي تلقى على يديه الكثير من المعارف ، حيث يقول في شيخه :

عنيت ابن عبد الله ذاك محمدا تقيا نقيًا عالما وهو عادل (١)

تلقى ابن عبد الباقي تعليمه على يد عبد الله بن مداد ، وابنه محمد بن عبد الله حيث ذكر الشيخ ابن عبد الباقي في بعض اجوبته « هكذا حفظت من الأثر ومن أفواه أشياخي الذين أدركت وعندهم حملت كصالح بن وضاح وورد ومحمد بن عبد الله وعبد الله بن مداد» (٢) ، عرف الشيخ ابن عبد الباقي باحترامه لجميع مشايخه إلا أنه كان أكثر تقدير للشيخ عبد الله بن مداد وابنه محمد ؛ ويتضح لذلك من خلال المناقشات الفقهية التي كانت تدور بين العلماء حيث نجد الشيخ ابن عبد الباقي يقف إلى صف ابن مداد والدة ، ويرى أن رأييهما هو الأقرب إلى الصحة من وجهة نظره ، ومن الأمثلة على ذلك يقول ابن عبد الباقي في مسألة فقهية شارك فيها عدد من الفقهاء بالإضافة إلى محمد بن عبد الله والدة الشيخ عبد الله ، حيث يقول ابن عبد الباقي :

ابن مداد وجدت مسطرا	كما قلت أني للذي قلت قابل
وشايعة من قدروى عن محمد	فذاك أبو عبد الله المطاول
وهذا القول الصحيح نقلته	وبينت قول الكل فاسموا وسانلوا
أولوا العلم والقرآن والذكر أنهم	مصاييح دجن والسيوف الفواصل (٣)

(١) البطاشي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٩ .

حضر الشيخ ابن عبد الباقي مصادرة أموال النباهنة سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢ م وكتب نص قرار المصادرة ، كما حضر مصادرة أموال بني راحة في عهد الإمام محمد بن اسماعيل . وللشيخ عبد الباقي عدد من الأجوبة والأراجيز الفقهية ، وكتاب في الأصول ، وكتاب المراقي ^(١) .

٢ . الطبيب الشيخ راشد بن خلف العيني الرستاقى

ومن الذين تلقوا العلم على يد محمد بن عبد الله بن مداد ، الطبيب الشهير راشد بن خلف بن محمد بن عبد الله بن هاشم العيني الرستاقى، حيث تلقى عن ابن مداد الطب ، فنبغ راشد بن خلف في علم الطب وبلغ مبلغا تمكن من خلاله معارضة استاذة في بعض الأدوية ، حيث ذكر في لاميته التي كتبها في علم الطب وما توصل اليه من خلال تعلمه وتجاربه الطبية وعنوانها ب « زاد الفقير وجبر الكسير » و مطلعها :

أقول مقالا محكما ومفصلا لأهل النهى في الطب علما مكمل
وقال أيضا في لاميته معارضا استاذة الشيخ محمد بن عبد الله بن مداد في مدى الجدوى من شرب بول الإبل كعلاج لبعض الأمراض :

ويشرب بول الإبل والرسل للوبا وأما ابن مداد فقد قال فيه لا
يصح روايات الرسول حفظته بفرق شفاها عنه في جملة الملا
جزى الله عنا الخير من بحر علمه لنا كان عند الظماء وردا ومنهلا ^(٢)

اشتهرت عائلة ابن هاشم راشد بن خلف ، بمعرفتها الواسعة بعلم الطب وصاروا ممن يشار لهم بالبنان في الطب ليس في عمان فقط بل في عدد من الدول مثل بلاد فارس والهند ، وكان للطبيب راشد بن خلف مراسلات مع أطباء بلاد فارس ^(٣) .

نقل الطبيب راشد بن خلف العلم الذي تعلمه إلي ابن أخيه الفقيه والطبيب عميرة بن ثاني

(١) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ؛ الهاشمي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ ؛ السعدي ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) البطاشي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

الذي نقله إلى ابنه الشيخ الطبيب راشد بن عميرة ، الذي بدوره رجع إلى مؤلفات عم أبيه ، فاستفاد منها وسعى إلى اكمال مالم يجده في كتاباته ، كما انتهج نفس نهجه في التأليف ، حيث يقول الطبيب راشد بن عميرة : « أنني لم أجد غير ذكر بعض الأدوية وعلاجها في نظم الشيخ العالم العلامة راشد بن خلف ابن محمد بن عبد الله بن هاشم - رحمه الله - ولم يستقص في ذلك ، فأحببت ان اضع مختصرا نظمته في التشریح »^(١).

كتب الطبيب الفقيه راشد بن عميرة عدد من الكتب الطبية وهي : فاكهة ابن السبيل ، ومختصر فاكهة ابن السبيل ، مقاصد الدليل وبرهان السبيل ، رسالة في الكي بالنار ، وعدد من المنظومات الطبية^(٢).

٣. الشيخ سعيد بن زياد بن أحمد بن راشد البهلوي

تلقى الشيخ سعيد بن زياد تعليمه على يد عدد من كبار عصره من بينهما الشيخان المداديان محمد ، و مداد ، حيث يقول الشيخ سعيد بن زياد في سؤال عرض عليه ، وطلب رأييه فيه بعد أن كتب الشيخان محمد ومداد رأيهما ، حيث كتب " صحيح وثابت ما صح عند أسياننا من مسألة وجواب في هذا الكتاب إذ هو الحق والصواب كتبه أفقر عباد الله إلى رحمته سعيد بن زياد بن أحمد بيده حامدا لله وحده " ^(٣) .

والشيخ سعيد بن زياد من العلماء الذين حضروا مصادرة أموال بني نبهان سنة ٨٨٧ هـ / ٤٨٢ م ، ومن ضمن اللجنة التي شكلها الإمام محمد بن إسماعيل لمناقشة مسألة بيع الخيار واتخاذ قرار فقهي بخصوصه ، وذلك سنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م^(٤) .

(١) العبري ، حسين . قراءة في ثلاث قصائد طبية مخطوطة للشيخ الطبيب راشد بن عمير بن ثاني العيني . بحث مقدم لندوة من أعلام الطب في عمان في القرنين التاسع والعاشر الهجريين . ط ١ ، المنتدى الأدبي . مسقط : ٢٠٠٨ م ، ص ٢٤ .

(٢) الهنائي ، علي بن طالب . التطبيقات الطبية في مؤلفات راشد بن عميرة الرستاق . بحث مقدم لندوة من أعلام الطب في عمان في القرنين التاسع والعاشر الهجريين . ط ١ ، المنتدى الأدبي . مسقط : ٢٠٠٨ م ، ص ٣٣ - ٣٤ .

(٣) البطاشي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

(٤) ابن مداد ، المصدر السابق ، ص ٥٤ ؛ السالمي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧١ ، ٣٨٠ ، السعدي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

• آثار الشيخ محمد بن عبدالله بن مداد العلمية

المتتبع للآثار العلمية للشيخ ابن مداد يجد التنوع في موضوعات المؤلفات ، وبالرغم من ضياع عدد من مؤلفاته وعدم القدرة على الاطلاع عليها ، إلا أنه يمكننا ان نستشف من خلال ما تبقى من المؤلفات مدى سعة اطلاعه ، وموسوعية معرفته ، ومن مؤلفات الشيخ ابن مداد ، بالإضافة إلى سيرة العلماء ، كتاب اللال في أبنية الأفعال ، لم تتبق منه إلا بعض الأوراق ، وكتاب في الصرف ، وهو الآخر لم تتبق منه إلا أوراق قليلة ، اختصر فيه أبنية الأفعال ، وله كتاب اعتقاد دينونة ، وعدد من الفتاوي ، كما أعاد ترتيب أجزاء من بيان الشرع (١) ، ولكونه طبيب فله عدد من الوصفات الطبية ، منها ما وصفه لرجل يعاني من مرض في رنته ، حيث كان يخرج من صدره قيح وصيد كثير ، فوصف له ابن مداد وصفة طبية مكونة من بعض الأعشاب مضاف إليها حليب الغنم ، كما وصف لرجل يعاني من ألم في الجانب الأيسر من بطنه أن يأكل الزبيب وقليل من القرفة .

للشيخ محمد بن عبد الله من القصائد التي كتبها في الحث على عباده معينه أو في التقرب من الله تعالى ومنها :

كن في المساجد ساكنا متواضعا	وابسط إذا صليت ظهرك راععا
فإذا سجدت فناجي ربك واقرب	بالقلب منه في سجودك خاشعا
ولجعل همومك في صلاحك ولحا	هما يكون لما أهمك جامعا
ومن الموسوس فاحترس متيقظا	واحذر سنانا نحو صدرك شارعا
متعودا بالله من نزغاته	إني رأيت له التعوذ قامعا
متخشا فيها وقورا ساكنا	للقلب في كل الخواطر نازعا
أقم الصلاة فإنها موزونة	إن لم تقمها كان سعيك ضاعا

(١) مخطوط بيان الشرع ، مكتبة الشيخ ناصر بن راشد الخروصي ، NK١١ ؛ البطاشي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

(٣) نفسه، ص ١٤٤ .

للرد واجعل حسن ظنك شافعا

كن بين راج للقبول وخائف

حققت إجابة من دعاه طائعا (١)

وإذا دعوت الله فاضرع وابتهل

ومن أعماله أن طلب منه بعض الأشخاص مشورته في أن يحولوا مسجد ضوت في نزوى من الجهة الشرقية للفلج ضوت إلى الجهة الغربية نتيجة لتدمير بعض أجزائه بفعل الأودية والأمطار (٢).

يتضح من خلال مؤلفات ابن مدام ، وشيوخه وطلابه مدى توسع اهتماماته العلمية ، فهو مفتي ومحل ثقة الناس واحترامهم ، وعالم بشؤون اللغة العربية حيث ألف فيها كتابين ، وله عدد من القصائد الشعرية ، وعالم في التاريخ وخصوصا تاريخ المذهب الإباضي ، كما سيتضح لنا من خلال سيرته ، وطبيب يشار إليه بالبنان يقصده الناس للتداوي على يديه ، وفيلسوف درس الفلسفة ، حيث ارتبطت الفلسفة في العصور الإسلامية بتعلم الطب لأنهم أخذوها من الأطباء اليونانيين ، وارتبط الطب بتعلم علم الكيمياء ، حيث كان الأطباء هم من يقومون بدور الصيدلي فيصنعون الأدوية ، فكان لزاما على الطبيب أن يكون ملما بعلوم الأغذية والكيمياء ، ولأن أطباؤنا كانوا فقهاء وذو علم واسع في الشريعة ؛ تعلموا علم السر والأوقاف ، نظرا لقدرة كلام الله على الشفاء ، وتأثيره على نفسيات المرضى حيث يذهب عنهم الخوف والحزن ويرع في أنفسهم إيمانا صادقا بالشفاء بإذنه تعالى .

إن الشيخ محمد بن عبد الله عالم موسوعي ذو علم واسع ودراية كبيرة في عدد العلوم ، وهذا شأن علماؤنا الذين يبدأ تعلمهم بحفظ القرآن الكريم ، وتدبر معانيه ، ودارسة النحو وعلوم اللغة ، ثم التعمق في علم الفقه وعلم العقيدة ، حتى يصبح فقيها عالما بأمور دينه ودنياه ، بعدها يتخصص كل فرد في العلم الذي يستهويه ، فمنهم من يشتغل بعلوم اللغة والشعر ومنهم من يشتغل بالطب ، ومنهم من يدرس الفلك ، وهذا ما نأمل أن يصل إليه التعليم المعاصر ، أن يخرج علماء موسوعيين .

(١) السيفي ، محمد بن عبد الله . النميز حكايات وروايات : ٢٠٠٧ م . ج ٢ ، ص ١٥٥ .

(٢) البطاشي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

هـ - الأوضاع السياسية خلال الفترة التي عاصرها الشيخ محمد بن عبد الله ودوره السياسي :

شهد القرنين التاسع والعاشر الهجريين العديد من الأحداث السياسية ، فعمان خلال هذين القرنين كانت الامامة الخامسة (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م - ٩٦٤ هـ / ١٥٥٧ م) التي تولى الإمامة خلالها ١٠ أنمة ، وهم : الإمام مالك بن الحواري بن مالك (٨٠٩ هـ - ٨٣٢) ، الإمام الحواري بن مالك بن الحواري (٨٣٢ هـ - ٨٣٩ هـ) ، والإمام أبو الحسن محمد بن خميس بن عامر (٨٣٩ هـ - ٨٤٦ هـ) و الإمام عمر بن الخطاب الخروصي (٨٨٥ هـ - ٨٩٤ هـ) ، و الإمام محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج البهلوي^(١) ، الإمام عمر الشريف ، والإمام أحمد بن عمر الربيعي ، والإمام أبو الحسن بن عبد السلام ، الإمام محمد بن إسماعيل القضاعي (٩٠٦ هـ - ٩٤٢ هـ) والإمام بركات بن محمد بن إسماعيل (٩٤٢ هـ - ٩٦٤ هـ)^(٢) .

شهدت إمامة الإمام عمر بن الخطاب الخروصي (٨٨٥ هـ - ٨٩٤ هـ / ١٤٨٠ م - ١٥٠٠) صراع بين الإمام والملك النبهاني سليمان بن سليمان ، نتج عنه تمكن الإمام عمر بن الخطاب من السيطرة على نزوى وانتزاعها من السيطرة النبهانية ، وذلك عام ٨٨٦ هـ / ١٤٨٢ م^(٣) .

بعد أن استقر الأمر للإمام عمر في نزوى واجهته اشكالية أموال بني نبهان في نزوى ، لمن تؤول ملكيتها بعد خروج بني نبهان منها ، فشكل الإمام محاكمة لعرض القضية ومن ثم الحصول على قرار قضائي يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة سنة ٨٨٧ هـ / ٢٥ يوليو ١٤٨٣ م^(٤) . تشكلت المحكمة من رئيس قضاة الإمام عمر بن الخطاب ، القاضي العلامة أبو

(١) تولى القاضي محمد بن سليمان بن أحمد الإمامة ثلاث مرات على سبيل الاحتساب إلى أن يتم تعيين إمام . الهاشمي ، المرجع السابق ، ص ١٩٥

(٢) الموعولي ، محمد بن عامر بن راشد بن سعيد ، قصص وأخبار جرت في عمان ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط ٢ ، وزارة التراث والثقافة ، مسقط ، ١٩٨٣ م ، ص ٨٢ - ٨٥ ؛ السالمي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٦ - ٣٩٥ .

(٣) الموعولي ، المصدر السابق ، ص ٨٣ ؛ السالمي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٨ ؛ الخصيبي ، محمد بن راشد بن عزيز ، شقائق النعمان على سموط الجمال ، ط ٣ ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٩٤ ، ج ٢ ، ص ٢١٣ ؛ الحارثي ، سالم بن حمد الحارثي ، العقود الفضية في أصول الإباضية ، وزارة التراث والثقافة ، مسقط ، ١٩٨٢ م ، ص ٣٥٨ .

(٤) حند الموعولي تاريخ المحاكمة عشية الأربعاء لسبع ليال أو لتسع ليل خلون من جمادى الآخرة سنة ٨٨٧ هـ . الموعولي ، المصدر السابق ، ص ٨٤ .

عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج كرئيسا للمحكمة^(١) ، والشيخ أحمد بن صالح بن عمر بن أحمد قاضيا للمحكمة ، وتولى الشيخ محمد بن عمر بن أحمد الدفاع عن المظلّمين الذين ظلمهم بنو نيهان ، أما محامي الدفاع عن السلطان النبهاني فهو الشيخ أحمد بن عمر بن أحمد . وبالرغم من أن جميع أعضاء هذه المحاكمة من أسرة واحدة فالشيخين أحمد بن عمر و محمد بن عمر أخوين وهما أبناء هم للشيخ محمد بن سليمان ، والشيخ أحمد بن صالح هو ابن أخاهما الشيخ صالح بن عمر ، وعلى الرغم من أن جميع أعضاء هذه المحاكمة هم من عائلة واحدة إلا أن جميعهم عرف عنهم الصلاح والورع ، فحظيت هذه المحاكمة باحترام الجميع . صدر حكم القاضي أحمد بن صالح بمصادرة أموال النباهنة وأن تعود ملكيتها إلي الفقراء ومن ظلمهم بني نيهان من أهل عمان^(٢) .

كان الشيخ محمد بن عبدالله والده الشيخ عبدالله بن مداد شهود علي هذه المحاكمة ، كما شهدا على نص الحكم ، فقلد عرض عليهما نص الحكم ، فأفتيا بنفاد الحكم ، وكتب الشيخ محمد بن عبد الله « صح عندي وثبت لدي أن جميع هذه الأملاك التي خلفها السيد سليمان بن المظفر قد استهلكتها الديون التي على سليمان و الضمانات ، وقد صارت جميع هذه الأملاك والأموال دون أولاد سليمان ينفذها في عز الدولة وكذلك الزروع الحاضرة وغيرها صارت للإمام . كتبه الفقير لله محمد بن عبد الله بن مداد بيده^(٣) .

بعد وفاة الإمام عمر بن الخطاب الخروصي سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م ، شهدت الإمامة وضعاً مضطرب غير مستقر ، حيث شهدت الإمامة أكثر من إمام خلال الفترة من (٨٩٤ هـ - ٩٠٦ هـ / ١٤٨٨ م - ١٥٠٠ م) كما أن القاضي محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج شغل منصب الإمامة ثلاث مرات محتسباً ، ولم يستقر منصب الإمامة إلا بتولي الإمام محمد بن إسماعيل الحاضري ،

(١) شغل القاضي محمد بن سليمان منصب القاضي العام بعمان بعد وفاة القاضي ورد بن أحمد بن مفرج سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٤٢ م . الهاشمي ، المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

(٢) الأركوي ، سرحان بن سعيد ، كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، تحقيق حسن محمد عبد الله النابودة ، دار البارودي ، ج ٢ ، ٩١٦ - ٩١٧ ؛ المعولي ، المصدر السابق ، ص ٨٣ - ٤٨ ؛ السالمي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ ؛ الهاشمي ، المرجع السابق ، ١٩٧ - ١٩٨ .

(٣) السالمي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٠ .

الذي شغل المنصب لمدة ٣٦ سنة^(١)، ودخل في صراع مع الملك سليمان بن سليمان النبهاني وبني رواحه الذين ساندوا الملك النبهاني، وتمكن الإمام من هزيمة الملك، فصادر الإمام أموال بني رواحه، وذلك بحضور كبار العلماء في تلك الفترة ومن بينهم الشيخ محمد بن عبد الله وأخيه مداد، وكان ذلك سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م^(٢).

و - وفاة الشيخ محمد بن عبد الله :

انتقل الشيخ محمد إلى رحمة الله ليلة الجمعة من شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م^(٣)، ودفن بالقرب من مساجد العباد بنزوى^(٤)، بعد حياة حافلة بطلب العلم، وتعليم طلاب العلم، ومشاركة للناس في حياتهم اليومية.

• ثانيا : التحقيق في نسبة سيرة العلماء إلى الشيخ محمد بن عبد الله ، وتوثيق العنوان من خلال دراسة نسخ مخطوطات السيرة .

تمكنت إلى الآن من الحصول على ١٣ نسخة من مخطوط سيرة العلماء سواء من داخل السلطنة أو خارجها ، وسنستعرض هنا أقدم النسخ فقط مع ملخص بسيط عن كل مخطوط وذكر العنوان الذي وجد في المخطوط ، وبداية كل مخطوط ونهايته ، والهدف من ذلك استيضاح بعض النقاط لدارستها وهذه النقاط هي :

١- دراسة نسبة السيرة إلى الشيخ محمد بن عبد الله الناعبي .

٢- دراسة فصول السيرة ومعرفة خاتمتها .

(١) الأركوي ، المصدر السابق ج ٢ ، ص ٩١٦ - ٩٢٠ ؛ السالمي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٦ ؛ الخصيبي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ ، الحارثي ، المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(٢) السالمي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٠ - ٣٨٢ ؛ البطاشي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٣ ؛ الهاشمي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(٣) الأركوي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٢٢ ؛ السالمي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٣ ؛ البطاشي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

(٤) مساجد العباد ، مساجد بنيت بين الجبال والوديان ، ذات مساحة صغيرة ، بنيت بهدف التعبد والاعتكاف بعيدا عن ضوضاء الحياة، وتوجد في كل من نزوى وبهلا ومنح والريستاق . موقع وزارة الأوقاف الإلكتروني : www.Maraoman.net

• نسخة مكتبة الشيخ ناصر بن راشد الخروصي :

أقدم هذه النسخ نسخة مكتبة الشيخ ناصر بن راشد الخروصي بولاية العوابي ، نسخ المخطوط محمد بن علي بن راشد بن يحيى بن عبدالله بن ناصر بن محمد بن حارث بن منصور الخروصي ، نسخه لنفسه يوم الخميس الأول من شهر ذي القعدة سنة ١١١١هـ / ١٦٩٩ م . يقع المخطوط ضمن الجزء الخامس من كتاب بيان الشرع .

العنوان : معرفة جميع العلماء وأكثيتهم وبلدانهم وموتهم .

أول المخطوط : الحمد لله الذي لا تكفيه الأفكار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تتركه الأبصار .

آخره : هزيمة السلطان سليمان بن سليمان على يد عامل ابن جبر سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م .

• نسختا مكتبة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي :

تضم مكتبة المفتي العام للسلطنة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي بين جنباتها العديد من المخطوطات ، وفيما يتعلق بمخطوط سير العلماء فالمكتبة تضم مخطوطان أولهما :

تقع هذه النسخة ضمن مخطوط يضم عدد من السير الإباضية وعددها اثنان و أربعون سيرة ، يبدأ المخطوط بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كتبها المعلى الحضرمي ، و كتبت سيرة العلماء في نهاية المخطوط أي أنها السيرة الثانية و الأربعون ، وتقع سيرة العلماء في ١٦ ورقة ، وفي كل صفحة حوالي ٢٥ سطرا ، وهو بحالة جيدة ، وكتب بخط واضح ، تم الانتهاء من نسخه يوم السبت ٢٩ صفر سنة ١١٣١ هـ / ١١٧٣ م ، نسخه سعيد بن عبدالله بن أحمد بن خلف بن أحمد أمبوسعيدى نسخه للشيخ محمد بن سليمان بن محمد بن بلعرب بن عبدالله بن بني محمد بن سليمان .

العنوان : صفة نسب العلماء وموتهم وبلدانهم والأئمة رحمهم الله .

أوله : الحمد لله الذي لا تكفيه الأفكار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تتركه الأبصار .

آخره : حرب حصن بهلاء في شهر المحرم في أول السنة سنة تسع عشر سنه بعد ألف سنة
الموافق ١٦١٠ م . النسخة الثانية :

- تحمل هذه النسخة الثانية رقم ٥٦٥ بالمكتبة ، وهي ضمن مخطوط السير والجوابات
الجزء الثاني ، وفقدت الصفحات الأخيرة من مخطوط السير والجوابات ، وبالتالي
تعذر معرفة الناسخ والمنسوخ له ، نسخت هذه السيرة يوم الأربعاء ٢٩ ذي القعدة
سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م ، وتقع في ٢٩ ورقة وفي كل صفحة ٢٧ سطرا ، كتبت بخط
واضح وجميل ، والمخطوط في حالة جيدة .

وعنونه الناسخ ب « صفة نسب العلماء وموتهم وبلدانهم والأئمة رحمهم الله » .

أوله : الحمد لله الذي لا تكفيه الأفكار ولا تحويه الأقطار ولا تحجبه الأستار ولا تدركه الأبصار .

• نسخة مكتبة وقف بني سيف :

نسخ المخطوط سعيد بن محمد بن عدي نسخته لشيخه سالم بن راشد بن سالم بن ربيعة
البهلولي ، نسخ في سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٧١ م ، ويقع المخطوط في ٣٣ صفحة وفي كل صفحة
١٨ سطر ، وهو بحالة جيدة ، وكتب بخط واضح وجميل .

وعنونه الناسخ ب « معرفة جميع العلماء وأكثيتهم وبلدانهم وموتهم » .

أوله : الحمد لله الذي لا تكفيه الأفكار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه
الأبصار .

وأخره حوادث سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م .

• نسخة مكتبة الشيخ سالم بن حمد الحارثي

يقع المخطوط في ٣٧ ورقة ، وفي كل صفحة ١٤ سطرا ، نسخ المخطوط ناصر بن
سالم بن مبارك بن سعيد بن مبارك البوسعيدي نسخته للشيخ حمد بن سعيد بن محمد
بن عبدالله بن خلف البوسعيدي ، في زنجبار يوم ٢٩ شعبان ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م .

وعنونه الناسخ ب « هذه النبذة في معرفة أسماء أهل العلم وكناهم وبلدانهم وقراهم

أوله : الحمد لله الذي لا تكفيه الأفكار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تتركه الأبصار .

آخره : استعراض لخلفاء بني العباس .

• نسخة مكتبة الشيخ سيف بن حمود البطاشي :

بولاية دماء والطائيين ، ولا يوجد به رقم خاص بالمكتبة . يوجد بالمخطوط أن صاحب النسخة الأصلية للمخطوط هو الشيخ نور الدين السالمي .

تكمن أهمية هذه النسخة أن كاتبها رجع إلى نسخة قديمة تعد من أقدم النسخ ، حيث نسخت النسخة القديمة في منتصف القرن العاشر الهجري ، نسخها القاضي الشيخ عبدالله بن عمر بن زياد بن أحمد بن راشد الشقصي^(١) ، ومن المتوقع أن الشيخ الشقصي هو من أضاف خبر موت الشيخ محمد بن عبد الله بن مداد صاحب السيرة ، إلى السيرة ثم تبعها بتاريخ موت عدد من العلماء ، بعدها أضاف خبر خروج السلطان سليمان بن سليمان النبهاني من حصن بهلا سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م ، ثم شرع في حساب السنين منذ خلق آدم وحتى عام ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م ، وأرخ لوفاة والده الشيخ عمر بن زياد الذي كانت وفاته سنة ٩٥٠ هـ وموت جده الشيخ زياد بن أحمد سنة ٨٩٢ هـ / ١٥٤٣ م .

رجع الشيخ عمر بن سعيد بن عبد الله إلى النسخة التي كتبها القاضي عبد الله بن عمر الشقصي ونسخها لنفسه وأضاف عليها خبر موت جده الشيخ عمر بن أحمد بن أبي علي بن معد^(٢) ، و نسخة الشيخ عمر بن سعيد هي النسخة التي اطلعت عليها وفيها اشارا إلى أن

(١) الشيخ عبدالله بن عمر بن زياد بن أحمد بن راشد الشقصي ، أحد علماء بهلا ، من علماء القرن العاشر الهجري ، نشأ أسرة علمية ، من المبايعين للإمام بركات بن محمد بن إسماعيل سنة ٩٤٢ هـ / ١٥٣٦ ، من مؤلفاته شرح قصيدة أبي نصر في الصلاة ، ألف الجزء الرابع والعشرين المفقود من بيان الشرع ، له عدد من الأراجيز وعدد من الأجوبة في كتب الأثر ، وعرف عنه والكثير من أسرته نسخهم للكثير من المخطوطات ، حيا في شعبان ٩٨٣ هـ / نوفمبر ١٥٧٥ م . انظر السعدي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢) الشيخ عمر بن أحمد بن معد ، أحد علماء مدينة بهلا ، من علماء القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي ، عاصر الشيخ صالح بن وضاح المنجي ، وصف الشيخ صالح الشيخ عمر بأنه كان تقيا رصيا . المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ .

الناسخ الأول هو القاضي عبد الله بن عمر بن زياد الشقسي ، ومن ثم نسخ نسخته الشيخ عمر بن سعيد بن عبد الله بن سعيد ، سنة ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م .

نسب الناسخ الشيخ عمر بن سعيد بن عبدالله السيرة لغير مؤلفها ابن مداد ونسبها للشيخ محمد بن عبدالله بن جمعة بن عبيدان ^(١) ، يقع المخطوط في ٤٠ ورقة ، عدد الأسطر ١٤ سطر في كل صفحة .

• أهم الملاحظات من خلال دراسة النسخ المتعددة للسيرة :

١- نسب أكثر النساخ وأقدمهم السيرة إلى الشيخ محمد بن عبد الله الناعبي ، وإن وجدت بعض النسخ التي نسبتها إلى غيره نسبتها للشيخ محمد بن عبدالله بن عبيدان ، إلا أن هذه النسخ قليلة إلا أن أكثر النسخ أكدت إلى نسبتها إلى ابن مداد .

٢- لم يضع ابن مداد عنوان لسيرته ، وهذا يبدو جلياً من خلال النسخ حيث وضع كل ناسخ عنواناً للنسخة الخاصة به ، ووضع النساخ هذه العناوين بناء على موضوع السيرة ، ووضع لها عنوان اشتهرت به وهو « سيرة العلماء » .

٣- لا توجد في جميع النسخ خاتمة للسيرة أو ما يشير إلى أن ابن مداد وضع لها خاتمة ، بل نجد بعد الفصل الخاص بوفيات الصحابييات رضوان الله عليهن ترد معلومة تاريخ موت ابن مداد وتحديد المكان الذي دفن فيه . ومن بعدها تختلف النسخ في عدد الفصول التي تم إضافتها وتم الإشارة إلى جيع هذه الإضافات أنها من أصل السيرة .

٤- يبدو أن ابن مداد مات قبل أن يتم كتابة السيرة وقبل حتى أن يعدها لصيغتها النهائية ، وهذا يتضح من خلال الاطلاع على السيرة والتي لا تتعدى ٢٦ ورقة ^(٢) حيث يوجد فيها الكثير من تكرار المعلومات ، مثل المعلومة الخاصة بأصل جابر بن زيد

(١) الشيخ محمد عبدالله بن جمعة بن عبيدان النزوي ، من العقر من مدينة نزوى ، كان أعمى ، أخذ العلم عن الشيخ صالح بن سعيد الزامل ، عمل قاضياً للإمام سلطان بن سيف والإمام بلعرب بن سلطان الذي قربه واسكنه في حصن جبرين للتدريس في مدرسة الحصن ، توفي صباح الخميس ٢١ من محرم ١١٠٤ الثاني من أكتوبر ١٦٩٢ م . السعدي ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) هذا بحسب أقدم النسخ التي حصلنا عليها وهي نسخة مكتبة الشيخ ناصر بن راشد الخروصي .

بأنه من الیحمد وأنه من فرق بین منح ونزوی کررها خمس مرات ، وکرر معلومة أن الربیع بن حبیب من غضفان ثلاث مرات ، وکرر أن بلج بن عقبة من مجز أربع مرات ، وأن المختار بن عوف من خرمة کررها مرتین .

كما أن ابن مداد لم یسیر فی بعض أجزاء السیرة إلى فی اتجاه واحد فأحیانا یتناول موضوع وفجأة یشرح منه إلى موضوع بعید عنه ، ومثال ذلك حین کتب عن وفیات العلماء الإباضیة فی الفصل الثالث فبعد أن ذکر تواریخ وفیات عدد من العلماء نجده یتوقف لیکتب خبرا عن خروج أولاد الرئیس علی عمان وعنونه ب « خبر آخر » ، ثم کتب عن حادثة السیل الذی وقع سنة ٢٥١ هـ وعنونه بعنوان « خبر قديم » ، ثم یکتب عن زهد بعض العلماء ، بعدها یعود مجددا إلى الكتابة عن وفیات العلماء ویزکر تاریخ وفیات عدد من العلماء ، لیعود مجددا إلى ذکر بعض المعلومات التي لا تتعلق بوفیات العلماء کاسم النملة واسم الهدهد الاذان ذکرا فی القرآن الکریم .

• ثالثا : منهجیة الشیخ محمد بن عبدالله بن مداد الناعبی فی الكتابة من خلال السیرة :

کتب الشیخ محمد هذه السیرة ردا علی رسالة کان قد أرسلها له أحد أصدقائه یطلب فیها من الشیخ محمد أن یذكر له فی رسالة أسماء العلماء الإباضیة بدء من الإمام جابر بن زید وحتى عصر صاحب الرسالة أي القرن العاشر الهجري ، كما طلب منه أن یکتب له کنیة العلماء وتاریخ وفاتهم .

استجاب الشیخ محمد لطلب صدیقه وکتب له رسالة ردا علی رسالته ، ووضح فی بدايتها أنه واجه صعوبة فی تنفیذ طلب صدیقه بسبب خلو المصادر من استعراض لتسلسل العلماء الإباضیة ومن تحديد کنیتهم وتاریخ وفاتهم ؛ مما دفع الشیخ محمد إلى البحث فی المصادر ودراستها من أجل تحقیق طلب صدیقه . وبعد دراسة وتقصى وبحث فی المصادر کتب الشیخ محمد رسالة قسمها إلى :

١- مقدمة یبدأها بالحمد والثناء لله تعالی والصلاة والسلام علی سیدنا محمد ، بعدها

ذكر السبب الذي جعله يكتب رسالته أو سيرته ومدى الصعوبة التي واجهها في تنفيذ طلب صديقه .

٢- الفصل الأول من سيرته عنوانه (ممن أخذ العلماء الإباضية علمهم) ، حيث بدأ السلسلة بعبد الله بن عباس الذي أخذ عنه جابر بن زيد أكثر علمه ، بعدها استعرض بقية علماء الإباضية بدأ بالإمام جابر بن زيد ، مع إعطاء معلومة موجزة عن العالم مثل مكان إقامته وأشهر ما يروى عنه والمكان الذي مات فيه ، وفي أحيانا يذكر بعض مؤلفات العلماء خاصة المؤلفات التي اشتهرت مثل كتاب بيان الشرع والمصنف والضياء .

٣- أما الفصل الثاني فوضع له عنوان وهو (فصل في معرفة إسناد دين أهل الفوز ونقلهم إياه عن بعضهم بعضا) تناول هذا الفصل سلسلة إسناد العلماء وممن أخذوا العلم بدأ هذه السلسلة بسلمة بن مسلم العوتبي وممن أخذ العلم وظل يتتبع هذه السلسلة حتى انتهى بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومن بعده جبريل عليه السلام ثم ذكر أن سيدنا جبريل ما هو إلا وحي الله تعالى ، بعدها استعرض سلسلة أخرى من العلماء بدأها بالشيخ أحمد بن عبد الله بن موسى الكندي ويظل يتتبع ممن أخذ العلم ، إلا أنه هذه المرة يتوقف عند القاضي أبي علي الحسن بن أحمد بن محمد بن عثمان العقري .

وهدف ابن مداد من استعراض هذه السلسلة الرد على البعض ممن يعيب على المذهب الإباضي وعلمائه ، فأراد إيضاح أن مصدر علم علماء الإباضية ما هو إلا من عند رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى ، وفي ذلك يقول « ... فليس لطاعن في ديننا مغمز ولا لقائل فيه مهمز ، والحمد لله على ما هدانا ومحننا وأعطانا » (١) .

٤- الفصل الثالث خصصه لتواريخ وفيات الأئمة الإباضية والعلماء ، وجعل له عنوان وهو (وهذه تواريخ الأئمة والعلماء وتواريخ موتهم) ويلاحظ من خلال دراسة هذا الفصل الدقة الكبيرة في تحديد تاريخ الوفاة حيث يحددها بالسنة واليوم وفي أي وقت

(١) ابن مداد ، المصدر السابق ، ص ٢٦ .

أنشاء اليوم .

٥- الفصل الرابع ذكر فيه ابن مداد تاريخ وفاة الرسول الكريم ووفيات الصحابة رضوان الله عليهم وعدد من علماء العالم الإسلامي ' وعنوانه ب(تاريخ موت النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده والتابعين من بعدهم) .

٦- الفصل الخامس تناول فيه تاريخ وفيات الصحابييات رضوان الله عليهن ، وعنوانه ب(ذكر تواريخ المصطفيات من النساء) . عند هذا الفصل انتهت سيرة الشيخ محمد بن عبدالله بن مداد وما جاء بعده من فصول ما هي إلا زيادات من النساخ ؛ لأن أول خبر جاء بعد هذا الفصل هو وفاة الشيخ محمد بن عبدالله في سنة ٩١٧ هـ وأنه قُبر بمساجد العباد فلا يعقل أن يسجل الإنسان تاريخ وفاة وأن يحدد أين دفن .

كما أن النسخ التي اطلعنا عليها تختلف فيها كل نسخة في مواضيع الفصول التي جاءت بعد الفصل الأخير (ذكر تواريخ المصطفيات من النساء) حيث تنتهي بعض النسخ عند هذا الفصل بينما يزيد بعضها في الفصول ويضع فصول أخرى تبدأ جميعها بتحديد وفاة الشيخ محمد بن عبدالله بن مداد ، كما أن عدد من الفصول المضافة تحتوي على أحداث حدثت بعد موت الشيخ محمد بن عبدالله ، أو فصول تحتوي معلومات مكررة لما ورد في السيرة .

رابعاً : المصادر التي اعتمد عليها محمد بن عبدالله في كتابة السيرة :

رجع الشيخ محمد بن عبدالله لعدد من المصادر في كتابة سيرته ، وكان كثير ما يشير صراحة إلى المصدر الذي استقى منه معلوماته ، كما اعتمد ابن مداد على الروايات الشفهية وما يتداول في عصره من معلومات وقصص عن بعض العلماء الإباضية :

أولا : المصنفات الإباضية :

١- سيرة محبوب بن الرحيل بن سيف بن هبيرة القرشي

محبوب بن الرحيل بن سيف القرشي المخزومي ، من علماء القرن الثالث الهجري ، ربيب الربيع بن حبيب الفراهيدي ، تلقى العلم على يديه وعلى يد أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، تعاقب عدد من العلماء من نسله منهم أولاده محمد وسفيان والمحبر وحفيده عبدالله وبشير أبناء محمد بن محبوب ، والإمام سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب ^(١) . استعان ابن مداد مرتين بهذه السيرة أشار إلى ذلك بقوله : « وقال أبو سفيان محبوب بن الرحيل بن سيف بن هبيرة القرشي » ^(٢) ووجدت في سيرة محبوب في أمر هارون بن اليمان ^(٣) ، ويبدو أن الكتاب الذي رجع إليه ابن مداد كان يتناول قصص وأخبار علماء المذهب الإباضي وأهم الأحداث التي تزامنت مع قيام المذهب ، وهذا يتضح من خلال القصة التي أوردها ابن مداد حيث ذكر قصة التقاء بعض علماء المذهب الإباضي بالخليفة عمر بن عبدالعزيز ، و وفاة ابن عبدالملك بن عمر الذي وافقه المنية والإباضية موجودين في مجلس أبيه ، فاشتركوا في مراسم غسله ودفنه ، ويعد كتاب محبوب بن الرحيل هذا من الكتب المفقودة في وقتنا هذا .

أما « سيرة محبوب بن الرحيل إلى أهل عمان في أمر أهل هارون بن اليمان » فهي سيرة مطبوعة ضمن السير والجوابات ^(٤) ، ولقد رجع ابن مداد إلى سيرة محبوب بن الرحيل في معرض حديثه عن صحار بن العباس العبدي حيث ذكر انه معلم أبو عبيدة ، « ... قال صحار رحمه الله ، وكان من فقهاء المسلمين و علمائهم وهو معلم أبي عبيدة الأكبر رحمهم الله جميعا » ^(٥) .

(١) الشماخي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ البطاشي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢١٧ - ٢١٩ ، السعدي ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٥ - ٤٠ .

(٢) ابن مداد ، المصدر السابق ، ص ٨ .

(٣) نفسه ، ص ١٩ .

(٤) مجموعة من العلماء ، السير والجوابات ، ج ١ ، ص ٢٧٦ - ٣٠٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

٢- كتاب الوضاح بن عقبة النزوي

من علماء القرن الثالث الهجري ، من العلماء العاقلين للإمام الصلت بن مالك بالإمامة ، و من خلال سيرة ابن مداد يتضح أن لأبو زياد كتاب إلا أن هذا الكتاب مفقود ولم يبق منه أثر ، استعان ابن مداد برواية عن أبي زياد مرتين حين تناول قصة عن المختار بن عوف ودخوله المدينة المنورة (١) ، والرواية الثانية حول تنصيب الإمام غسان بن عبد الله اليماني (٢) .

٣- مؤلفات محمد بن محبوب بن الرحيل المخزومي

محمد بن محبوب بن الرحيل بن سيف بن هبيرة القرشي المخزومي ، أبو عبد الله ، نشأ في أسرة علمية ، ولد في العقد الأخير من القرن الثاني الهجري في البصرة ، ونشأ في أسرة علمية حيث أن والده محبوب بن الرحيل هو ربيب الربيع بن حبيب الفراهيدي ، والذي اهتم بتربيته تربية دينية قائمة على طلب العلم والتبحر فيه ، وقام الشيخ محبوب هو الآخر بتربية أبنائه تربية تعتمد كثير على مما تعلمه من مربيه العلامة الربيع بن حبيب ، حيث ربي أبنائه محمد وسفيان ومحبّر تربية ندية محبة للعلم والمعرفة ، عرف عن الأخوة الثلاثة ضلوعهم في العلوم الفقهية إلا أن محمد كان أبرزهم وأفقههم (٣) . وكان كبير علماء عصره وممن قال بخلق القرآن ، على رأس المبايعين للإمام الصلت بن مالك ، تولى للإمام الصلت قضاء صحار وظل بمنصبه حتى توفاه الله سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م ، له كتاب يقع في سبعين جزء إلا أنه مفقود ، وله عدد من السير (٤) .

لا يشير ابن مداد بشكل واضح وصريح الي أي من كتب الشيخ محمد بن محبوب استقى معلوماته ، بل يكتفي بذكر قال أبو عبد الله ، ومن المعروف أن الشيخ محمد بن محبوب لديه من غير الكتب التي ألفها مجموعة كبيرة من الآراء السياسية والتاريخية والفتاوى الفقهية منتشرة

(١) ابن مداد ، المصدر السابق ، ص ٧ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨ .

(٣) الجعيري ، فرحات بن علي . حياة الإمام محمد بن محبوب القرشي العماني وعصره ، بحث مقدم لندوة تطور العلوم الفقهية في عمان خلال القرن الثالث الهجري الإمام محمد بن محبوب نموذجا ، ط ١ ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، مسقط ، ٢٠٠٦ ، ص ٢٧ - ٣٠ .

(٤) الشماخي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩ - ص ٥٠ ؛ السالمي ، اللعة المرضية ، ص ١٩ ؛ البطايشي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٠ - ٢٥٣ ؛ السعدي ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٥٣ - ١٦٠ .

في كتب الأثر منها ما هو مطبوع ومنها ما زال مخطوطا . وتعد مؤلفات الشيخ محمد بن محبوب من أكثر المصادر التي رجع إليه ابن مداد في كتابة سيرته حيث ذكر عبارة « قال أبو عبدالله » ستة عشر مرة ورجع ابن مداد إلى مؤلفات محمد بن محبوب فيما يتعلق بعلماء الإباضية من الرعيل الأول وخاصة من كان منهم بالبصرة كصهار العبدى وجابر بن زيد وضمام بن السائب وأبو عبيدة والربيع بن حبيب .

٤- كتاب ينسب لعبد الملك بن غيلان :

يذكر ابن مداد أنه رجع " لكتاب يوقع لعبد الملك بن غيلان أخ هاشم بن غيلان " (١) رجع إليه ابن مداد في استعراض عدد من علماء عمان في القرن الخامس الهجري . ويبدو واضحا أن ابن مداد ليس متأكدا من أن هذا الكتاب هو من تأليف عبد الملك بن غيلان .

وكما هو معلوم أن عبد الملك بن غيلان من علماء القرن الثالث وليس من المعقول أن يكتب كتاب يتناول فيه علماء القرن الخامس الهجري ، كما أنه لا يوجد في المصادر العمانية ما يؤكد وجود كتاب لعبد الملك ، إذن هذا الكتاب ليس من تأليف عبد الملك بن غيلان ، واعتمد ابن مداد على هذا الكتاب مرة واحدة حين استعرض تسلسل العلماء الإباضية في القرن الخامس الهجري.

٥- كتاب لسعيد بن الحكم ، أبو جعفر: سعيد بن الحكم من علماء القرن الثالث الهجري ، تلقى العلم عن بشير بن محمد بن محبوب وعن عزان بن الصقر (٢) ، ولسعيد بن الحكم كتاب إلا أن هذا الكتاب من الكتب المفقودة ولا يعرف على وجه الدقة ماهية الكتاب أو مواضيعه ، ورجع ابن مداد لكتاب أبو جعفر مرة واحدة حين كتب عن أول من اتخذ السجن من الخلفاء الراشدين.

٦- كتاب جرير بن نافع الخراساني ، أبو هاشم ، من علماء القرن الثاني الهجري ، سأل الربيع بن حبيب ، له مسائل في كتب الأثر (٣). رجع إليه ابن مداد مرة واحدة في حديثه عن صالح

(١) ابن مداد ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٢) السعدي ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١ ، ١١٤ .

بن نوح وعن ضمام بن السائب وصحار العبدي وحاجب

٧- كتاب محمد بن سعيد بن أبي بكر ، أبو ابراهيم ، من علماء النصف الأخير من القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع ، من علماء المدرسة النزوانية ، له عدد من المسائل في كتب الأثر ^(١).

٨- كتاب سعيد بن خميس الحداني ^(٢) .

٩- وجدت في الأثر : كثير ما يستخدم ابن مداد هذه العبارة « وجدت في الأثر للدلالة على الكتب الفقهية الإباضية ، التي تورد بين ثناياها الكثير من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية .

١٠- مصادر لم يذكر ابن مداد عنوانها وإنما اكتفى بذكر معلومات منها حيث يورد عبارة « وفي بعض آثار المسلمين » ^(٣) أو عبارة « وفي نسخة » ^(٤) أو « وكثيرا ما يوجد » ^(٥) .

ثانيا : المصادر الغير الإباضية

رجع ابن مداد في كتابة الفصلين الرابع والخامس إلى طبقات ابن سعد حيث يتضح ذلك من تشابه المعلومات وتشابه الترتيب حيث كتب ابن مداد عن مجموعة من الصحابة واختار الكتابة عن أشهرهم إلا أنه اتبع نفس ترتيب ابن سعد .

ثالثا : الروايات الشفهية

استعان ابن مداد بعدد من الروايات الشفهية التي تتداول في عصر ، واستخدم عبارات

(١) المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

(٢) لم أجد له ترجمة .

(٣) ابن مداد ، المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٩ .

(٥) ابن مداد ، المصدر السابق ، ص ١٠ .

تدل على استعانته بهذه الروايات ، منها :

١١- روي لنا أن الحنات ، يستخدم أحيانا عبارة أخرى للتعبير عن الرواية الشفهية « وبلغنا»^(١) أو عبارة « ويوجد»^(٢) « ويقال»^(٣) .

١٢- حدثنا يعقوب بن غيلان فروي عن الفضل بن الحواري السامي ، وروي عن أحمد بن محمد بن أبي بكر ، أبو بكر ، رواية شفهية عن شخص معاصر له من الفقهاء الإباضية .

١٣- يذكر أكثر من رواية لحدث واحد مثال ذلك حين تحدث عن أول من اتخذ السجن من الخلفاء الراشدين مما يدل على أنه لا يكفي بمصدر واحد وإنما بأكثر من مصدر للاطلاع على المعلومة ، وحين تناول موضوع المفاضلة بين الإمامين الجندى بن مسعود والإمام سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب فإنه يورد أكثر من مصدر حيث يعتمد على رواية عن أبو محمد عبدالله بن محمد بن أبي المؤثر

من خلال دراسة مصادر ابن مداد يتضح لنا مقدار الجهد الذي بذله في جمع المعلومات ، حيث أنه قد يستفيد من المصدر الواحد في كتابة سطر واحد فقط أو في أن يتحقق من معلومة واحدة .

كثير ما يقارن ابن مداد بين المصادر ليتحقق من معلومة ، ويرود عبارات تدل على قيامه بالمقارنة مثل عبارة « وفي نسخة » ، « وكثير ما يوجد » وبعدها يرجح معلومة معينة مع ذكره لسبب ترجيحه .

(١) نفسه ، ص ٢٢ ، ص ٢٣ .

(٢) نفسه ، ص ٢١ .

(٣) نفسه ، ص ١٥ .

الخاتمة

أدرك العمانيون بعد اطلاعهم على سيرة ابن مداد حجم أهميتها ، فأولوها اهتمامهم وعنايتهم ، ويتضح لنا ذلك من خلال كثرة النسخ عن المخطوطة الأم . حيث حرص علماء عمان و مثقفوها خلال العصور اللاحقة للسيرة على الاهتمام بها والاطلاع عليها ، والطلب عليها وعلى نسخها ، فشجعوا النساخ على نسخها بخطوطهم الجميلة . هذا الشعور بأهمية السيرة لم يظهر في كثرة النسخ فقط وإنما في كثرة الزيادات أيضا على أصل السيرة ، ويبدو أن موضوع السيرة كان مغريا ومحفزا للكثيرين على إضافة بعض الهوامش أو التعليق على المعلومات الواردة فيها ، ولم تقف أيدي النساخ عند حد التعليق بل وصل الأمر بعدد كبير منهم إلى إضافة فصول تتشابه مواضيعها مع مواضيع السيرة ، وبالتالي أوجد ذلك صعوبة تحديد الفصل الذي انتهى معه ابن مداد . حيث أن جميع النسخ التي حصنا عليها وجدنا فيها فصول إضافية وتختلف هذه الفصول من مخطوط لآخر .

قسم ابن مداد سيرته إلى أربع فصول بالإضافة إلى مقدمة يشرح فيها السبب من كتابة السيرة ، واعتمد في كتابته على عدد من المصادر الإباضية والغير إباضية كما استعان بعدد من الروايات الشفهية وما يتداول في عصره من قصص وأخبار عن العلماء الإباضية .

ويبدو أن ابن مداد مات قبل أن يتم سيرته وهذا واضح من خلال عدم وجود عنوان لها ، وعدم وجود خاتمة ، وتكرار عدد من المعلومات مما يعني أنه لم يصغها بصيغتها النهائية ، إلا أن ذلك لا يقلل من أهمية السيرة وهذا ما عرفه العلماء وطلاب العلم الذين جاءوا من بعد ابن مداد حيث نقلوا عنها الكثير من المعلومات والأفكار وقام بعضهم بدمجها حرفيا في كتابه وأفرد لها فصلا خاصا .

المصادر والمراجع

أ. المخطوطات :

- ١- مداد ، محمد بن عبد الله : (٩١٧ هـ / ١٥١١ م) :
اللال في أبنية الأفعال ، رقم ٧٣٦ ، مكتبة السيد محمد بن أحمد ، السيب .
- ٢- مجموعة علماء
مخطوطة كتاب السير ، الرقم ٨٦٥ ، مكتبة السيد محمد بن أحمد اليوسعيدي ، السيب .
- ٣- مجموعة علماء :
مخطوطة السير ، الرقم ٢٠٣٣ - س ، مكتبة السيد محمد بن أحمد اليوسعيدي ، السيب

ب. المصادر المطبوعة :

- ١- الأزكوي ، سرحان بن سعيد ، كشف الغمة الجامع الأخبار الأمة ، (من علماء القرن ١٢ هـ / ١٨ م) يقع الكتاب في جزئين ، تحقيق حسن محمد النابودة ، دار البارودي ، لبنان ، ٢٠٠٦ .
- ٢- الخراسيني ، عبدالله بن محمد بن عامر ، فواكه العلوم في طاعة الحي القيوم ، تحقيق وتعليق محمد بن صال بن ناصر ومهنا بن عمر التيواجيني ، خدمات الإعلان السريع ، مسقط، ط١ ، ١٩٩٤ م .
- ٣- الدرجيني ، أبو العباس أحمد بن سيد الدرجيني (ت ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م) طبقات المشائخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم طلاي ، جزءان ، مطبعة البعث ، الجزائر .
تم الإفادة من الكتاب من خلال تقديم ترجمة للأعلام الواردة في السيرة .
- ٤- ابن رزيق ، حميد بن محمد ، (ت: ١٢٩٠-١٨٧٤ م) .
الفتح المبين في سيرة السادة اليوسعيديين ، تحقيق عبدالمنعم عامر و محمد مرسي عبد الله ، ط٥ ، وزارة التراث القومي والثقافة ، مسقط ، ٢٠٠١ م
- ٥- السالمي ، عبدالله بن حميد ، (ت: ١٣٣٢ هـ / ١٩١٣ م) ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، الكتاب يقع في جزأين ، مكتبة الإمام نور الدين السال ، السيب ، ٢٠٠٠ م .
- ٦- السالمي ، عبد الله بن حميد ، اللمعة المرضية من أشعة الإباضية ، سلسلة تراثنا ، العدد ١٨ ، وزارة التراث والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨٣ م .
- ٧- ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) الطبقات الكبرى ، دار صادر ،

بيروت ، ب . ت .

٨- الشقصي ، خميس بن سعيد (ت ق ١١ هـ / ق ١٧ م) ، منهج الطالبين وبلاغ الراغبين ، تحقيق سالم بن حمد بن سليمان الحارثي ، وزارة التراث القومي والثقافة ، دت ، ٢٠ جزءا .

٩ - العوتبي ، سلمة بن مسلم ، (من علماء ق ٥ هـ / ١١ م) ، الأنساب ، جزءان ، وزارة التراث والثقافة ، مسقط ، ١٩٨٤ م .

١٠- مجموعة علماء ، السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان ، تحقيق سيدة إسماعيل كاشف ، وزارة التراث القومي والثقافة ، مسقط .

١١- ابن مداد ، محمد بن عبدالله . سيرة ابن مداد . سلسلة تراثنا . العدد ٥٦ . وزارة التراث والثقافة . مسقط ، ١٩٨٤ .

١٢- المعولي ، محمد بن عامر بن راشد بن سعيد ، قصص وأخبار جرت في عمان ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط ٢ ، وزارة التراث والثقافة ، مسقط ، ١٩٨٢ .

ج : المراجع :

١- بدوي السعيد محمد وآخرون ، دليل أعلام عمان ، ط ١ ، المطبعة العالمية ، مسقط ، ١٩٩١ م .

٢- البطاشي ، سيف بن حمود ، (ت ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) ، إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان ، ثلاثة أجزاء . سنوات مختلفة .

٣- الجعيري ، فرحات بن علي . حياة الإمام محمد بن محبوب القرشي العماني وعصره ، بحث مقدم لندوة تطور العلوم الفقهية في عمان خلال القرن الثالث الهجري الإمام محمد بن محبوب نموذجاً ، ط ١ ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، مسقط ، ٢٠٠٦ .

٤- الخصيبي ، محمد بن راشد بن عزيز ، شقائق النعمان على سموط الجمال ، ط ٣ ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٩٤ ، ات الحصول على الإجازة العالية بمعهد العلوم الشرعية ، سلطنة عمان ، ٢٠٠٠ م .

٥ - السعدي ، فهد بن علي ، معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية ، ط ١ ، مكتبة الجيل الواعد ، مسقط ، ٢٠٠٧ .

٦- الهاشمي ، سعيد بن محمد ، دراسات في التاريخ العماني ، ط ١ ، النادي الثقافي ، مسقط ، ٢٠١١ م .

٧- الهنائي ، علي بن طالب . التطبيقات الطبية في مؤلفات راشد بن عميرة الرستاق . بحث مقدم لندوة من أعلام الطب في عمان في القرنين التاسع والعاشر الهجريين . ط ١ . المنتدى الأدبي . مسقط ، ٢٠٠٨ م .



4

